

BLOOD IN THE FOGGY CITY

رواية

زينب محمد طه

دماء في المدينة الضبابية

بين سيف الدماء وميزان العدالة



الكتاب: دماء في المدينة الضبابية
المؤلف: زينب محمد طه
تصميم الغلاف: محمد دريالة
التدقيق اللغوي: مها سيد عبد المقصود
التنسيق الداخلي: هند محمود كمال
رقم الإيداع: 2024/34141
الترقيم الدولي: 978-977-778-417-7

30 عمارات العبور – طريق صلاح سالم – القاهرة

ت: 01096539633

إيميل: info@noonpublishing.com



مشاردينج
REMEDIA

الإهداء الأول

إلى الملاك الساكن في قلبي..

إلى أُمي الغالية...

أنتِ البستان الذي ازدهرت فيه أحلامي، والقلعة التي احتضنت بها
في لحظات ضعفي. أحبك دائمًا وأبدًا.

الإهداء الثاني

إلى القراء الأعزاء، وإلى الأصدقاء الذين أضاءوا عتمة الأيام،
لطالما اعتقدت أنني شخص انطوائي، بأصدقاء يمكن عذهم على
أصابع اليد الواحدة، لكنني كنت مخطئة. لقد منحني الله نعمة
وجودكم، فكنتم خير سند وخير أنيس في لحظات الوحدة والصمت.
سلامًا على قلوبكم النقية، ودامت محبتكم نورًا يضيء طريقي،
ورفقتكم زادًا أستند عليه في هذا الدرب الطويل.

تنويه

جميع الأحداث والشخصيات المذكورة في هذه الرواية هي من وحي الخيال ولا تمت بأي صلة لعالمنا. أي تشابه بينها وبين الواقع هو مجرد صدفة لا علاقة لي بها.

ما من شرٍ تقتربه في الحياة
لا وطاردك في الآخرة!

زيارة مفاجئة

لم يفهم السيد سالار سر ذلك الغثيان الذي تسلل إليه في تلك الليلة الباردة. انغمس بصره في حروف الرسالة في يده، لكن عقله أبى أن يستوعب تمامًا ما كُتب. الرسالة، تلك القطعة الورقية الصغيرة، بدت كشيطان مارد، تكتم أنفاسه وتشد وثاق قلبه بخيط من الرعب الخفي. تيقن أن الهدوء الذي اعتاد عليه لن يطول هذه المرة؛ فكل كلمة حملت معها نذر شرٍ يتربص به.

لم تكن الرسالة مجرد كلمات، بل صيحة خفية من أعماق الظلام. مع كل سطر قرأه، ازداد اضطراب أحشائه، وكأنها تتمرد على وجودها داخله. تصاعدت رغبة التقيؤ بداخله كما لو أن جسده يحاول لفظ ذلك الشر الذي تسلل إليه من بين السطور. للحظة، شعر بأن برد الليل لم يعد يلسع جسده فقط، بل تخلل إلى روحه، جاعلاً إياه أسيرًا للخوف والقلق.

نهض من أمام مكتبه في الكوخ الخشبي بجانب ضفة النهر على تلك الجزيرة المهجورة، حيث اعتاد أن يمضي بعض الليالي وحيداً ليهرب من ثرثرة زوجته وشكاوى أبنائه التي لا تنتهي. إنه يأتي إلى هنا كلما ضاقت به أرجاء سالتِيُورا ولم يعد هناك مكانٌ بها يسع أفكاره المتصارعة، ولا لتلك التوجسات التي تجعله يتلفت حوله في كل ليلة؛ خوفاً من الموت.

فتح باب الكوخ الخشبي، وخرج منه وهو ينظر إلى الضباب الذي يغلف المكان من حوله ليجعل الرؤية صعبةً للغاية؛ فقد كان بحاجة إلى استنشاق الهواء البارد، لعل جوفه يهدأ قليلاً، لكن هيهات، إذ

ازداد شعوره بالغثيان حينما تذكر ما كُتب في الرسالة. رنَّ الهاتف، فأصابه فزع مفاجئ لكنه لم يجرؤ على تجاهله. دلف إلى الداخل واقترب من الهاتف الأسود الذي كان يرن فوق مكتبه الضخم، ثم رفع سماعته وقال:

- ماذا؟

لم يسمع شيئًا في البداية، ولكن بعد لحظات معدودة بدأت الأصوات تتضح تدريجيًا، وكأنها تأتي من بعيد لتقترب شيئًا فشيئًا. صوتها الباكي المخنوق مرق قلبه إربًا إربًا؛ فهي نقطة ضعفه في هذه الحياة، صرخت وناحت فانقطعت أنفاسه لتوان وهو يكتن حسرته في قلبه، فما أصابها غير مفهوم، بل إن ما أصاب الكثير منهم مؤخرًا خارج حدود المنطق ولا يوحى بالخير أبدًا.

قالت بصوتٍ واهن يقطعه البكاء:

- إنني أراهم يا أبي، ولكنهم أبشع من المرات الماضية. لم أعد أحتمل.

صمتت لبرهة، ثم عادت تقول وهي تبكي:

- لماذا تركتني يا أبي؟ إنني أعاني هنا، ووجوههم بشعة لا تحتمل.

كبح جماح دموعه المتصارعة في مقلتيه، ثم قال بهدوء مصطنع:

- أين والدتك؟

أجابته بصوتٍ مختنق من كثرة البكاء:

- لا يوجد أحد هنا يا أبي، إنني بمفردي الآن، ولكنهم يظهرون فجأة

ثم يختفون.. لم أعد أحتمل رؤيتهم.

تنهد بقوة وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- لقد أخبرتك مرارًا أن ما تمرين به ليس سوى مرض شائع أصاب الكثيرين في الآونة الأخيرة، لا تقلقي سنجد الدواء المناسب له قريبًا، ولكنني أرغب في التحدث مع والدتك، الأمر ضروري للغاية.

قالت بصوت متحشرج تحوّل إلى صوت مرعب بغيض مغاير لصوتها الرقيق:

- مرحبًا أبي، هل تفتقدني؟

تسمر مكانه ولم يتحرك قيد أنملة وهو يستمع إلى ابنته ذات الثلاثين عامًا وهي تسقط في هاوية الجنون.

لقد بدأ الأمر منذ أشهر قليلة، فأصيب عدد كبير من المحيطين بالسيد سالار بذلك المرض العجيب. بدأ الشك يتسرب إلى نفوس الناس في سالتيور. لم يعد الحديث عن المرض مجرد شائعات، بل أصبح حديثهم المألوف، وكأنهم كلهم في مرحلة انتظار لما سيحدث لهم. حتى في أكثر لحظات السكون، كانت الهمسات تُشاع عن تلك الوجوه الدميمة، كأنها تتربص وراء كل نافذة مظلمة.

تشابهت الروايات واتفقت على أن الشخص المريض يرى أشخاصًا لهم وجوه دميمة تبث الهلع في النفس. لم يكثرث السكان في سالتيور في بادئ الأمر، ولكن الوضع أصبح معقدًا للغاية بعدما ارتكبت إحدى النساء جريمة قتل في حق نفسها؛ عندما ألقت بنفسها من فوق الجسر لتسقط في النهر صريعة على الفور.

منذ تلك اللحظة، تأكّد سكان المدينة أن ما يحدث لبعض الأفراد من عائلاتهم ليس بالأمر الجيد على الإطلاق، وأن أيّا كان ما أصابهم سيصيب البقية يومًا ما، فما هي إلا مسألة وقت وسيندم الكل على التجاهل.

احترار الأطباء في تشخيص المرض وإيجاد علاج مناسب له؛ مما جعل الأمور أعقد مما تبدو عليه بكثير، فذلك المرض يجعل المرء يرى أشياء غير حقيقية ثم ينتهي به الحال قاتلاً أو مقتولاً في نهاية المطاف!

تمالك السيد سالار نفسه بصعوبة وقال:

- حبيبتي، أريد التحدّث إلى والدتك، فالأمر لا يحتمل التأخير.

لم ترد، فعاد يقول مرةً أخرى وقد نفذ صبره فضغط على كل كلمة وهو يتحدّث بعصبية لأول مرة:

- أود أن أتحدّث مع والدتك..

لم يمهله جملته أبداً؛ لأن الصرخة المدوية والمرعبة كادت تخترق أذنه من حدتها، فهي صرخة لا تمت لعالمنا بصلية، بل هي صرخة لا تأت إلا من الجحيم المستعر، وكأنها صرخة شيطانٍ يُحاسب على آثامه. لم يدر السيد سالار سبب تلك الصرخة على الجانب الآخر من الهاتف، ولكنه متأكّد من شيء واحد وهو أن تلك الصرخة لم تنبعث من ابنته بل من زوجته، فقال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

- ماذا يحدث بالضبط؟

انقطع الاتصال فلم يعد هناك من يتحدّث على الجانب الآخر من

الهاتف، تدلت السماعه وترنحت عندما سقطت من يده المرتجفة بعدما شعر بأنفاس حارة تلفح أسفل عنقه، ولكنه لم يجرؤ على الاستدارة؛ فهو يدري أن الشخص الوحيد الذي يعرف مكان هذا الكوخ هو ابنه الأكبر الذي من المستحيل أن يأتي إلى هنا دون الطرق على الباب على الأقل. أيقن السيد سالار أن هذه اللحظة لن تمر بسلام أبدًا.

عندما فتح الزائر الغريب فمه، خرج الصوت عميقًا أجش، نغماته منخفضة تشبه صوت الأظافر على الأرضية الخشبية، فخرجت الحروف منه شرارات تحرق أذنيه.

قال الزائر:

- هل تتذكر الآن؟

فكر السيد سالار بسرعة أدهشته؛ فهو لم يكن من ذوي الحيلة والدهاء بل كان شخصًا عاديًا لا يرهق عقله بالتفكير في أمور العمل؛ فهناك من يتولى كل القضايا الصعبة والمستحيلة نيابةً عنه حتى لا يرهق عقله في التفكير، لكن الموقف الآن صعب للغاية ويجب عليه أن يفكر بنفسه وفي أقرب وقت حتى يتمكن من النجاة.

التقط سماعه الهاتف بسرعة واستدار ليضرب أيًا كان من يقف خلفه، ولكن الزائر كان أسرع منه بكثير حيث أطبقت يداه على عنق القاضي الذي اتسعت عيناه دهشةً وهلعًا مما يراه، فمن يقف أمامه لم يكن بشريًا بل كان مسخًا؛ لا عيين له ولا أنف ولكن الوجه الذي لا يوجد به ملامح استقر فيه فمٌ قبيح راح يبتسم بخبث، بينما يختنق القاضي وتتحشرج روحه في صدره وهو على شفا حفرة من الموت.

حاول القاضي أن يرفع السماعة حتى يضرب المسخ، ولكن أعصاب يده لم تقوَ على الحركة. عاد يحاول ثانيةً مرارًا وتكرارًا وهو يشاهد أشخاصًا يلتفون حوله في دائرة لا ملامح لهم كالمسخ الذي يحاول قتله الآن. استعاد السيطرة على ذراعه أخيرًا عندما رفعه إلى الأعلى، وضرب المسخ بكل ما أوتي من قوة حتى تحرر من قبضته.

أسرع القاضي إلى باب الكوخ وخرج ليغرق في الضباب الموحش، محاولًا أن يتحسس طريقه إلى شاطئ النهر حتى يصعد على متن القارب الذي سيبحر به إلى الضفة المقابلة. تعثر لسوء حظه ووقع على الأرض الطينية؛ فانكسر ذراعه بسبب ثقل جسده عليه فدوت صرخة ألم حادة في المكان، ولكنه كتمها بسرعة حتى لا يأتي المسخ إليه.

حاول أن يزحف إلى شاطئ النهر مستخدمًا ذراعه الآخر، حيث لاح شبح القارب في الأفق، فظهر وكأنه ملاك انبثق منه النور في ليل كالح السواد فاشتد الألم وعظم في ذراعه المكسور. لم يتزحزح السيد سالار قيد أنملة؛ لأن المسخ ظهر ثانيةً، وأمسك بمعطفه ثم جره إلى شاطئ النهر بينما صرخ القاضي بهلع، ولكن الأذان التي بإمكانها أن تسمع استغاثاته بعيدة عنه للغاية.

غمرته المياه ولم يرى سوى وجه المسخ المخيف يبتسم بانتصارٍ وسط انبثاق خيوط الضوء التي راحت تبرق في سماء سالتيور، بينما تدخل المياه رئتيه لتجعل موته أبطأ وأشد ألقًا. التفت يدا المسخ حول عنق القاضي فأحكم قبضته بقوة وراح يضغط عليها لتنجح مهمته. وبينما كان القاضي يختنق، ظهرت جمث لأطفال

ونساء تسبح من حوله، تعلو وجوههم ابتسامات غريبة تبث الرعب في النفس.

لقد شاهد سكرات الموت لمن حوله مرارًا من قبل ولكنه لم يكن يعلم أنها مؤلمة هكذا، فانسلاخ الروح عن الجسد هو ألم لا يُحتمل بالتأكيد. استغرقت سكرات الموت خمس دقائق، بدت كدهرٍ بأكمله حتى صعدت روحه إلى بارئها، وتركت جسده الفاني ليتعفن أسفل مياه النهر؛ فتركه المسخ ووجهه ما زال ينظر إليه إن كان له عينان، ثم ساد الهدوء المكان ومثلما ظهر كل شيء فجأة اختفى بسرعة فلم يعد له أثر.

وجهة في النافذة

في قلب مدينة سالتيور، المعروفة بين سكانها بـ"المدينة الضبابية"، كانت الجرائم والبؤس أمرًا مألوفًا، لكن تلك الليلة كانت مختلفة؛ ليلة حملت شؤمًا سيغير ملامح الحياة فيها إلى الأبد.

تساقط المطر بغزارة، بينما دقت ساعة الميدان الكبير معلنة منتصف الليل. الطرقات المبللة بالكاد احتضنت الخطوات المتسارعة للقليل من المارة، بينما العربات تشق طريقها بشق الأنفس، تصارع الوحل والضباب. كانت المدينة أشبه بظلي شاحب، تخفي في طياتها أسرارًا مريبة.

لم يكن الميدان الكبير خاليًا من المارة، ولم يكن مكتظًا بهم أيضًا؛ إذ كان عدد قليل منهم يسرون للعودة إلى منازلهم بعد عناء يوم شاق آخر في العمل. أما الآخرون ذوو الأعمال المميزة صعدوا على متن العربات التي راحت جيادها تضرب الأرض لتصدر إيقاعًا فريدًا من نوعه.

يعتقد سكان المدينة أن ليالي الشتاء كثيبة، لكن هذه الليلة تختلف عن سواها؛ فالضباب الكثيف المنبعث من مصانع النسيج يحجب الرؤية بشكل شبه كامل، وغزارة الأمطار فوق المدينة القاتمة جعلت السير على الأرض المبلطة شبه مستحيل.

على بعد أمتارٍ من الساعة الكبيرة التي تتوسط الميدان، كانت مالكة نُزل "العنقاء" تجلس بجوار النافذة وتمسك بفنجان الشاي الذي كان يوشك على الانتهاء. وضعت يدها على المنضدة حين فُتح باب

الثُّل، فدخل منه رجلٌ في الثلاثين من عمره، اقترب من مالكة الثُّل وقبَّل جبينها ثم جلس على إحدى المقاعد الخشبية في زاوية بعيدة وكأنه يريد أن يختبئ بين الظلال.

كان الرجل طويل القامة، عريض المنكبين، قوي البنيان. شعره كستنائي اللون، يلمع كحبات البندق اللامعة. كانت بشرته حنطية فاتحة، وعينيهِ بُنيتين. له ذقنٌ بارز ولحية خفيفة جعلته وسيماً بشكل لافت.

توجهت مالكة الثُّل نحوه، ابتسمت إليه وهي تسلمه الجريدة. أمسك بالجريدة وشكرها، ثم فتحها وقرأ ما كُتب عليها بالحبر الأحمر أعلى الصفحة؛ فتجهّم وجهه على الفور. رفع أنظاره إلى والدته التي كانت تراقبه في صمت وهي تحتسي كوب الشاي فلمحها تومئ برأسها؛ ففهم ما تعنيه على الفور.

فُتح باب الثُّل مرةً أخرى، دخلت فتاةٌ في العقد الثالث من عمرها بارعة الجمال ليس لها مثيل، شعرها كستنائي اللون، وعيناها رماديتين، ولها بشرة بيضاء لامعة. كانت ترتدي الثوب الزهري أسفل المعطف الأسود مما أضفى جمالاً خاصاً على جمالها. ابتسمت بشفاهِ وردية تعكس النور في المكان، ونظرت حولها بعينين واسعتين، وكأنها ريمٌ جميل يسلب العقول والألباب بنظراته الساحرة.

توجهت الأنظار نحو الفتاة الجميلة، إلا أن بعض النساء شعرن بشيءٍ من الغيرة حتى وإن لم يظهرن ذلك. لقد كانت نظرات الحقد كافيةً لتوحي بالكثير، وكأن الفتاة الجميلة أخطأت؛ لأنها خلقت بهذا القدر من الجمال.

تقدّمت بخطواتٍ واثقة نحو إحدى الطاولات المجاورة لتلك التي يجلس أمامها ابن مالكة الثُّزل. عندما جلست، فاح عطرها برائحة الزهور، مما دفع الرجل إلى التحديق في وجهها. ارتبكت الفتاة تحت وطأة نظراته العابثة عليها، فلم يفعل شيئًا سوى التحديق فيها بملامح عابسة.

طلبت الفتاة من مالكة الثُّزل أن تستخدم الهاتف لتتصل بقلعة 'تيلارين' ليرسلوا إليها إحدى العربات. ثم صعدت إلى إحدى الغرف بالثُّزل لترتاح قليلاً حتى يأتي السائق ليأخذها إلى القلعة حيث ستعمل.

مرت الدقائق ثقيلةً، ولكن طرقات مالكة الثُّزل كانت بمثابة المنقذ لها، فأخبرتها الأخيرة أن سائق العربة ينتظرها في البهو. نزلت الفتاة الدّرج فرأت رجلاً في العقد الرابع من عمره يتقدّم منها وهو ينحني باحترام لها قائلاً:

- السيد ليرون ينتظرك في القلعة.

أومأت برأسها، ثم توجهت إلى الباب لتصعد على متن العربة التي ستأخذها إلى قلعة 'تيلارين'. تحركت العربة في دروب سالتورا الضبابية، فراحت الجياد تضرب الأرض بحوافرها فتقدح بالحدوات الشرر. سارت العربة في طريق وعر حتى وصلت إلى مشارف الغابة التي تفصل بين الميدان الكبير في حي المصانع والمدينة نفسها، حيث يعيش الكينمارو في قلاعهم الفاخرة.

وصلت العربة أخيرًا إلى البوابة الحديدية للقلعة بعد رحلة قصيرة كان شعارها الصمت، فلم ينطق السائق بكلمة، ولم تنطق الفتاة أبدًا،

مما جعلها تشعر بالملل القاتل. اصطف الحراس أمام بوابة القلعة الكبيرة، وكان من بينهم رجل عريض المنكبين، قوي البنيان، في الثلاثين من عمره. طلب من السائق أن يتوقف ليتفحص العربية، ففتح بابها ليندهش عندما رأى الفتاة التي كانت تجلس على الطاولة المجاورة له في نُزُل العنقاء قبل ساعات. تبادل الرجل النظرات مع الفتاة، ثم طلب من سائق العربية أن يترجل ويقابله بعد أن يأخذ الفتاة إلى السيد الكبير.

وقفت الفتاة أمام البوابة الكبيرة، تنظر إليها برهبة لم تعرف سببها، لكنها أيقنت أن تجربتها هذه المرة مختلفة بلا شك. هطلت الأمطار بغزارة فوق رأسها فابتلت ملابسها بشدة. لمحت رجلاً يجري باتجاهها وهو يحمل مظلة في يده ليحميها من المطر الغزير. لم تفهم ذلك الشعور الغريب المتأجج بداخلها؛ فكلما اقتربت من بوابة القلعة، شعرت برغبة عارمة في الاستدارة والعودة إلى قصر الحاكم حيث تعيش.

وقفت أمام قلعة تلونت جدرانها الخارجية باللون الرمادي الكئيب، مكونة من أربعة طوابق والعديد من الغرف التي لم تتمكن من حصرها. أحاطت المروج الخضراء بالقلعة من كل حدب وصوب، لكن أشد ما لفت انتباهها هو تلك البحيرة التي استقرت أمام القلعة لتفصل بينها وبين حي المصانع على الضفة المقابلة. وعلى يمينها، وقف ملحق للقلعة بشموخ، كالجنود في الحرب، يتحدى المارة بالاقتراب منه والغوص في غموضه.

كان الملحق أشبه بقصر صغير، يتألف من ثلاثة طوابق ويضم عددًا

كبيرًا من الغرف، لكنه لم يُضاه تلك الموجودة في القلعة. استقرت نظرات الفتاة على إحدى نوافذ الملحق، فتجسدت في مكانها وهي تراقب طفلة في العاشرة من عمرها ترتدي ثوبًا أسود اللون، ولها ضفirtان. كانت الطفلة تنظر إليها وهي تبكي. راقبتها الفتاة بفضول، إذ كان من الغريب أن تقف في النافذة طفلة في هذا العمر تبكي وحدها بعد منتصف الليل.

استدارت الفتاة وسألت الخادم عن تلك الطفلة، فابتسم بخبت وقال:

- إنها إحدى فتيات الميتم. لقد وهبت السيدة جميلة - لترقد روحها في سلام - هذا الملحق إلى مجموعة من معلمي سالتيور الذين تقاعدوا من قلعة العلوم، ليشرّفوا على أيتام المدينة، فقراء كانوا أم أغنياء، كما تعلمين!

كانت السيدة جميلة هي الزوجة الراحلة للسيد ليرون. ناداها الناس بجميلة وكانت هي جميلة بحق؛ فجمالها كان مصدر إعجاب لكل من يراها، حتى أنها ورّثت حُسْنها إلى ابنها وحفيدتها، ولكن جمالها تلاشى عندما مرضت بمرض خطير حرّمها من جمالها البهي، وحولها إلى مسخ مخيف.

قطبت الفتاة جبينها، ثم شكرت الخادم الذي غادر القلعة متجهاً إلى البوابة. لمحت الرجل الذي كان ينظر إليها بعبوس في نُزْل العنقاء، وظلت نظرات التجهم لا تفارق وجهه، وكأنه لا يرغب في وجودها في القلعة. كان المشهد بأكمله غير مريح، والجو العام في المكان لا يبعث على البهجة. فكرت الفتاة في التراجع عما تفعله، لكنها شردت

قليلاً فيما سيحدث إن عادت إلى القصر حيث تعيش مع والدها المستبد. لم تتذكر أبداً أنه كان السبب في ابتسامة أمها، بل كان يتقن فنّ جعل أفراد أسرته يشعرون بالבוّس والمذلة والمهانة. كان الضرب المبرح لها ولأمها أمراً مباحاً في عينيّه، وكأن ذلك حقّ له لا جدال فيه.

إن ثرثرة النساء تجلب له صداغاً شديداً، خاصة بعد الليالي الساخنة التي يقضيها في أحضان بعض فتيات الليل، وهو يشرب من زجاجات الخمر. تتحول رأسه إلى صخرة ثقيلة فوق كتفيه، لكن هذه الصخرة تصبح جبلاً هائلاً كلما بدأت ابنته وزوجته في العرثرة أو التشاجر معه. لا يشعر بنفسه إلا ويده قد فعلت مفعول السحر، فيعم الصمت والهدوء المكان بعد أول لكمة هنا وأخرى هناك.

عادت الفتاة إلى واقعها بعد رحلة شرود مؤلمة في القصر الذي نشأت فيه. زفرت بعمق وهي تسترجع آخر مشادة لها مع والدها القاسي والظالم في نظرها، والذي كان سبباً في رحيلها بلا رجعة. توجهت مع إحدى الخادِمات نحو باب القلعة الكبير، بينما كانت عيونها تتنقل بين الحراس الذين وقّفوا في كل زاوية، حريصين على حماية آل ليرون.

في غرفة دافئة تنبعث منها رائحة التبغ، جلس السيد ليرون في مكتبه وهو يقرأ شيئاً ما باهتمام، ولكنه نهض فور دخول الفتاة، ثم مدّ يده إليها ليصافحها قائلاً بابتسامة واسعة:

- ابنتي مارية، ما أجملك! لماذا تأخرت هكذا؟ الوقت متأخر للغاية.

- الضباب الكثيف والطقس السيء جعلوا الرحلة تستغرق وقتاً

أطول من المعتاد.

قالت جملتها وهي تصافحه، ولكنها ارتجفت من البرد على الرغم من اشتعال المدفأة بالنيران، وعندما لاحظ السيد ليرون نادى على إحدى الخادومات آمراً إياها بالمجيء في الحال. قال لها بصرامة:

- هل غرفة السيدة مارية جاهزة؟

أومأت الفتاة وهي تنظر إلى الأرض أسفلها احتراماً ورهبةً منه، ثم وجه كلامه إلى مارية قائلاً بنبرة حانية مغايرة لتلك التي تحدث بها مع الخادمة:

- الطقس سيء جداً هذه الليلة، ولكنني أودك ألا تحملي همًا؛ فالقلعة كما ترين دافئة على الدوام.

أشار إلى المدفئة على يساره، ثم أردف:

- أعلم أن الرحلة كانت متعبة، ولكنني فقط أرغب في توقيئك، ومن ثمّ بإمكانك الذهاب إلى غرفتك لتستريح.

كان السيد ليرون أغنى أغنياء مدينة سالتايورا؛ فهو مؤسس مصانع النسيج في المدينة، وهو من يلجأ إليه الكينمارو لحل النزاعات بينهم. حظي بمكانة عظيمة بين ذوي السلطة منهم. في العقد الخامس من عمره، يغزو الشيب رأسه، مما زاده وقارًا، وهو مدخن شره لا يترك السيجارة أبدًا وكأنها هي ما يتنفسه، لا الهواء!

انتهت مارية من قراءة عقد العمل، ثم وقّعت باسمها وقالت وهي تسلّم الورقة:

- أؤكد لك أنك لن تندم يا سيد ليرون.

قهقه السيد ليرون، ثم قال وهو يسعل:

- ومن قال إنني سأندم؟ لقد سمعتُ العديد من التوصيات، وإن لم أثق في ابنة الحاكم نفسها، فبمن أثق يا ثرى؟

لم تحب مارية أن يعاملها الناس بلطف لأنها ابنة حاكم مدينة سالتيور، بل كرهت هذا الأمر كثيرًا. لم يكن من المعتاد أو المقبول أن تعمل بنات الحكام أو ذوي السلطة في المدينة عمومًا، ولكن مارية لم تكن تحب أن تشبه أحدًا، فكانت مختلفة في كل شيء.

أصرت مارية على الذهاب إلى قلعة العلوم؛ حتى تتعلم اللغات، والموسيقى، والرسم، والفلك، وغيرهم من العلوم الأخرى، بل إن ما أثار دهشة والدها وغيظه هو رغبتها في العمل مثلها كممثل فتيات سالتيور من السكان الأصليين.

في بادئ الأمر، انهالت عليها عبارات السخرية والاستنكار من حولها ولكنها لم تكثر البتة؛ فهي مؤمنة أن بنات الحكام لم يخلقن لزواج المصالح فقط، بل هناك رسالة ودور يجب عليهن أن يلعبنه.

عملت مارية بمهنة التعليم المنزلي، حيث تذهب إلى منازل الطلاب الذين يعانون من حالات خاصة تمنعهم من الذهاب إلى قلعة العلوم، فتقيم معهم سنتين أو أكثر لتعلمهم الفنون والعلوم المختلفة. تلقت دعوة من السيد ليرون الأسبوع الماضي للمجيء إلى قلعة تيلارين؛ للتوقيع على عقد العمل لتصبح معلمة الأطفال الجديدة في الميتم.

ولأنها كانت مختلفة، لم تتصرف مارية كأنها من ذوات السلطة.

بل على العكس تمامًا، كانت تستقل القطارات البخارية، وتجول في أحياء المدينة الفقيرة دون حراسة وبلا خوف. لقد كانت نقيضًا في كل شيء، فهناك فجوة بين صفاتها وسمات شخصيتها العنيدة وبين سائر أبناء الطبقة الحاكمة.

سارت مارية بين جدران القلعة الكثيبة وهي تنظر إلى الغرف المغلقة، وبجانبها الخادمة التي توقفت عند إحدى الغرف، ثم فتحتها وقالت بنبرة متعالية، مخالفة لتلك التي سمعتها مارية عندما كانت في مكتب السيد ليرون:

- هذه غرفتك، غدًا صباحًا سوف آتي إليك لآخذك إلى السيدة ديلارا، مديرة الميتم.

أطالت مارية النظر في وجه الخادمة وهي تفكر في طريقته الغريبة؛ فتعجبت لاختفاء نبرة الخوف والاحترام التي تلاشت تمامًا بمجرد ابتعادها عن السيد ليرون. لقد اعتادت مارية على معاملة الازدراء من النساء الأخريات من السكان الأصليين؛ فكراهية معظم سكان مدينة سالتبيورا لوالدها جعلتها كبش الفداء الذي يُحاسب على جرائم لم يرتكبها بنفسه، لكن هذه الخادمة كانت تخيفها؛ فنظراتها لم تكن طبيعية أبدًا.

دخلت مارية غرفتها واستبدلت ملابسها المبتلة بأخرى نظيفة ودافئة، ثم جلست على فراشها تفكر في يومها الأول في الميتم. أثار البرق سماء المدينة ثم دوى الرعد فيها ليزلزل القلوب في الصدور، فكلما سمعت مارية أصوات الرعد المفزعة، كانت تنتفض في مكانها خوفًا وهلعًا.

ما زال شعور الخوف يتغلغل بين ثنايا روحها المضطربة، وكأنه يتراقص على أنغام الطقس المرعب. تلحفت مارية بالحاف لتحتمي من سهام البرد القارس، وهي تراقب السماء التي راحت تبرق وترعد وكأنها نهاية العالم. انتفضت فجأة كمن لدغه عقرب عندما سمعت صوتًا غريبًا، وكأن هناك شيئًا تحطم أو وقع من مكان مرتفع خارج غرفتها، ليحدث ضوضاء كاد قلبها أن ينخلع على إثرها.

نهضت من فراشها وتقدمت بحذر من باب غرفتها لكي تسترق السمع إلى ما يحدث بالخارج لعلها تتمكن من تحديد مصدر الصوت، ثم أمسكت بمقبض الباب لتفتحه ببطء. كادت أن تطلق صرخة مدوية عندما شاهدت قطعة سوداء تقف بجانب إحدى التماثيل أمام الغرفة تنظر إليها بعينين تلمعان في الظلام يقدح الشرر منهما. وضعت مارية يدها على ثغرها لتمنع الصرخة التي كادت أن تفلت منها. خرجت من غرفتها وهي تنظر يمينًا ويسارًا لتتفقد الغرف الأخرى، لعل أحدًا من سكان القلعة قد استيقظ مثلها، فهي لا ترغب في الجلوس وحدها في هذا الطقس البارد والمخيف.

على الرغم من شعورها بالخوف وعدم الارتياح فإنها آثرت العودة إلى غرفتها، وإجبار نفسها على النوم بدلًا من الطرق على إحدى الغرف بعد منتصف الليل فتبدو لهم كشخص غريب الأطوار.

عندما استدارت مارية، تفاجأت بقائد الحرس يقف أمامها يتطلع إلى وجهها بعبوس جعله يبدو مخيفًا لكل من يراه، كانت المسافة بينهما قليلة للغاية، ولكنها تقلصت أكثر حين اقترب منها بخطوات ثقيلة، وعيناه تشتعلان بنيران الكره المتأججة وهو يستحضر صورة

والدها في ذهنه.

قال وهو يقترب منها:

- لست جميلة كما سمعتُ.

تفاجأت مارية مما قال، ولكنها أجابته بابتسامة متكلفة:

- نعم، صحيح ما تقول؛ لذا تراجع قليلًا إلى الخلف، حتى لا يظن أحد أنك معجب بما تراه عن قرب.

تراجع إلى الخلف، وهو يرمقها بنظرات عبوس لم تفارق وجهه، ثم قال:

- أعتذر منك يا آنسة، لا أحد هنا يحب والدك.

تجاهلت كلامه فسأله بتجهم:

- لماذا تقف هنا؟ أليس من المفترض أن تكون بالأسفل لحراسة القلعة؟

لم يتعزّف راكان عليها في البداية؛ إذ إن صور بنات الحاكم لا تُنشر في الجرائد ولا يراهن أحد. ومع ذلك، لم تكن مارية تشبه أيًا منهن. ورغم معرفتها بالعديد من عائلات الكينمارو، إلا أن راكان لم يكن قد رأى شكلها من قبل حتى هذه الليلة.

أجابها والعبوس واضح على ملامحه:

- سمعتُ أصواتًا غريبة بينما كنتُ أتجول في القلعة خلال المناوبة الليلية؛ فأتيتُ إلى هنا مسرعًا لأتفقد الوضع.

- حسناً، إنها قطة شاردة فقط. سأعود إلى غرفتي؛ لأن هذه الليلة باتت لا تُحتمل على الإطلاق.

قالتها وتركته لتتوجه إلى غرفتها وهي تشعر بالحنق مما قاله قبل قليل، ولكن أكثر ما أزعجها هي طريقته الجافة معها؛ فهي لا تعرفه ليعاملها بهذه الفظاظة، وليس لأنه يكره والدها فيحق له أن يعاملها هكذا، فإن علم الناس في المدينة مدى كرهها لوالدها لشعروا بالشفقة نحوها، هكذا فكّرت.

لم تكن تعلم مارية أن عيني السيد راكان لم تفارقا جسدها الذي راح يتمايل على أنغام الرعد في القلعة المظلمة، ولم تعلم أيضًا أن تلك النظرات لم تكن تبشر بالخير على الإطلاق.

لم تتوقف السماء عن الاشتعال بنيرانها البيضاء؛ فراح البرق يضرب المدينة وكأنه سوّط يجلدها على ما اقترفته من فاحشة في الآونة الأخيرة. أجبرت أصوات الرعد المفزعة العديد من سكان المدينة على التضرع إلى الإله؛ ليبت الاطمئنان في قلوبهم، ولينجيهم من هذا الطقس المريب.

عندما أبحر القارب في النهر، وحينما رسا على الضفة المقابلة لحى المصانع ترجل آدم، وهو نجل السيد ليرون، ووقف على الأرض الطينية وهو يشاهد مجموعة من رجال الشرطة يحملون المصابيح ويقفون جميعًا حول جسد رجل تبدو نظرات الهلع والفزع على وجهه.

تفحص آدم بعينه جثة الرجل الممددة على ضفة النهر، بلا حياة. بدت ملامحها وكأنها شهدت أهوالاً لا يحتملها أحد. ارتعد آدم مما رآه، وتأجج شعور الغثيان في أعماقه. اعتادت الشرطة الاستعانة بالسيد ليرون ونجله؛ فهما أصحاب المدينة، وإن لم يحكماها فعلياً. لم تكن هناك صغيرة أو كبيرة تحدث دون أن يعلما بها.

اقترب آدم من صديقه، مفتش الشرطة، ثم سأله:

- ما الذي حدث بالضبط؟

بدا مفتش الشرطة متوترًا، رغم محاولته المستميتة لإخفاء ذلك، لكن صوته كان يكشف عن قلقه ولا يوحى بأنه بخير. قال بصوت مضطرب:

- عدت إلى المنزل في حوالي الرابعة صباحًا، وما إن جلست على الفراش استعدادًا للنوم حتى باغتني اتصال من أحد الضباط يطلب مني الحضور فورًا. وعندما وصلت، استلمت هذا منه؛ فأدركت أنه لا بد لي من الاتصال بك لكي تأتي.

نظر آدم إلى الرسالة التي يحملها صديقه، ثم أمسك بها وتفحصها للحظات وهو يقرأها بصوت منخفض:

"عزيزي السيد سالار، لقد عمرنا على ما أخفيتموه، وما حاولتم أعوامًا أن تطمسوه في طي النسيان. ولسوف يعلم الكون بأسره بما اكتشفناه قريبًا. فهل أنتم مستعدون للمحاكمة؟"

صمت قليلاً قبل أن يقول بعبوس:

- وأين تم العثور على هذه الرسالة؟

- على المكتب بداخل الكوخ.

سأل آدم صديقه وهو يراقب الكوخ المنير بالمصابيح:

- من أول من اكتشف جثة القاضي؟ ومتى؟ أرغب في معرفة أدق التفاصيل.

أجابه مفتش الشرطة وهو يشير إلى الكوخ:

- ذلك الكوخ كما ترى هو الملجأ الوحيد الذي يلوذ إليه السيد سالار عندما تضيق به الشبل، أو هكذا أخبرنا ابنه، فهو يأتي إلى هنا لقضاء عطلة الأسبوعية غالباً، ولقد بدأ الأمر عندما اتصلت ابنته به وهي تصرخ بسبب مرضها كما تعلم، فجاءت والدتها لتراها، ولكن الفتاة البائسة ظلت تصرخ وتطلب من والدها النجدة حتى قتلت أمها. هذا كل ما أخبرنا به نجل السيد سالار.

رفع آدم حاجبيه اندهاشاً فانكمش جبينه من الصدمة، قاطع صديقه متسائلاً:

- مهلاً، هل تقول أن الفتاة المصابة بذلك المرض المنتشر تحدث مع والدها في الهاتف وهي تطلب منه المساعدة، ولكنها قتلت والدتها أثناء المكالمات الهاتفية؟

أوماً مفتش الشرطة بالإيجاب، ثم أكمل تفاصيل الحكاية قائلاً:

- ماتت المرأة المسكينة، فأسرع الابن الأكبر للسيد سالار بتقييد شقيقته وغادر على الفور، ثم جاء إلى هذا الكوخ ليخبر والده بما سيفعلان مع شقيقته، وهل سيتم تسليمها للشرطة أو إلى دار

الشفاء؟ ولكنه عمر عليه على شاطئ النهر كما ترى، فاتصل الرجل بالشرطة دون تفكير.

تفحص آدم الجثة بعينه المتعبتين مرة أخرى وهو يمسك بالمصباح، فلاحظ زرقة في الشفتين والأظافر واحتقانًا شديدًا في الوجه. سأل صديقه المفتش عن سبب الوفاة، فأخبره أنها جريمة قتل مؤكدة وليست انتحارًا أو حالة غرق كما يبدو للوهلة الأولى. سأله آدم:

- أين الطبيب الشرعي؟ وهل أضاف ابن السيد سالار شيئًا آخر؟
- اتصلنا بالطبيب الشرعي فأخبرنا أنه قادم، أما ابن رئيس القضاة فحالته غريبة؛ فبعدما أفضى بكل ما بداخله من تفاصيل صمت ولم ينطق منذ ذلك الحين، فقررث أن أتركه حتى يهدأ قليلًا ومن ثم أحقق معه مرة أخرى، فالرجل عانى الكثير في ليلة واحدة. ساد الصمت قليلًا، ولكن آدم سأل بعد لحظات:
- هل أنت متأكد أنها جريمة قتل؟

تبادل مفتش الشرطة النظرات مع صديقه دون أن ينطق بكلمة، فعلى الرغم من إيمانه بأن هذه لا يمكن أن تكون حالة انتحار أو غرق، فإنه لم يرغب في استباق الأحداث؛ فالكلمة النهائية للطبيب الشرعي على كل حال. قال آدم:

- لا تسمح للصحافة بنشر أي شيء يتعلق بهذا الأمر؛ فقد عانت

المدينة من الكثير مؤخرًا وما زالت تعاني لسوء الحظ.

أوماً مفتش الشرطة، ثم سأل آدم:

- ماذا عن هذه الرسالة؟ ما الذي تعنيه بالضبط؟ وهل هي محاكمة فعلاً؟

نفث آدم الهواء من فمه وهو يزفر بوهن، ثم أجاب صديقه:

- ربما، ولكن هذه أسرع محاكمة رأيتها في حياتي لأكون صادقًا.
سأله مفتش الشرطة:

- لماذا يُقتل السيد سالار برأيك؟ وهل تظن أن الأمر انتهى عند هذا الحد؟ أم أننا سنكتشف المزيد من الجثث في الأيام القادمة؟
أجابه آدم على الفور:

- ليس مستبعدًا أن تحدث جريمة قتل أخرى. أما عن سبب مقتله فهو سؤال ساذج للغاية. كان الرجل رئيس القضاة يا صديقي، فلا بد أنه محاط بالأعداء من كل حذب وصوب، أليس كذلك؟

تنهّد مفتش الشرطة ثم قال والسحب الضبابية تتكون أمامه في الهواء:

- هذه المدينة ملعونة يا سيد آدم.

ضحكت ميرال طوال الليل وتراقصت على أنغام الموسيقى المحببة إليها وهي برفقة والدتها الجميلة. سارت بسهولة على الرمال

البيضاء تارةً، وتعمرت تارةً أخرى، ولكن يد والدتها كانت تمسك بها في كل مرة قبل وقوعها؛ ففتعالى ضحكاتهما الرنانة لتندمج مع سيمفونية البحر الذي ثارت أمواجه فجأة فكشرت عن أنيابها وهي تقترب منهما.

تنظر والدة ميرال إليها وعيناها تفيضان بالدمع، لكنها تبتسم بحنان قبل أن تبتلعها الأمواج المتوحشة؛ فتصرخ ميرال صرخة حزن وقهر لكنها تستيقظ قبل أن ينال منها البحر. تعتدل في جلستها وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة. تفتح مارية الباب عند سماعها للصراخ حيث كانت غرفتها بجانب غرفة الطفلة، فتدخل ثم تجلس بجوارها لتربت على كتفها وتضمها إلى صدرها وهي تقول:

- أنت بخير.. أنت بخير.

احتضنتها ميرال بشدة؛ فهي تفتقد الحزن الدافئ لوالدتها الراحلة التي عانت لسنوات طويلة مع المرض الخبيث. شاهدتها ميرال وهي تتألم وتتعبذ في أحضان الموت بلا رحمة ولا شفقة. كانت تبكي والشوق يأكلها ويحرق قلبها الواهن؛ فهي تفتقد رائحة شعرها قبل أن يتساقط، ولكم تشتاق إلى ضحكتها وصوتها العذب!

كانت هذه هي المرة الأولى التي لم تتمكن فيها ميرال من كبج جماح دموعها؛ فمنذ وفاة أمها وهي تتماسك ولا تفصح عما بداخلها أبدًا، وهي طبيعة مغايرة لطبيعة سائر الأطفال ولكنها طفلة غريبة مختلفة عن قرنائها، وها هي تنهار الآن في حضن مارية لسبب تجهله.

لم تتمكن مارية من النوم في تلك الليلة؛ فالأصوات المخيفة

للأمطار والرعد كانت بمثابة عائق يحول بينها وبين النوم العميق. ظلت بجانب ميرال على فراشها وهي تمسح على شعرها بيدها الدافئة، ثم قالت:

- آه يا حلوتي، ما الذي رأيته وأخافك هكذا؟

هدأت ميرال قليلاً ولكنها رفضت أن تفيض بما يدور من صراعات بداخلها؛ فعرضت عليها مارية أن تقضي الليلة معها في فراشها ولكنها رفضت. ابتسمت لها مارية وقالت:

- حسناً، أنا في الغرفة المجاورة، وإن احتجتِ إلى أي شيء سأكون بجانبك بسرعة، كالبرق الذي يبرق الآن بالخارج.

أشارت إلى النافذة حيث البرق يضرب السماء بنيرانه المستعرة، فنظرت ميرال إلى مارية نظرة أخيرة قبل أن تستلقي على فراشها دون أن تنطق بكلمة؛ استعداداً للنوم مرة أخرى. تنهدت مارية ونهضت من الفراش متوجهة إلى غرفتها ولكن ميرال سألتها بصوت واهن قبل أن تخرج:

- هل أنتِ من الملائكة مثلهم؟

توقفت مارية واستدارت، تنظر إلى ميرال بتعجب، ثم قطبت جبينها تعبيراً عن عدم فهمها للسؤال وتفاجؤها به. سألتها وهي تبتسم:

- ماذا تقصدين بالملائكة يا عزيزتي؟

انكمشت ميرال على نفسها وتحولت نظراتها المذعورة إلى نظرات أكثر فزعاً، ثم رفعت الغطاء إلى مقدمة رأسها وكأنها تتهرب من

الإجابة على السؤال. راقبتها مارية وهي تفكر فيما يحدث في هذه القلعة العجيبة وتصرفات سكانها؛ فخالجها شعور مقبض لم تحبه أبدًا، ولكنها استدارت وتركت الغرفة على أية حال.

أغلقت مارية باب الغرفة وهي تفكر في سؤالها الغريب وعن ذعرها عندما سألتها عن الملائكة، فمن الغريب أنها تخشاهم. إن سائر الأطفال يعلمون أن الملائكة يتواجدون في السماء بجوار بارئهم ولا وجود لهم في الأرض الفاسدة، وإن كانوا في الأرض، فلم كل هذا الخوف والذعر منهم؟

لم تجد مارية إجابة واضحة على هذه الأسئلة، فتوجهت إلى غرفتها لتحاول النوم؛ لأنها لم تعد تحتل التعب الذي تشعر به الآن، ولكنها تجمدت مكانها عندما خُيِّل إليها أنها لمحت رداءً أحمر اللون قاتمًا يختفي فجأة وصاحبه ينزل الدّرج في نهاية الرواق!

إنها تعلم أن القلعة تعج بالخدم والحراس، ولكن الرداء مميز للغاية. لا أحد يسكن القلعة سوى السيد ليرون وابنه آدم وحفيده ميرال، فلا وجود للنساء هنا ليرتدوا مثل هذا اللون، ولا يمكن أن يرتدي أحد العاملين رداءً مثله؛ فالذي الموحد لجميع الخدم يتكون من الأبيض والأسود، بينما يرتدي الحراس الأسود فقط، كما أنهم يحيطون بالقلعة من جميع الجهات يحرسونها من أي تهديد أو دخيل.

لم يتوقف المطر عن الهطول، بل زادت قوته بشكل مفاجئ، مما أثار استغراب مارية؛ فطقس كهذا لم تشهده سالتيورا من قبل. في لحظة غير متوقعة، انطفأت المصابيح، فغمر الظلام المكان، ليبدد النور والأمل. ارتجفت مارية من البرد والخوف معًا، عيناها تراقبان

النافذة التي أضاءها برق السماء، تليه صرخة الرعد المدوية التي ملأت الأرجاء.

الظروف المحيطة بها مرعبة ولكن الوجه الذي رأت انعكاسه في النافذة هو ما جعلها تفتح عينيها عن آخرهما من الدهشة والفرع. كان الوجه في النافذة مربعًا للغاية لم يأت من هذا العالم بالتأكيد، ولكن سرعان ما أدركت أنه قناع وليس وجهًا حقيقيًا. كان القناع يخفي وجه الشخص الذي يرتدي الرداء الأحمر المميز الذي رآته يختفي في الظلام منذ قليل.

كان القناع أبيض مخيفًا رائحة من يرتديه تشبه رائحة الموت، وكانت الدموع السوداء تتساقط من عينيه بينما اتسعت ابتسامته لتكشف عن أسنانه السوداء المربعة فأضافت قبحًا على قبحه. حاولت أن تصرخ ولكن دون جدوى؛ فصوتها يأبى الخروج من الهلع والخوف.

لم يتحرك الشخص الواقف خلفها بل ظل ينظر إليها من خلال النافذة كلما أضاء البرق المكان. إنها تعلم أنه يقف خلفها ولم يتزحزح من مكانه إذ راحت يده تلمس ذراعها وتتحسسها؛ فارتعدت أوصالها وارتجفت. حاولت أن تفتح فمها لتصرخ ولكن صوتها يأبى أن يطيعها وكأن هناك من قطع لسانها فلم تتمكن من تحريكه على الإطلاق! تنفست بسرعة وبقوة جعلت نبضات قلبها المضطربة تتعالى فأصبحت دقائقها مسموعة لتثير فزعها أكثر من ذي قبل.

لم تعد تشعر مارية بجسدها؛ فالخوف يخدر أطرافها ويجعلها عاجزة عن الحركة. لم تعد تستطيع أن تتنفس من هول المشهد؛

فازدادت حاجتها للهواء مما جعلها تتنفس بقوة أكبر من ذي قبل، شعرت بسببها بدوار كاد أن يفقدها توازنها.

برقت السماء فظهر انعكاس القناع المخيف ثانية في زجاج النافذة ثم أظلمت مرة أخرى، فانتظرت مارية بلا حركة والدموع تتساقط من مقلتيها فهي لا ترغب في رؤية القناع المخيف مجددًا، فحاولت أن تفتح فمها لتصرخ ولكن صوتها أبى أن يطيعها.

عاد الضوء فجأة إلى المصابيح في الممر، فأصاب عينيها بألم شديد، فاضطرت لإغماضهما لحظة لتتحاشى الوميض. ومع مرور لحظات قليلة، فتحت عينيها مجددًا، ليختفي الشخص المرعب، ويذوب في الفراغ كما يذوب الغبار في الهواء.

حاولت أن تتنفس أبطأ من ذي قبل لتهدئ من روعها ولتمنح قلبها الفرصة للعمل بصورة طبيعية، ولكنها شعرت بالفزع عندما قال شخص ما جاء صوته من خلفها:

- هل أنت بخير؟

انتفضت في مكانها وأطلقت صرخة متأخرة تسمر على إثرها الرجل الذي كان يحدثها. لم تتعرف على ملامحه في البداية، لكن عندما التقطت أنفاسها، تذكرته. وضعت يدها المرتجفة على قلبها وقالت بصوت مضطرب:

- لماذا أراك كـهـيـأ؟

تطلع إلى وجهها مراقبًا تعبيراته المذعورة فقطب جبينه متعجبًا، قبل أن يجيبها بعبوسه المعتاد:

- لقد أخبرتك من قبل أن هذه مناوبتي الليلية.

- هل كنت تعرف أنني ابنة الحاكم عندما رأيته في الثُّل؟

- أنا لم أرك في الثُّل يا آنسة، لقد كنت مشغولاً بقراءة الجريدة!

عبس وجه مارية وهي تفكر في السبب الذي جعله ينكر رؤيتها في الثُّل منذ بضعة ساعات، وهو الشخص الذي لم تفارق عيناه وجهها. سألته على الرغم من ضيقها:

- ومن أنت بالضبط؟

أجابها وهو ينظر في عينيها بجرأة أصابتها بالغیظ:

- أنا قائد الحرس في القلعة يا آنسة، وأدعى راكان. صعدت إلى هنا على الفور عندما رأيته في النافذة ووجهك تبدو عليه ملامح الذعر؛ فكان من الواجب أن أتفقد الحال بنفسي.

لم تشعر مارية أبداً أنها أفضل من الخدم والحراس كما يعتقد الكثير من الكينمارو، ولكنها لسبب تجهله شعرت بقلّة الاحترام عندما نظر إليها الحارس نظرات ثاقبة وكأنه لا ينظر إلى عينيها بل إلى روحها؛ مما أثار استغرابها وحنقها في الوقت نفسه. قالت وهي تهم بالرحيل:

- على كل حال، أشكرك لأنك تفقدت حالي. ولأجيب على سؤالك: نعم، أنا بخير.

نظر إلى عينيها تلك النظرة العجيبة التي جعلت قلبها يرتجف، ثم قال وهو يبتسم بمكر:

- أعلم أن هذه القلعة كبيرة وقد تبدو مخيفة بعض الشيء، خاصةً لشخص رقيق مثلك يا آنسة، ولكنني أؤكد لك أنني وسائر الحراس بالخارج نسهر على راحتكم وأمانكم.

لم تفهم مارية ما يحدث لقلبها وهي تنظر إلى عينيهِ البندقيتين، لكنه كان شعورًا غريبًا أثار في قلبها الحيرة والدهشة. لم يشبه راكان الكثيرين؛ فطباعه كانت عجيبة، ورغم ذلك شعرت نحوه بانجذاب يعير حنقها. كانت تكره مشاعرها المتضاربة نحوه، فعلى الرغم من فظاظته، كان هناك شيء غريب يتأجج في قلبها نحوه، لكنها لم تفهمه بعد.

يتميز الكينمارو بعيونهم الرمادية أو الزرقاء، وبشرتهم البيضاء، وشعرهم الكستنائي بلون البندق. هذه الصفات تميزهم عن السكان الأصليين الذين اتخذوا من الضواحي موطنًا لهم، حيث يتسمون بشعر وعينين كالليل المظلم، وبشرة حنطية تلمع تحت شمس الظهيرة.

لكن ملامح راكان بدت غريبة للغاية؛ فهي مزيج من ملامح السكان الأصليين والكينمارو معًا. كانت والدته من السكان الأصليين، أما والده فكان رجلًا ثريًا من عائلات الكينمارو ذات النفوذ والعروة. غير أنه، مثل مارية، لم يرغب في العيش تحت ظلال العائلة القوية ذات السلطة والنفوذ.

على الرغم من أن قانون سالتيوراً يُحرّم على الكينمارو الزواج من السكان الأصليين، فإن ذلك لم يمنعهم من تحدي القوانين. ونتيجة لذلك، تم تعديل القانون لاحقًا لينص على عدم اعتبار الأطفال

المولودين من زيجة مختلطة من الكينمارو، بل يتم تصنيفهم ضمن السكان الأصليين، مما يؤدي إلى حرمانهم من الكثير من الامتيازات التي يتمتع بها الكينمارو. ومع ذلك، لم يكن هذا الأمر يعني شيئًا لراكان.

لكن ليست الملامح فقط هي ما تميز الكينمارو عن السكان الأصليين، بل أيضًا رمز الشمس الذي يرسم على جبينهم، وهو العلامة الأهم التي تميزهم، بحيث يعرف كل من ينظر إليهم أنهم من الكينمارو، وليسوا من السكان الأصليين.

تفاجأت مارية أنها استغرقت الكثير من الوقت في النظر إلى ملامح راكان، فأجفلت وهي تقول بضيق:

- سيد راكان، لقد نسيث أن أخبرك أن هناك شخصًا ما كان يتجول في الرواق وهو يرتدي رداءً أحمر قاتم.

قال وقد ارتسمت علامات الدهشة على مَحْيَاه:

- ولكنني يا آنسة، لا أظن أن هناك من دخل القلعة أو خرج منها وهو يرتدي رداءً بهذه المواصفات التي ذكرتها.

لم تعلق على كلامه بل تركته وذهبت إلى الدرج، بينما ظل راكان يراقبها باستغراب واندهاش؛ فهو يخشى أن تكون المسكينة مصابة بذلك المرض المنتشر في المدينة مؤخرًا، فرؤيتها لأشياء لا يراها سواها هو أمر لا يجب أن يتغاضى عنه، ولكنه قرر ألا يتحدث في هذا الأمر مع السيد ليرون إلا عندما يتأكد من إصابتها بالمرض.

وقف السيد إيمار - وهو رئيس جهاز الشرطة - على شاطئ البحر وحده، يراقب أمواجه العاترة التي راحت تضرب الرمال في مشهد مقبض ومخيف لمن يراه، ولكنه لم يشعر بالخوف منها بل من شيء آخر؛ لقد أخبره مفتش الشرطة بتلك الرسالة التي عثروا عليها في كوخ رئيس القضاة، وهو الأمر الذي جعله يفكر كثيرًا في هوية القاتل. وبينما كان غارقًا في التفكير، سمع صوتًا غريبًا يناديه قادمًا من البحر، فتجعدت الخطوط على جبينه من الدهشة وهو يصغي إلى اسمه وهو يتردد صداه في الأفق.

لم يكن السيد إيمار ممن يخافون بسهولة، ولكن الصوت القادم من البحر لجعل الأبطال يفرون هلعًا من هول ما يسمعون؛ فالصوت لم يمت لعالم البشر بصلة، إنما هو صوت غليظ مخيف وكأنه صوت وحش ينادي عليه ويأمره بالقدوم إليه. تعالت نبضات قلبه في أذنه فأصبح الطنين غير محتمل؛ لذا تراجع بضعة خطوات إلى الخلف وهو يراقب البحر بعينين حذرتين.

لطالما تظاهر السيد إيمار برباطة الجأش والشجاعة والقوة، فلم يهز ثقته بنفسه أي شيء، لكنه الآن يقف مكتوف الأيدي كالعبد الذليل أمام البحر، يخشى صوتًا ما، أو ربما شخصًا يناديه، وهو غير واثق ما إذا كان ما يسمعه حقيقيًا أم مجرد وهم.

قذفت الأمواج بزجاجة صغيرة على رمال الشاطئ، وكانت بداخلها ورقة على ما يبدو. عندما رآها السيد إيمار، تقدم منها بحذر، يراقبها بترقب وكأنها شيطان سينقض عليه في أي لحظة. بيد مرتعشة، أمسك بالزجاجة وتأملها بدهشة، ثم نظر إلى البحر قبل أن يعود إلى

العربة حيث كان حارسه وسائق العربة ينتظرانه. صعد إلى العربة ثم أعطى الزجاجة إلى حارسه وأمره أن يخرج الورقة ليقرأها له، ففعل الأخير ما أمر به.

لم يتوقع السيد إيمار أن يقول له الحارس أن الرسالة فارغة، وأنها ورقة خاوية بيضاء ليس فيها نقطة حبر واحدة، فقال بعصبية:

- أهذه مزحة ما؟

سأله الحارس مطأطئ الرأس:

- لماذا أنت غاضب يا سيدي؟

تمالك الحارس نفسه بصعوبة وهو يسمع السباب الذي يخرج من فم سيده ليهين كرامته تارةً، ويضرب بشجاعته عرض الحائط تارةً أخرى. أخذ السيد إيمار الرسالة من حارسه، ثم وضعها في جيبه. سارت العربة في دروب المدينة الضبابية، فهدأ السيد إيمار قليلاً، ولكنه عزم على طرد حارسه واستبداله في الصباح.

صعد إلى غرفته دون أن يتحدث مع أحد من أهل بيته، ولكن امرأته سألت عن سبب نظرة التجهم التي اعتلت وجهه، ولكنه لم يرد عليها بل آثر الصعود إلى غرفته متجاهلاً سؤالها.

وقف في شرفته وهو ينظر إلى الأفق بوجه مكفهر بينما يمسك بالرسالة في يده. لا يدري السبب الذي جعله ينظر إلى الرسالة ليتفحصها مرةً أخرى، ولكنه عندما نظر إليها تأججت بداخله رغبة ألحت عليه لفتحها ورؤية ما بداخلها، ولكنه عندما فعل تصاعدت الدماء إلى رأسه من فرط الغضب والخوف معاً، فما كُتب عليها كان

غريبًا مثيرًا للدهشة والاستغراب بل والقلق كذلك.

"لم ينبغ لحارسك أن يفتح الرسالة بل أنت من كان عليه أن يفعل ذلك.. لا بأس يا سيد إيمان، لنتظر المرة القادمة، ولا تنس أن النهاية اقتربت للغاية. فهل أنتم مستعدون للمحاكمة؟"

مرح

من قال أن الحياة عادلة؟ إنها أبعد ما تكون عن ذلك؛ فأنا لم أرها هكذا من قبل، ربما لأن قسوتها تخطت طاقة احتمالي، أو ربما لأنني من المنكوبين الكثيرين ممن كُتب عليهم أشياء كثيرة لا يطيقونها، لا أدري، ولكنني أوقن أنها غير عادلة، فعندما أتجول في أزقة سالتيورا الضبابية أرى الظلم يتجول في المدينة الكثيبة، بل ويتبختر متفاخرًا بنفسه وهو يسطو على أهلها.

من قال أن الكينمارو يعيشون بسعادة؟ ومن قال أن سكان حي المصانع يعانون؟ الحياة قاسية على الجميع ولكنها أقل قسوة على البعض، وأكثر وحشية وشراسة على البعض الآخر. ولسوء الحظ لقد كنت من التعساء الذين توحشت الحياة عليهم وأذاقتهم من الألم أصنافًا كثيرة، بل وأجبرتهم أن يتجرعوا البؤس وهم يبتسمون؛ فأنا من السكان الأصليين لسالتيورا، أولئك الذين ارتوت الأرض بدمائهم سابقًا قبل أن يغزو الكينمارو مدينتنا؛ لتحويلها إلى ملهى ليلي محاط بأسوارٍ تعزله عن غابة الأحرار.

لا أحد يتذكر كيف أو متى احتل الكينمارو سالتيورا، ولكن بعض الأساطير تقول أنهم هبطوا من السماء؛ ففي يوم بارد أظلمت السماء وندفت بملوجها فوق المدينة ثلاث ليالٍ لا شمس فيها ولا نهار بل ظلام حالك، فتجمعت الغيوم السوداء في مشهد مهيب فساد الخوف والترقب بين العامة، ولكن الخوف أصبح نعرًا عندما انبثق من العدم أشخاص لم يتواجدوا على هذه الأرض من قبل، ولكنهم أشخاص غير عاديين أبدًا. لقد تصدوا للظلام وحاربوه حتى أنارت

الشمس سماء المدينة مرة أخرى؛ فتلاشت الغيوم السوداء وتبدد الظلام أخيرًا.

كان الكينمارو يحملون الأسلحة والعلوم التي حولت سالتيور من مدينة ساحلية تعتمد على الصيد والزراعة بمراعيها الخضراء إلى مدينة عالمية ثارت فيها الصناعة وارتفع شأن الاقتصاد فيها حتى تحولت إلى قبلة الأثرياء من جميع أنحاء العالم.

بالغت الأسطورة في وصفهم بالطبع، ولكنها غفلت عن ذكر جزء هام للغاية؛ لقد أصبحت سالتيور عظمة لا تُقهر بعد ذبح السكان الأصليين وارتواء الأرض بدمائهم البريئة. يُقال إن من يكتب التاريخ هو المنتصر دائمًا، أما الخاسر فتطويه صفحاته ليصبح في غياهب النسيان، حتى وإن كان الحق حليفه، فلا يهم، بل الأهم أمام العالم هو من يحكي الحكاية ويتحدث عنها، لا من قُتل ظلمًا وبُهِتًا بعد أن قُطع لسانه ليصمت إلى الأبد!

وهكذا تعلمنا جميعًا أن لولا الكينمارو لما أصبحت سالتيور عظمة ومتقدمة، أما نحن، أحفاد السكان الأصليين، فنعلم أيضًا أن لولا دماء أجدادنا لما نهضت سالتيور وتجبرت علينا.

وإن كان الكثيرون لا يتذكرون كيف أو متى احتل الكينمارو سالتيور، فهم يتذكرون جيدًا ذلك اليوم الذي اندلعت فيه معركة دامية بين السكان الأصليين وبينهم، انتهت لصالح الكينمارو الذين أجبروهم على الاختيار؛ إما العيش معهم في سالتيور في تلك الأماكن التي يحددها الكينمارو دون التدخل في شؤون الحكم، أو يمكن للسكان الأصليين مغادرة المدينة ببساطة، وهو ما تم بالفعل.

غادر معظم السكان الأصليين وتركوا المدينة إلى الأبد، بينما اختار عددٌ قليلٌ منهم أن يخضعوا للذل والمهانة فاستسلموا ورفعوا الراية البيضاء، وكان أسلافي منهم مع الأسف.

عندما هاجر العديد من السكان الأصليين، هاموا على وجوههم في المدن المجاورة في بداية الأمر، ثم استقروا أخيرًا في الغابة المحيطة بحدود سالتايورا واتخذوا منها موطنًا لهم، وتمت تسميتها بعد ذلك باسم "غابة الأحرار".

نظرتُ في المرأة المكسورة بداخل غرفتي المتواضعة وابتسمت؛ فأنا لا أملك سوى الابتسام. إن من يعيش في مستنقع الهلاك الذي أعيش فيه لا يجد سبيلًا إلى التعايش إلا بالابتسام، وربما هذا هو السبب الذي أوحى لأمي أن تُسميني اسمًا مميزًا؛ فلم يكن اسم "مرح" منتشرًا في المدينة الضبابية، ولكنه كان مميزًا في رأيي.

ترعرعتُ في منزلٍ متواضع يكسوه الغبار والسواد على الدوام؛ فالمصانع التي بُنيت، أو ابتلانا بها الكينمارو -لاكون دقيقة- كانت قريبةً من منازلنا بشكلٍ يثير الحنق؛ فأمرضت الكثير منا بل وقتلت الكثيرين ومنهم على سبيل المثال وليس الحصر والدي الراحل.

نعم، مات والدي بسبب دخان المصانع التي جعلت من مدينتنا ذات قيمة عالية بين المدن المجاورة؛ فالثورة الصناعية هي المستقبل والأمل، أليس كذلك؟ ولأن الكينمارو ذوو قلوب رحيمة كمموا أفواهنا بالمال الذي تم تخصيصه لضحايا العمل في المصانع، فلا يمر ثلاثون يومًا إلا وحقيبة أُمي ممتلئة بالنقود التي بالكاد تغطي

تكاليف حياتنا الضرورية، فلا وجود للرفاهيات في عالمنا. وعلى الرغم من وفاة والدي بدخان المصانع الذي تسبب في تلف رئتيه وتدميرهما -إن صح التعبير- فإنني أسلك دربه بجدارة فمن شابه أباه فما ظلم!

لماذا أسلك الدرب نفسه؟ ربما لأنني لا أبالي بحياتي كثيرًا، وربما لأنني أرغب في الذهاب إلى الآخرة بسرعة أكثر مما كُتب لي، أو ربما لأنني كالكثيرين لا أملك مهنةً سواها؟ في الحقيقة، أنا لا أدري لماذا أعمل في المصانع؟ والحقيقة الواحدة التي أنا متأكدة منها هي أن والدتي إن طالت أن تخنقني بيديها الدافئتين ستفعل بلا شفقة أو رحمة!

أن تنشئ طفلتين في عالم يمتلئ بالفاحشة والقيـل والقال في حيٍّ فقير كحينا المتواضع لـهي مهمة صعبة قد تكون مستحيلة على من هم مثل أمي. إنني أرفع لها القبعة كل يوم؛ بسبب ما تفعله تلك المرأة لي ولشقيقتي الكبرى التي تزوجت وأنجبت طفلةً صغيرةً، ولكن والدها الكريم ترك شقيقتي وتبرأ من طفلته؛ حتى لا ينفق عليها المال على الرغم من أنه كان ثريًا للغاية.

صحيح أنه ليس من الكينمارو، ولكنه ثريٌ يدير إحدى مصانع النسيج الكبيرة، والسبب في تركه لشقيقتي -كما أوضح لنا- أنه أخبرها عن نيته في عدم الإنجاب ولكنها لم تستمع إليه ولم تتخذ كافة الاحتياطات؛ فحملت بالطفلة المسكينة ولهذا السبب تركها لأنها خدعته كما يقول، ولكن كما قلت سابقًا الحياة ليست عادلةً، ومن ينتظرها أن تغير جلدتها لتصبح منصفةً فهو أحق يحتاج إلى أن

يتعالج للأمانة.

اهتزت جدران الغرفة واهتزت المرآة المكسورة معها عندما سمعت صوت القطار البخاري وهو يعلن عن قدومه لركاب محطة حي المصانع، فتأففت بسبب الصوت المزعج الذي يحول بيني وبين النوم العميق ليلاً؛ فهو يمر كل ساعة من أمام منزلنا الذي لا يعرف للهدوء سبيلاً؛ تنطلق صافرات القطار قبل الوصول إلى المحطة بعدة أمتار وتزداد أكثر عند المغادرة.

ألقيت نظرة أخيرة على انعكاسي في المرآة قبل أن أتوجه إلى المكتب؛ لألتقط الرواية التي قضيت شهوياً في كتابتها. نظرت إليها بفخر وأمل تلبسني كالشياطين لم أتمكن من طرده أبداً.

انتظرتني شقيقتي بالأسفل وهي تمسك بيد صغيرتها "لانا" ذات العشرة أعوام، والتي ما إن رأني ارتمت في حضني وكأنها لم ترني منذ سنوات! أمسكت بوجنتيها الممتلئتين وطبعث عليهما رشقات من القبلات جعلت ضحكاتها تدوي في المنزل في مشهد خفر في ذاكرتي إلى الأبد، فكيف أنسى الدفء في حضن تلك الماكرة الصغيرة؟ وكيف أتجاهل السعادة المنبعثة من أعين من حولي، وكيف لي ألا أتأمل نظرات الفخر في أعينهم وهم يرونني على أهبة الاستعداد للذهاب إلى قصر الكلمات في القلعة البيضاء؛ حتى أقدم روايتي الأولى إليهم؟

قالت لانا بصوتها الصغير المحبب إلى نفسي:

- انظروا الآن إلى كاتبتنا المشهورة، إنها الجميلة مرح.

قالتها بطريقة مسرحية أجبرتني على الابتسام؛ فأمسكت بيدها وخرجنا مع شقيقتي ريما إلى خارج المنزل الكئيب من الخارج والمشتعل بنيران الحب الأسري من الداخل. هبت الرياح فسرت قشعريرة في جسدي؛ فنسمات الخريف تهثم بالرحيل بينما تستعد رياح الشتاء للوصول إلى مدينتنا الضبابية.

صعدنا على متن القطار البخاري الذي امتلأ عن آخره بعمال مصانع النسيج المتجهين إلى منازلهم في الأحياء المجاورة، ورائحة العرق والفقر تتصاعد منهم على حد سواء! أمسكت بحزمة الأوراق التي تحمل عصارة أفكار سهرت ليالٍ طويلة لأخطها فيها فوضعت بداخلها كلمات تحمل مشاعري وأفكاري التي اختزنتها بقلبي وعقلي لسنوات، وها هي الآن تأتي اللحظة الحاسمة التي سيتغير فيها كل شيء إلى الأبد.

عندما وصل القطار إلى محطة القلعة البيضاء، انقبض قلبي وثارَت معدتي بسبب التوتر الذي تأجج وارتفع إلى معدلاتٍ غير مسبوقة؛ فشعرت أنني على وشك أن أفقد الوعي، ولهذا السبب أمسكت ريما بيدي فهي تعرفني جيدًا وتعلم كيف أشعر بالحماس والتوتر الشديد في آنٍ واحد. أخذت بيدي وكأنني طفلة صغيرة تخشى الذهاب إلى دار العلوم في يومها الأول.

تفحص السيد إينال روايتي، وهو رجلٌ في الخمسين من عمره صاحب أكبر دارٍ للنشر في العالم، ولكن لم تظهر عليه أي تعبيراتٍ توحى بما يظنه في كلماتي، فهل أعجبتَه أم لا؟ لا أدري.

مظ شفتيه ثم قرأ بصوتٍ منخفض على ما يبدو نهاية الفصل

الأول، ولكنه فاجأني عندما ألقى بحزمة الأوراق في وجهي بعنف وهو يقول بنبرة استعلاء لم يتمكن من إخفائها:

- هل تسمين هذا أدبًا؟ هذا أسوأ ما قرأته في حياتي وحتى أن كلمة سيئة لها مجاملة لك!

لم أنطق، فماذا سوف أقول وأنا أرى سنوات لم تنم عيناى فيها ولم تذق الراحة تمر أمامي وكأنها طيفٌ خلق لينسى؟ في الواقع هو لم يلقِ بالأوراق في وجهي، بل ألقى بسعادتي وحلمي في مهب الريح فتناثر كل شيء. انحنيت ثم جلست على الأرض ألملم شتات أفكارى المبعثرة، ولكنني لم أتمكن من لملمة كرامتي التي بعثرها تكبره وغروره!

قرأ الكثير من الأصدقاء هذه الرواية التي نعتها بالسيئة لتوه وأبدوا انبهارهم بها، فلماذا لا تعجبه؟ أدرك أن الأذواق تختلف ولكن أصدقائي أكدوا لي أنها رائعة، فلماذا لم تعجبه؟ أم أن أصدقائي كذبوا؟

كبحث جماح الدموع التي بدأت في التجمع في مقلتي، وقلث له متوسلة وأنا راكعة أمامه:

- سيد إينال، أتوسل إليك، حلمي كبير ولكنه لن يكون أكبر منك ومن قصر الكلمات....

جذبت ريمًا ذراعي وهي تقول لي بصوت منخفض لأنفض من على الأرض:

- نحن لم نخلق لتذلل إلى أحد يا مرح! وإن كان لا بد من التملق

والتودد إلى أحدهم فلن يكون لهذا المعنوه أبدًا.

انحنت لانا وبدأت في تجميع الأوراق المبعثرة على الأرض، بينما نظرت ربما إلى السيد إينال؛ لتراقب وقع كلماتها عليه وهي تقول بتجهم:

- إن لم يعجبك ما كتبتة مرح فهذا حقك، ولكن أن ترمي بما كتبتة في وجهها بهذه الطريقة المهينة فهذا أبعد ما يكون عن حقك أيها السيد.

راقبتنا الأعين من كل حدب وصوب؛ فمن كان يكتب توقّف عن الكتابة، ومن كان يتحدث صمت وانتبه لما يحدث بين ثلاثتنا، حتى أن لانا شعرت بالخوف فاختبأت خلف ربما تلتمس منها الأمان. تقدّم السيد إينال من شقيقتي، ثم قال وهو يضغط على كل حرف يخرج من فمه:

- اخرجنا الآن ولا تعودا هنا ثانيةً وإلا سأرفع سماعة الهاتف لأتحدث مع الشرطة لكي تقبض عليكما.

أنهى جملته ثم نظر إلى لانا وأضاف بعصبية:

- حتى أنني سأسجن هذه الطفلة الحقيرة.

تمكّن مني الرعب وأنا أستمع لكلماته التي حملت تهديدًا صريحًا لنا؛ فأمسكت بذراع ربما وقلت وأنا أنظر إلى الرجل:

- أعتذر منك سيدي، إنها مريضة تعاني من شيء في عقلها يجعلها تتفوه بأشياء غريبة. سنرحل الآن، أشكرك على وقتك يا سيدي، أتمنى لك يومًا سعيدًا.

أجبرت ريمًا على الخروج وأنا أنظر إليها بحنق؛ فربما أضاعت مني فرصة لا أظن أنها ستتكرر ثانية، ولكنني لم أتحدث ولم أعبر عما يدور بداخلي فليس من المنطقي أن أعاتبها على ضياع الفرصة؛ فالمسكينة لم تفعل ما تُعاتب عليه ولكنني حزنت لردة فعلها التي ربما ستجعل السيد إينال يتواصل مع دور العقافة الأخرى؛ حتى لا يتعاملوا معي بسبب ما قالته له.

وقفتُ أنظر إلى الميناء حيث ترسو بعض المراكب والعبارات القادمة من الضفة الأخرى للنهر، شعرتُ بغصة لم أشعر بمثلها من قبل، فتملّك الحزن واليأس مني. جلستُ على رصيف الميناء أراقب المراكب فجلست ريمًا بجانبني، بينما انشغلت لانا باللعب مع إحدى الفتيات التي كانت تنتظر العبارة القادمة من الاتجاه الآخر.

قالت ريمًا بنبرتها الكئيبة المعتادة:

- أقسم لك أن الرواية رائعة بحق ولم أجاملك عندما أخبرتك أنها أعجبتني، فما الفارق بينها وبين مثيلاتها على الأرصفة؟ صدقيني لا شيء، ولكنهم حمقى ليس إلا.

نظرت لي ثم حاولت أن تبتسم ولكنها فشلت؛ فهي لا تعرف معنى الابتسامة الحقيقية المرتسمة على القلوب وليس الشفاها! لم ترَ عزيزتي ريمًا يومًا سعيدًا من قبل، حتى يوم زفافها لم يكن الأسعد كسائر الفتيات بل كان الأتعبس بجدارة؛ فوالدي قبل مماته أجبرها على الزواج من كهلي ثري تبرأ من ذريته في النهاية.

عملت ريمًا في منازل الكينمارو كخادمة، فماذا ستفعل فتاة مثلها

فشلت في دراستها؟ تعلمت الكتابة والقراءة، ولكن ربما المسكينة كرهت التعليم، وعلى الرغم من أنني أستطيع أن أعمل في وظائف جيدة إلا أن الكينمارو لم ينعموا علينا بهذه الفرص الذهبية، فكان مصيرنا دائمًا هو الخدمة في المنازل أو المصانع، أو في دور الفاحشة العديدة في المدينة.

عدنا إلى المنزل، فاستقبلتنا والدتنا بابتسامتها الدافئة المعتادة فبادلناها الابتسام وارتميث في حضنها وأنا أشعر بدقات قلبها النابض، بينما عبست ربما بكآبتها المعهودة ففهمت أمني كل شيء ولكنها لم تنطق؛ ربما لأنها لم ترغب في أن تحزنني أكثر من هذا.

مرت الأيام ولم يحدث أي شيء يُذكر يجعلني أفرح بسببه، فالأيام المملة الكثيرة تمر ويمر معها عمري ويتساقط مثل أوراق الشجر حتى أتى ذلك اليوم الذي تغير فيه كل شيء؛ فلقد كنت جالسة في الشرفة أراقب الركاب وهم يصعدون على متن القطار البخاري، فإذا بي أسمع نداء صبي صغير يبيع الجرائد فطلبت واحدة منه.

قرأت العناوين بغير تركيز وكأنني أرغب في تضييع الوقت حتى توقفت عيناى على شيء مكتوب أسفل الصفحة؛ فإن قصر الكلمات يعلن عن فتح باب التقديم مقابل النشر المادي، وهذا يحدث لأول مرة وعلى غير العادة. توقفت لبرهة وأنا ألتقط أنفاسي عندما رأيت الرقم المكتوب؛ فلاحت أحلام الكتابة في الأفق ثانية وتراقصت أمام عيناى.

تعجبت كثيرًا؛ فهي المرة الأولى التي يطلب فيها السيد إينال نقودًا لينشر لأحدهم، ولكنني لم أكرث، وإن كان رفضه للرواية من قبل

كان سببه هو قلة سيولة المال معه، فأظن أن الطريق إلى النشر بات أقرب الآن عندما أوفر المال اللازم للطباعة. أليس كذلك؟

لم يكن الرقم مبالغاً فيه ولم يكن قليلاً -لاكون صادقة- ولكن العمل الإضافي سيغطي التكلفة. أعلم أن شقيقتي لا تمتلك المال الوفير ولا تدخره والدتي كذلك، وفتاة بلا أصدقاء مثلي لن تجد من يقرضها المال. فماذا أفعل الآن؟ لا بد أن أجد وسيلة لاكتسب بها القليل من المال الذي سيكون معبري الآمن إلى عالم الأدب.

وكما هو المتوقع؛ فالرياح تأتي بما لا تشتهي السفن! جلست في شرفتي كل يوم أترقب قدوم الطفل الذي يبيع لي الجرائد؛ لأبحث عن فرص العمل في واحدة منها ولكنني لم أجد وكأن المصانع والمنشآت جميعاً لم تعد تحتاج إلى العمالة! أصابني اليأس قليلاً في بداية الأمر وكدت أنسى حلمي بعد مرور شهرٍ كامل على مقابلة السيد إينال، ولكنني لم أفعل لأن فرصة العمل الذهبية جاءت لي فوق طبقٍ من ذهبٍ ودون عناء!

كنت أجلس فوق المكتب أسجل الأطنان التي ستخرج من المصنع؛ ليتم شحنها على إحدى السفن المبحرة إلى إحدى المدن المجاورة عندما سمعت إحدى زميلاتي وئدعى بيسان، تتحدث بصوتٍ ظنت أنه منخفضٌ ولكنني سمعته على كل حال:

- سأذهب الليلة مرةً أخرى فمن يرى أموال سالتيور لا يستطيع أن يعمي عينه عنها يا عزيزتي.

لم أكرث لكلامها في بادئ الأمر، ولكنني انتبهت عندما قالت زميلة لنا ئدعى أسيل:

- خمسة آلاف في بضع ساعات هو مبلغ كبير، أعلم هذا، ولكن طريقة جني هذه الأموال هي من تجعلني أخاف كثيرًا.

خمسة آلاف؟ يا إلهي! خمسة آلاف بإمكانها أن تجعلني أنشر روايتي، بل وتكفي إيجار منزل جديد غير ذلك المهترئ! ولكن ما طبيعة العمل التي تجعل تلك العاملة تجني هذا المبلغ الكبير في بضع ساعات فقط؟ ربما يتحدثون عن بيوت البغاء؟ ولكنني أشعر بالاستغراب كثيرًا فمن ذلك الأحق الذي يتخلى عن هذا المبلغ الكبير مقابل ليلة واحدة مع إحدى فتيات الليل؟

عادت بيسان تقول بصوتٍ ظنته منخفضًا للمرة الثانية ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة لي على الأقل:

- أنا لا أبالي، إن من يتذوق طعم المال يدمنه يا عزيزتي، وأنت تعلمين أنني أقول الصدق وأنت إن لم تأت اليوم معي فسوف تخسرين هذه الفرصة الذهبية إلى الأبد.

ساد الصمت المكان ولكن أسيل فتحت فمها لتتحدث والدموع محتشدة في مقلتيها بالفعل:

- لا، لا، لا، لن أفعل تلك الأشياء البغيضة مرة أخرى. فليذهب المال والعراء إلى الجحيم، أنا لن أنزل الدّرج الليلة، لن أستطيع.

الدّرج؟ أي درج تقصد؟ لم أفهم شيئًا مما قالت ولكن من الواضح أن طبيعة العمل تلك تؤذي مشاعرها بطريقة أو بأخرى، ولكن ذلك لم يكن مهمًا بالنسبة لي، فالأهم هو المال الذي سوف أجنيه. لا أدري لماذا أو كيف تلبّستني الجرأة عندما قلت بصوتٍ منخفض:

- أستطيع أن أحل محلها إن أردت يا بيسان!

نظرت الفتاتان لي بدهشة عندما أدركتا أنني استرقث السمع إليهما غير مصدقتين لما قلته، ولكن أسيل قالت بسرعة:

- لا، لن تحبي ما سترينه هناك بالأسفل، ستكرهين نفسك إلى الأبد!

كدت أسألها عما تقصده بالأسفل ولكن بيسان نهضت من مقعدها وتركت لي ورقة صغيرة بها رقم هاتف شخص، ما ثم عادت إلى مقعدها بسرعة وهي تلتفت حولها خشية أن يكون هناك من يراقب ما نفعل.

نظرت لي أسيل بعين حمراء كالدماء تتوسل لي ألا أفعل ما فعلته من قبلي، ولكنني لم أكثرث لأني بحاجة إلى المال، فأنا لن أظل طوال حياتي في ذلك القبر الذي يهتز بنا كل ساعة إلى أن يقع فوق رؤوسنا في أقرب فرصة.

لا، لن أقف مكتوفة الأيدي أشاهد الآخرين وهم يقتتلون لتحقيق أحلامهم، بينما أجلس هنا في مصنع النسيج أستنشق شمه الذي يقتلني ببطء. لا، لن أفعل بالطبع، ولكن كان لا بد أن أتأكد من أن العمل لا يتعلق ببيع الجسد؛ فأنا لن أتمكن من فعل هذا -لاكون صادقة- ولذلك أوضحت لبيسان مخاوفي ولكنها قالت على الفور:

- عزيزتي، بيوت البغاء تقف ببجاجة على أرض سالتيورام أمام أعين الجميع تتحداهم بجرأة فلا حاجة لهم بالتخفي، ولكن المكان الذي سوف نذهب إليه الليلة لا يراه أحد؛ لأن الثخبة فقط من تعرفه. وأودك أن تطمئني على كل حال؛ فالمكان الذي سوف تعملين به ليس

بيئًا للبقاء كما تظنين، أو على الأقل ليس تلك المتعة التي تفكرين فيها بل متعةً من نوع آخر!

لن أكذب لقد أخافني كلامها قليلاً، ولكن ما الضرر في التجربة؟ ولأنني لم أفهم ما تعنيه فسألتها على الفور:

- ماذا تقصدين؟ وما طبيعة العمل بالضبط؟

أجابتنني وهي تنهض من مكانها استعدادًا للذهاب:

- الساعة العاشرة مساءً سوف تتصلين بهذا الرقم وستعرفين كل شيء.

عدت إلى منزلي الذي راح يهتز بسبب القطار البخاري الذي وصل لتوه إلى محطة حي المصانع، فنظرت إليه باشمئزازٍ حانقةً على كل ما نعيش فيه من فقرٍ ومرضٍ وذليٍّ وقهر. دخلت منزلي وارتيمت في حضن والدتي الدافئ وأنا أبتسم؛ لأنني أعلم أنني سأكون السبب في خروجنا من هذا المستنقع البغيض، ولكن الأمر يحتاج إلى الصبر، فما الضير في الانتظار قليلاً؟

مرت الساعات وكأنها سنواتٍ فإن كنتَ تنتظر شيئاً ما ستشعر بكل حركةٍ يتحركها عقرب الساعة، وستنتبه لكل صوتٍ يحدثه ولكن إن كنتَ لا ترغب في أن يتحرك ذلك العقرب بسرعةٍ فإنه سيمضي سريعاً قبل أن تطرف عينك.

دقت الساعة العاشرة في الميدان الكبير القريب من منزلي البغيض؛ فانتفضت دقات قلبي وتصاعد شعور الإثارة والحماس والخوف في جوفي، ولكنني استنشقت الهواء بقوةٍ ثم زفرته بقوةٍ أكبر لأهدأ

قليلاً. ارتديت ملابسى بسرعة واستأذنت والدتي للخروج ولكنها قالت مقطبةً جبينها:

- إنها المرة الأولى التي تخرجين فيها بعد العاشرة مساءً يا مرح، فأين عساك تذهبين يا صغيرتي؟
أجبثها على الفور وأنا أبتسم:

- أحتاج إلى الذهاب إلى زميلتي في العمل؛ فلقد نسيث معها أوراقاً مهمة تخص تلك الشحنة التي سيتم شحنها غداً ولا بد أن أغير فيها قليلاً.

لم أجرؤ على النظر في عينيها؛ فكيف سأفعل وأنا آثمة؟ تحوّلت المحادثة بيننا إلى صمت مطبقٍ غريب، هل تصدق ما أقول؟ أم أنها تزن كلامي في عقلها حتى تفكر في منطقيته؟ لا أدري، ولكنني أدركت أنها لن تصدق فكان عليّ أن أفكر في فكرة أخرى تقنعها بالسماح لي بالخروج في هذا الوقت المتأخر، فقلت:

- إن كنت لا تشعرين بالارتياح لفكرة الخروج في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل فيمكنني على الأقل الذهاب إلى كابينة الهاتف في الميدان الكبير؛ لأهاتفها حتى تعدّل من الأرقام ولأخبرها أن تحضر الأوراق غداً. ما رأيك؟

نظرت إليّ بنظراتٍ متشككة؛ فتحاشيت النظر إليها ثانيةً وانتظرت القرار الذي سيغير من كل شيء. بعد صمتٍ دام لدقائقٍ مضت ثقيلةً على قلبي قالت أخيراً بوجهٍ عابس:

- حسناً، ولكنني يجب أن أحذرك للمرة الألف أن سالتيوراً بعد

العامنة ليست مدينة آمنة لأعمالنا، فلا تنسي هذا رجاء؛ فبنات الليل ينتشرن في كل حدب وصوب وأنا أخشى أن يظنك أحدهم أنك منهن. أو الأسوأ تختفين في ظروف غامضة كما حدث لبنات أخريات مؤخرًا. هل تتذكرين؟

إنها تتحدث عن الاختفاء المستمر للفتيات في ظروف غامضة، ولكنها تبالغ حقًا فهذا يحدث كل يوم وفي كل مدينة فلماذا سالتين؟ أومأت بالطبع، ورفعت نظري إليها وأنا أبتسم ثم خرجت من المنزل لأستنشق هواء الليل العليل براحة غمرتني على الفور. توجهت إلى كابينة الهاتف وأنظار المارة في الشارع لم تتركني وشأني لسبب أجهله، حتى أن أحدهم أشار نحوي وهو يبتسم بخبث لصديقه الذي تتبع إصبع الأول حتى وصل إلى الكابينة، فنظر لي بعبوس لم أفهمه!

أدرث القرص الدائري في الهاتف وأنا أنظر إلى الأرقام المكتوبة على الورقة، ثم انتظرت لحظات قليلة حتى سمعت الجرس يرن، سمعت صوتًا أنثويًا يقول من الطرف الآخر:

- الاسم والعنوان؟

ترددت قليلًا قبل أن أنطق وأقول بصوت منخفض:

- مرح.. أنا مرح وأعيش في حي المصانع.

قالت المرأة على الطرف الآخر من الهاتف:

- عظيم، ستصل إليك الآن عربة بها سائق يرتدي معطفًا رمادي اللون وقبعة سوداء، اصعدي على متنها ولا تخبري أحدًا بأي شيء.

ابتلعت ريقى ثم أغلقت الهاتف دون أن أنطق بكلمة، فماذا لو كان
فحًا من أي نوع؟ ماذا لو كانوا يتاجرون بأعضاء البشر؟ ماذا لو
كانوا لصوصًا؟ هل كانت الفتاة الباكية تتظاهر بالبكاء والحزن حتى
أصدقها؟ اضطربت نبضات قلبي وأنا أفكر في هذه الأفكار السوداء،
فغرقت في مستنقع من المخاوف والأفكار البغيضة لدقائق لم
تنقذني منها سوى طرقات شخص ما على زجاج الكابينة، فاستدرت
بفزع أنظر إليه فإذا به يقف أمامي ذلك السائق الذي تحدثت عنه
المرأة في الهاتف، وقف بمعطفه الرمادي وقبعته السوداء يشير إلى
ساعته في إشارة منه أننا متأخران بالفعل. وكالمسحورين فتحت
الكابينة وصعدت على متن العربة وأنا أراقب نظرات الرجال لي،
وكأنني فتاة لعوب يزفونها إلى أحد الكينمارو الأثرياء.

لم تكن الرحلة طويلةً فما هي إلا دقائق قليلة حتى توقفت أمام
دار الشفاء المهجورة، فترجلت ونظرت إلى جدرانها السوداء بسبب
الحريق الهائل الذي اندلع فيها عندما استهدفها الكينمارو بإشعال
النيران فيها؛ ظلًا منهم أن غصبة الأحرار، وهي طائفة مكونة من
مجموعة من الأشخاص الذين يؤمنون بحقهم في استعادة أرض
سالتيور وتحريرها من سطوة الكينمارو، تدير عملياتها الانتقامية
في أنفاق خفرت أسفلها ولكنهم كانوا مخطئين كعادتهم؛ فلم تكن
هناك أنفاق ولا أي شيء مما زعموا فأصبحت المحرقة فضيحة أمام
العالم، راح ضحيتها مئات من الأبرياء بداخل دار الشفاء المنكوبة.

تأملت الجدران السوداء ونظرت بعناية إلى الأسيرة المحترقة،
فحاولت ألا أتذكر الصرخات التي سمعتها سالتيور بأكملها والمرضى
والأطباء يحرقون على قيد الحياة. يا لها من مأساة!

شعرث بالدوار لسبب أجهله، ثم شعرث بغصة في قلبي تبعها ضيق في التنفس، اتكأث على إحدى الجدران وأنا أحاول أن ألتقط أنفاسي عندما سمعت صوت امرأة من خلفي وهي تقول بصرامة:

- ماذا تظنين نفسك فاعلة؟ هلم الآن قبل أن يراك أحد.

كانت المرأة تخفي وجهها بوشاح أسود اللون، وترتدي ثوبًا أزرق فوقه رداء أسود كئيب له غطاء للرأس أخفى شعرها، أمسكتني بقوة من ذراعي وقادتني إلى داخل دار الشفاء وهي تتلفت حولها كي لا يرانا أحد. توقفنا معًا أمام خزانة كبيرة سوداء اللون لها بابان فقط، فتحت إحدهما المرأة وأمسكت بي مرة أخرى لدخل بداخلها!

تجمدت مكاني وأنا أنظر باندهاش لما أراه؛ فما رأيته كان غريبًا للغاية فدرجات الشلم بداخل الخزانة السوداء في داخل دار الشفاء لم تكن مشهدة مألوفًا يراه المرء كل يوم. نظرت لي المرأة ثم قالت بصوت منخفض:

- إما أن تنزلي الدّرج معي الآن وتبتسمي إلى طريق الثراء، أو تذهبي وتنسي كل ما حدث الليلة وكأنه حلم جميل أيقظك منه أحدهم قبل انتهائه!

لقد انعقد لساني، فلم تعد هناك كلمات تُقال، فماذا سوف أقول؟ الأمر بزمته غريب ومخيف في الوقت ذاته، ولكنني ما زلت بحاجة إلى المال؛ لذا نزلت معها الدّرج دون أن أنطق بحرف فما سمعته جعل الدماء تهرب من عروقي؛ فالصرخات المكتومة التي كانت تتضح وتعلو كلما اقتربنا من نهاية الدّرج لم تُبشّر بالخير أبدًا، ولكنني

أكمّلت طريقي على الرغم من كل شيء.

وقفت عند نهاية الدّرج أنظر إلى الظلام الذي أحاط المكان بشكلٍ مخيف، التفتت المرأة لي وقالت بعينين مبتسمتين:

- مرحبًا بك في سالتورا.. المظلمة!

مارية

من قال أن الحياة عادلة؟ هل الحياة التي تعيشها طفلة صغيرة جميلة -كما يُقال عنها- نشأت في قصر كبير، ولكنها عاشت في قوقعتها وحيدة تشعر بالخوف من كل شيء حولها هي حياة عادلة؟ ربما يراها البعض كذلك ولكنني لم أرها هكذا أبدًا!

من قال أن الثراء يجلب السعادة؟ من قال أن القصور الفخمة هي جنة الإله على الأرض؟ عشت حياة ليست بالطويلة ولا القصيرة ولكنها كانت كافية لتثبت لي أنها أبعد ما تكون عن العدالة؛ فهي قاسية وظالمة على من هم مثلي، أولئك الذين يمتلكون قلوبًا رقيقة هشة تكاد تكسر إن أساء أحدهم إليها، وهو ما ظل يحدث لي طوال تلك الأعوام المنصرمة.

تعجبت كثيرًا لماذا يستغرب والدي من هجري المستمر لقصره الكبير وهو أول من تسبب في هذا الهجر المريع، فلماذا سأمكت في مكان رأيت أمي تموت فيه كل يوم ألف مرة؟ لماذا أعيش في منزل لا وجود فيه لأب حقيقي في المقام الأول؟

لم أر والدي إلا مرة في نهاية كل شهر؛ فمنصب الحاكم لم يكن بالسهل في وجهة نظره، ولكن والدي غير الحكام الآخرين، إن المدينة بأسرها تخشاه، حتى أنا وأمي نخشاه، وكما يحكم سكان سالتيوراً بقبضة فولاذية يحكمنا نحن بالقسوة والعنف، فكان منصب الحاكم يبدو لي سهلًا للغاية، فما أسهل الظلم والقهر!

يا لكآبة القصر الكبير الذي على الرغم من اتساعه فإنه كان يضيق

كل يوم، حتى شعرت أنني لو مكثت فيه ما تبقى من حياتي البائسة
لسوف تنسحق عظامي وهو يضغط عليها؛ لذا قررت الرحيل فأنا
أتجول بين منازل الكينمارو لأعلم أبناءهم قبل التحاقهم بقلعة
العلوم.

عندما علم والدي أن قبلة العمل التالية ستكون منزل السيد
ليرون جُنْ جنونه؛ فهو يعلم أن السيد آدم سيء السمعة يعيش في
تلك القلعة الضخمة، وهو يعلم أن لي قلبًا رقيقًا كجناح عصفور
سيمزقه أحدهم يومًا ما، وأعتقد أنه لم يبال إن حدث هذا ولكنه لم
يفضل أن يكون من يفعل هذا هو ابن أقوى وأغنى شخص يعيش
في سالتيور، فالمصالح المشتركة بينهما وتأثير السيد ليرون على
السلطة الحاكمة ومنها أبي لهي كبيرة، والأمور ستتعدد كثيرًا إن كنت
أنا طرفًا فيها. أليس كذلك؟ ولهذا السبب بالضبط أصررت على العمل
في قلعة تيلارين، ربما لأغيظ أبي؟ أو لأعاقب نفسي فالقلعة كبيرة
للاغاية حتى أكبر من القصر الذي تربيت فيه، وأنا أخاف من الأماكن
المتسعة فهي تشعرني بالوحدة كثيرًا.

سمعت بعض القصص المخيفة التي تتراقص حول السيد ليرون
وابنه فإن نساء العائلة يموتون في ريعان شبابهم؛ ولهذا السبب بعينه
عزمت على السفر إلى محطة حي المصانع فصعدت على متن القطار
البخاري؛ حتى أشعر بالحرية ولو قليلًا، وتوجهت إلى القلعة الغامضة
رغمًا عن أنف أبي الذي لم يتحلّ بالجرأة الكافية ليمنعني من الرحيل
وليسجنني في قصره الكئيب، فلو كان فعل ذلك لوجد غصبة تحرير
المرأة أمامه وهم من ينادون العالم بأسره بحرية المرأة الكاملة.

وللحق، إن الكثير من رجال سالتيوراً يرتجفون هلعاً منهم، ولحسن الحظ كان أبي من أولئك؛ فالانتقادات التي سيبتلى بها لم تكن بالقليلة أبداً، فلم يخاطر هو بمواجهتها وتركني أرحل!

كنت أستاذ إلى إحدى عواميد الميتم وأنا أراقب راكان وهو يأمر حراسه الأقل رتبةً منه بأن ينتبهوا أكثر في الأيام المقبلة؛ فهناك قاتل حرّ طليق يتجول في المدينة، وربما هو واحدٌ من غصبة الأحرار الذين يعيشون في الغابة خارج المدينة. لم أفهم ذلك الشعور الغريب الذي يخالجنى وأنا أنظر إليه، بل وما جعلني أتعجب هي نظراته لي، أو ربما هو لا يهتم بي بل يساوره شعورٌ بالفضول بسبب نظراتي له، لا أدري. استرقتُ السمع لحديثه معهم وهو يقول بصرامة:

- لن يخرج أحدٌ من القلعة أو يدخل إليها إلا بإذنٍ مني، ولكن السيد ليرون ونجله استعنا لهذه القاعدة. ويجب علينا جميعاً توخي الحذر؛ فربما القاتل يعمل مع عصابة ما أو الأسوأ مع غصبة الأحرار.

هل الأمر جاءً هكذا؟ وهل له علاقة بما رأيته بالأمس؟ لا أدري لماذا أيقنت أن ما رأيته في النافذة كان حقيقياً وليس مجرد هلاوس أصابتني بسبب المرض المنتشر. انتشلتني من مقبرة الأفكار صوت أنثويّ جاء من خلفي، فاستدرت لأجد نفسي أقف أمام امرأة في العقد الثالث من عمرها من السكان الأصليين، شعرها أسود معقوص، ترتدي رداءً رمادياً له غطاء رأس وهو الزي المميز لمن يعمل في الميتم.

قالت المرأة بابتسامة ساحرة:

- أخبرني السيد آدم أنك وقّعتِ على العقد بالأمس، مرحبًا بك عزيزتي مارية، أنا السيدة ديلارا مديرة الميتم.

قالت لها وهي تمذّ يدها لمصافحتي، ففعلتُ بدوري وأنا أبتسم إليها بوذّ على الرغم من تعجبي لجراءتها؛ فأنا ابنة الحاكم ولكنها تعاملني بلا تكلف مثل العديد ممن تعاملتُ معهم من قبل، ولكن الأمر راق لي؛ فهذا يدل على شخصية قوية وهو ما شعرتُ به منذ الوهلة الأولى التي رأيثها فيها.

قالت وهي تنظر إلى راكان:

- إنه رجلٌ نبيل يفعل ما بوسعه لحماية القلعة، كما أن الأطفال في الميتم يعشقونه.

نظرتُ إلى راكان الذي لم يبادلني النظرات مما أصابني بالإحباط قليلًا وبالغضب كثيرًا؛ فأنا أكره هذا الشعور الجديد بل الغريب عني والذي يخالجنني كلما نظرتُ إليه، فهو يجعلني أشعر بالضعف وأنا أكره أن أكون ضعيفة. حاولتُ أن أتجنب الحديث عن راكان، فقلت عندما لاحظتُ الفتاة التي رأيثها في النافذة بالأمس:

- تلك البنت هناك ذات الصفائر، هل تشكو من أمرٍ ما؟

قَطَبَت المرأة جبينها، ثم نظرت حيث أشارت وأجابتنني:

- ليلي؟ هل تلك المشاغبة أساءت الأدب؟

تذكرُها وهي تبكي في النافذة بالأمس، ولكنني أجبتُ السيدة ديلارا على الفور:

- لا، أبدًا. إنها فتاة مهذبة للغاية.

من الواضح أن السيدة ديلارا لم تقتنع بما قلث؛ لأنها قالت وهي تبتسم بسخرية:

- لم أتخيل أبدًا أن تكون ابنة الحاكم فتاة رقيقة طيبة القلب هكذا.

سألها عن سبب قولها لهذا الكلام، فأجابتنني وهي تبتسم:

- لأن تلك الفتاة مشاغبة ومثيرة للمتاعب ولكنك الآن تقولين عنها عكس ما رأيث منها.

للحق، لم أسمع ما قالته بعدها؛ لأنني كنت أنظر إلى القناع الذي رأيته في النافذة في ليلة أمس. كان يقف خلف الفتاة وهو يرتدي الرداء الأحمر القاتم، تسمرت مكاني بلا حراك وتوقفت أعضاء جسدي عن الحركة لبضعة ثوانٍ وأنا أراه يعبت بشعر الفتاة البائسة دون أن يراه أحدٌ غيري.

لا بد أن السيدة ديلارا شعرت بشيء غريب؛ لأنها سألتني بوجه عابس:

- آنسة مارية، هل أنت بخير؟

- نعم، أنا بخير.

أجبثها ثم تركتها على الفور وذهبت إلى القلعة لأصعد إلى غرفتي وأرتمي على الفراش، بينما أفكر فيما قد يحدث لي إن علم أحدهم أنني مصابة بذلك المرض الغريب المنتشر والذي لا يوجد له علاج حتى الآن. تصيب العرق من جبيني وأنا مستلقيّة على ظهري فوق

الفراش أفكر فيما سيقوله والدي إن علم بما أراه، لا بد أنه سيشعر بالشماتة حتى أنه سيرسلني إلى العزل الصحي حتى لا أؤذي من حولي.

شعرت بأن هناك أصواتًا غريبة متداخلة تأتي من خارج الغرفة، فنهضت من فوق الفراش وتوجهت إلى الباب ثم فتحتة لأجد الكون بأكمله غارقًا في الظلام التام؛ فالسماء خارج النافذة لم تكن مضيئة، وعلى الرغم من أننا كنا في الصباح الباكر إلا أن السماء حالكة السواد وكأن الليل بظلامه ترعّع على عرشها.

لم أستطع أن أرى شيئًا من حولي، فوقفْتُ مكاني بلا حراك، ولكنني انتفضت مذعورة عندما سمعتُ أصوات ترانيم تأتي من مكانٍ ما على يساري. أعتقد أن يساري هو الدّرج في نهاية الرواق؛ لذا توجهت ناحية النافذة وأمسكتُ بالمصباح المعلق على الحائط، وتحسستُ طريقي إلى المشكاة حتى عثرتُ على أعواد العقاب بداخلها فأشعلته لينير الدرب لي.

كلما اقتربتُ من الدّرج ارتفعت أصوات الترانيم التي لم تكن مريحة أبدًا، نزلتُ الدّرج وأنا أرتجف من الخوف حتى وصلتُ إلى نهايته، ولكنني توقفتُ على الفور عندما رأيتُ بابًا لم أره من قبل على يساري. كيف ظهر ذلك الباب فجأة؟ يبدو أن الأصوات تأتي من خلفه، ولكنني لا أجرؤ على الاقتراب فما يحدث لي غريب وغير منطقي على الإطلاق؛ فأنا أقسم أن ذلك الباب لم يكن هنا من قبل، بل كان الحائط هو ما رأيته سابقًا، فمتى وكيف يظهر بابٌ خشبي ضخم كذلك بهذه السرعة؟

إنني أفقد عقلي تمامًا، وهذا ما جعلني أشعر بالغضب أكثر من شعوري بالخوف، ولكن هناك رغبة ملحة بداخلي تدفعني إلى التحرك للأمام نحو الباب الغريب ولكنني تسوّرت مكاني؛ فأنا لست مستعدة بعد لأرى ما على الجانب الآخر منه.

انطفأت شعلة المصباح فأظلم كل شيء ثانية ولكن أصوات الترانيم لم تتوقف، بل تعالت أكثر من ذي قبل فأصبحت مخيفة ومؤذية لأذني بشكل جعلني أفلت المصباح من يدي وأضع كلتا يدي على أذني؛ لأحميهما من خطر الأصوات العالية التي سوف تصيبني بالصمم. تعالت الأصوات إلى تلك الدرجة التي جعلتني غير قادرة على تحملها أكثر من هذا؛ فأغمضت عيني ثم انطلقت صرخات الألم من فمي وأنا أضغط على أذني أكثر فأكثر حتى سمعت صوت ديلارا وهي تقول باستغراب:

- هل أنت بخير سيدتي؟

فتحت عيني لأتفاجأ أنني ما زلت واقفة في ساحة القلعة! نظرت إلى السيدة ديلارا وأجبثها:

- نعم، فقط أشعر بقليل من الإرهاق.

لا أدري لماذا شعرت أنها لم تصدق ما قلته ولكنها قالت على كل حال:

- على العموم، أتمنى أن تقضي وقتًا ممتعًا معنا.

تركنتني وعادت إلى الميتم، بينما وقفت كالتماثيل بلا حركة حتى سمعت صوتًا مألوفًا يقول من خلفي:

- هل أنت أيضًا ترينهم؟!

عندما سمعتُ صوتها شعرتُ أن هناك من سكب دلوًا ممتلئًا عن آخره بالملج فوق رأسي! استدرتُ فرأيتهَا واقفةً أمامي تنظر لي في خوف وكأنها رأت شيئًا أمامها، سألتُها على الفور وأنا أحاول أن أجعل صوتي غير مسموعٍ لأحدٍ سواها:

- من تقصدين يا عزيزتي؟

تلفتت بوجهها يسارًا ويميئًا لتطمئن ألا أحد بالجوار يمكنه سماعها، ثم قالت وهي تقترب مني بصوتٍ منخفض يرتعش هلعًا:

- الـ.. الملائكة.. إنهم يأتون ليلاً ويترنمون بألحانٍ مخيفة يا معلمتي.. هل ترينهم كما أراهم؟

إنها المرة الثانية التي أسمع فيها كلمة "الملائكة" تُذكر أمامي، في المرة الأولى قالتها ابنة السيد آدم وها هي ذي هذه الطفلة العجيبة تتساءل إن كنتُ أراهم مثلها أم لا؟ ولكن هذا لم يكن العجيب في الأمر، بل ما ذكرته عن الترانيم المرعبة، فهي تشبه إلى حدٍ كبيرٍ تلك الترانيم التي سمعتها منذ قليل.

انحنيتُ إلى مستوى نظرها، ثم سألتُها بترقب:

- من هم الملائكة؟

لم تجب على سُؤالي بل اكتفت بالنظر إلى الأرض، ثم جرت مسرعةً إلى الميتم وضافتها تترنح في الهواء لتتركني في غياهب التعجب والحيرة وحدي.

جلسث أمام مائدة العشاء لأتناول الطعام مع السيد ليرون وابنه وحفيدته، وعندما كنت على وشك أن أضع ملعقة الحساء في فمي توقفت عندما دخلت الخادمة وهي تحمل خطابًا عليه ختم الحاكم، سلمته إلى السيد ليرون وهي تهمس في أذنه. لم ألحظ أنني أراقب تعبيرات وجهه بينما يقرأ ذلك الخطاب، إلا عندما لمح آدم يبتسم إلى يدي المعلقة في الهواء، فاعتدلت ثم وضعت المعلقة في طبق الحساء بهدوء، وانتظرت ما سيقوله السيد ليرون، ولكنه لم يقل شيئًا يذكر فشعرت براحة لأن الأمر غير متعلق بي على ما يبدو.

مرت دقائق قليلة ونحن نأكل في صمت قطعته صوت السيد ليرون وهو يقول:

- كيف هو يومك الأول في الميتم يا عزيزتي مارية؟

أجبته وأنا أتذكر الأشياء المربعة التي رأيته منذ وصولي حتى الآن، ثم اغتصبت ابتسامة باهتة وأجبته عن سؤاله:

- كل شيء على ما يُرام يا سيدي.

لا أدري لماذا شعرت لوهلة أنه لا يصدق ما أقول، التفتت الرؤوس جميعها إليّ وهم يراقبون تعبيرات وجهي وأنا أتحدث، لقد شعرت للحظة أن نظراتهم غير مريحة على الإطلاق، ولكنني لم أطل النظر في أعينهم وعزمت على النهوض؛ لأنني كنت انتهيت من الطعام بالفعل ثم تمنيت لهم ليلة هانئة، وبينما كنت في طريقي إلى غرفتي أوقفتني الخادمة وهي تقول:

- سيدتي، هناك من يسأل عنك ويرغب في التحدث معك عبر الهاتف.

ظننت أنها أمي، ولكنني تفاجأت عندما سمعتُ صوته وهو يقول من الطرف الآخر للهاتف:

- هل أنت سعيدة الآن؟

لم أتوقع أن أسمع صوته بهذه السرعة، وأنا من تركتُ قصره بالأمس، ولكنني أجبته بتجهم:

- أنا سعيدة ما دمْتُ بعيدةً عنك سيدي.

نعم، الرد قاسٍ وغير متوقع، ولكنها الحقيقة مع الأسف؛ فوالد ظالم وحاكم مستبد مثله يبحث عن الحب والاحترام ممن حوله لهي جريمة يجب أن يُعاقب عليها برأيي! سمعتُ صوت أنفاسه عبر سماعة الهاتف تعبيرًا عن كبت غضبه، فقال وهو يضغط على كل كلمةٍ تخرج من فمه:

- إذن، اسمعيني جيدًا.. إن كنتِ لا ترغبين في رؤية وجهي ثانيةً فلن ألومك، ولكن ما يحدث في المدينة هذه الأيام شيءٌ مرعب بكل ما تحمله الكلمة من معنى يا مارية، فهناك قاتل متسلسل يجوب شوارع سالتيورا بكل حرية ولا أحد يعلم من هو حتى الآن، ولكننا نعرف جيدًا أنه لا يستهدف ضحاياه بعشوائية بل يختارهم بعناية...

لم أمنحه الفرصة لإكمال حديثه، فقلتُ مقاطعةً إيّاه:

- سيدي الحاكم، إن نظرتُ حولك ستجد في كل شبرٍ عدوًا لك. في الواقع، لست وحدك فجميع الكينمارو من ذوي السلطة لهم العديد

من الأعداء يتربصون بهم في المدينة وخارجها، أليس كذلك؟ ولهذا السبب بالتحديد، ما يحدث من جرائم قتل لا يعنيني في شيء؛ لأنني وعلى عكس سيادتكم لم أقترف شيئًا خاطئًا تسبب في أذية أحدهم، وإن كنت مكانك فسوف أعيد النظر فيما فعلت في الماضي لأنقب عن جرائم في حق الآخرين، فربما أعر في دهاليز ذاكرتي على ذلك القاتل المختبئ.

أغلقت سماعة الهاتف غير عابئة بما يشعر به ذلك الرجل، فما رأيته من ظلم لي ولأمي ولجميع من حوله يجعلني أبغضه كغيري. صعدت إلى غرفتي وجلست في الشرفة أراقب راكان وهو يتحدث مع رجاله بعصبية؛ يبدو أن جرائم القتل تثير في أنفسهم الهلع والغضب على حد سواء. ما زالت المشاعر المختلطة بداخلي تتأجج كلما نظرت إليه، والمؤسف أنها تزداد كلما بادلني النظرات نفسها.

سمعت أصوات خطوات أقدام قادمة من خارج الغرفة ثم توقفت أمامها، فاستدرت لأنظر إلى الباب لا تفاجأ أن المقبض يلتف ببطء وكأن هناك من يحاول فتحه، كاد قلبي أن يقفز خارج صدري عندما سمعت صوتًا بشعًا لشيء يزمجر وكأنه حيوان يوشك أن ينقض على فريسته، فراقبت الباب دون حركة ونبضات قلبي على وشك أن تتوقف من فرط الهلع. لم يكتف الشيء بإدارة المقبض بل ظل يطرق على الباب بقوة وعنّف، فانطلقت صرخة مرعبة مني تلاشت عندما فُتح الباب ودخلت ميرال. من الواضح أن صرختي لم يسمعها أحد سواي!

كان يبدو عليها التوتر وهي تتقدم مني وتقول بطريقتها الحزينة

الخائفة التي اعتدتها:

- لا أعرف كيف أنام وحدي، هل من الممكن أن أنام بجانبك هذه الليلة؟

لم أرد؛ فأنا ما زلت غير مدركة لما حدث للتو، فمنذ لحظات كان هناك حيوانٌ يزمجر أمام الباب. أما الآن، فأمامي طفلةٌ بريئة لا تستطيع النوم وحدها في غرفتها وتلمس مني الأمان! التقطت أنفاسي وحاولت أن أهدأ حتى أعرف ما يخيفها. سألتها وأنا أبتسم كما لو أن شيئًا لم يحدث:

- هل رأيت كابوسًا يا عزيزتي؟

اتجهت نحو الباب وأغلقتة، ثم اقتربت مني وقالت بصوتٍ منخفض وهي تضع أصابعها في فمها:

- رأيت الملائكة.

الملائكة مرة أخرى؟ لقد سأمت حقًا من ترديد اسمهم أمامي وأنا لا أعرف من هم. سألتها بقليلٍ من العصبية:

- أليس من العدل أن تخبريني من هم الملائكة إن كنتِ تلتهمسين مني الأمان؟

عندما أدركت أن طريقيتي أخافتها، اقتربت منها وأنا أبتسم حتى تهدأ ولا تخاف مني، قلث وأنا أحيط وجهها بكليتي:

- حلوتي الصغيرة، أرغب في مساعدتك، ولكنني يجب أن أعرف من هم الملائكة حتى أحاربهم، أليس كذلك؟

ترددت قبل أن تقول أخيرًا:

- إنهم يأتون ليلاً.. إنهم يخرجون من ذلك الباب في الحائط.

تركت يداي وجهها الصغير على الفور فتسمرت مكاني وأنا أعيد جملتها في عقلي مرارًا وتكرارًا. إن كانت ميرال وتلك الفتاة ذات الصفائر من الميتم تريان ما أراه، فهذا يعني أنني لسث مصابةً بذلك المرض المنتشر، أو الأسوأ إن الفتاتين مصابتان به مثلي! سألتها مرةً أخرى:

- هل تسمعين ترانيم تأتي من خلف الباب؟

أومأت وما تزال يدها في فمها، فاحتضنتها بعطف وتحسست شعرها لأشعرها بالأمان، ثم حملتها لتجلس معي على الفراش وأنا أفكر فيما قالت له لي. سألتها مرةً أخرى:

- هل من الممكن أن تصفين الملائكة لي؟

اعتدلت في جلستها، ثم نظرت إلى باب الغرفة وقالت:

- إنهم يسировون في ممرات القلعة ليلاً، ثم يدخلون ذلك الباب في الحائط وبعدها يختفون بداخله.

سألتها دون وعي مني لما قد يفعله سؤالي بها:

- وهل يرتدون رداءً أحمر ويضعون أقنعةً مخيفةً على وجوههم؟

أحاطتني الصغيرة بكلتا يديها وهي ترتعش من الخوف، فأدركت فداحة ما فعلته، لقد أكدت لها أنني أراهم بدوري، فقلت لها على الفور:

- إنني أمزح يا ميرال، أنا لا أرى الملائكة.

قالت بصوتٍ مختنق من البكاء:

- ولكنك تعرفين ماذا يرتدون وتسمعين ترانيمهم. أليس كذلك؟

لن ينفعني الكذب في شيء؛ فهي فتاة ذكية ولن تصدق ما سأقوله؛
لذا استسلمت وقلت:

- عزيزتي ميرال، ليس كل ما نراه حقيقياً بالضرورة، فربما نتوهم
أشياء تحدث من حولنا، ولكن هذا لا يجب أنها حقيقة.

ابتعدت عني وقالت بعنف وهي تتجه نحو الباب:

- أنت لا تصدقيني مثل السيدة ديلارا.

خرجت من الغرفة وصدفت الباب بقوة ورحلت، في حين جلس
مكاني بلا حراكٍ مندهشةً مما فعلته. مضت دقائق معدودات قبل
أن أسمع أصوات جلبة بالخارج مرةً أخرى، فعزمت على التحلي
بالشجاعة ونهضت ثم فتحت الباب ببطءٍ لأتفاجأ بالسيد ليرون يقف
أمامي، وهو يقول متوترًا:

- يجب أن نتحدث على الفور.

الضوء الأزرق

"لم ينبغ لحارسك أن يفتح الرسالة بل أنت من كان عليه أن يفعل ذلك. لا بأس يا سيد إيمار، لنتظر المرة القادمة، ولا تنس أن النهاية اقتربت للغاية. فهل أنتم مستعدون للمحاكمة؟"

سلم السيد إيمار الرسالة الغريبة إلى حارسه وهو يتأمل تعبيرات وجهه التي تحولت إلى الخوف والاندھاش. أطبق كلتا يديه على رقبة حارسه العريضة وقال بنبرة غضب مكتوم:

- هل ما زلت تصر على أن الرسالة فارغة أيها الغبي؟

لم يتمكن الحارس من التحدث فتحشرجت أنفاسه بداخل حنجرتة وهو يصارع الاختناق حتى تركه السيد إيمار وشأنه، فبدأ الحارس في السعال حتى كاد أن يلفظ حنجرتة.

قال وهو يكبح جماح السعال الذي ألح عليه بشدة:

- أقسم لك يا سيدي، أنها كانت فارغة عندما فتحها للمرة الأولى، ولا أفهم كيف كُتب عليها هذا الكلام.

صاح السيد إيمار:

- بل من ومتى كتبها أيها الأحمق؟! إن كان أسفل هذه الرأس عقل يفكر ولو قليلاً لكنت الآن تصول وتجول في ممرات القصر لتبحث عن مراقبني ويهدد أمني أنا وأسرتي.

أوماً الحارس بخوف، ثم ترك السيد إيمار وانطلق إلى زملائه ليعطي تعليمات لهم بالبحث عن أي دخيل. أما السيد إيمار، فلم

يتحمّل ذلك الخوف المتأجج بداخله مما دفعه إلى الاتصال بالسيد ليرون لمقابلته في مكتبه في قلعة تيلارين.

عندما وصلت عربة السيد إيمار، استقبله السيد ليرون مبتسمًا على الرغم من معرفته بأمر الرسالة مسبقًا إلا أنه لم يبالي إلا بسلامة نفسه وأسرته فقط. جلس الرجلان في المكتب، ليبارك حديثهما زجاجة النبيذ تارةً ولفائف التبغ تارةً أخرى.

تطلّع السيد ليرون في الرسالة، ثم ابتسم بسخرية وقال:

- لِمَ الخوف يا عزيزي؟ لم أفهم. إن من كتب هذه الرسالة يعبت معك لا أكثر، إذن لماذا الخوف؟ هل فعلت شيئًا غير قانوني أو أي شيء بإمكانه أن يجعل أحدهم يكن لك مشاعر الكراهية ويسعى إلى الانتقام منك على سبيل المثال؟

لم يكن السيد ليرون محبوبًا بين الأثرياء؛ فهم يعلمون أنه على دراية بكل ما يحدث في المدينة الضبابية، ولم يكتف بالمعرفة فقط بل استخدم كل ما يعرفه عن منافسيه ضدهم، وعلى الرغم من أن السيد إيمار ليس عدوًا له فإنه يعتقد أن السيد ليرون يعرف عنه أعمق خبايا نفسه وأشدّها ظلمةً، ولقد تأكدت هذه الظنون عندما أشار بكلامه عن اقتراح شيء ما غير قانوني أو ارتكابه لجريمة في حق الآخرين.

تجمعت سحابة صغيرة من دخان التبغ في الهواء أمام السيد إيمار الذي حدّق في وجه السيد ليرون وأطال النظر فيه حتى تكلم أخيرًا قائلاً:

- هناك من يعبت معي، ولا أظن أنك بعيدٌ عن هذا العبت.. إنها مسألة وقتٍ فقط.

أمسك السيد ليرون بالكأس الصغير ثم احتساه دفعةً واحدة، وعندما انتهى منه وضعه بقوة على مكتبه وقال وهو يتجرّع غيظه: - أنت تعلم جيدًا أن هذه القلعة شهدت الكثير على مر السنوات المنصرمة، وتعلم أيضًا أن إرث أسلافي تستلم الأجيال اللاحقة مهمة الدفاع عنه، كما أن سالتيوراء عانت من الكثير حروبًا وأمراضًا وفقيرًا وفسادًا، إلخ.... ولكن هذه القلعة صمدت ووقفت كالذئاب في وجوه الضباع لا تخشى شيئًا.

ابتسم السيد إيمار بسخرية، فلم يكثرث بأنه يجلس أمام أقوى وأغنى رجال سالتيوراء، ثم قال والدخان يخرج من فمه:

- ليس كل ما قلته الآن صحيحًا، فهناك بعض الأمور التي حدثت في الماضي تجعل كلامك غير صحيحٍ بالكامل، وإن كنت أنا القاتل وعزمت على إيذاء أحدٍ ممن يعيشون في القلعة التي يحرسها العديد من الحراس، لتربصت به خارجها حيث يقل عدد الحراس والأسلحة، أليس كذلك؟

لم يرد عليه السيد ليرون، فساد الصمت الثقيل في الغرفة، حتى قطعه أخيرًا وهو ينهض من مكانه غير عابئٍ لفظاظته:

- كما أخبرتك منذ قليل يا سيد إيمار، إنها مزحةٌ ثقيلة فلا تخف، وإن رغبت في إمكانك أن تذهب إلى الشرطة كما تعلم.

على الرغم من أن السيد إيمار ثملٌ إلى حدٍّ ما إلا أنه نهض بعصبية

ووقف ينظر إلى السيد ليرون، فتبادل معه نظرات التحدي ثم رحل. دخلت الخادمة وأخبرت السيد ليرون أن هناك اتصالاً عاجلاً؛ فتوجه إلى البهو وأمسك بسماعة الهاتف السوداء، وبعد دقيقة واحدة وضع السماعة في مكانها ثم توجه على الفور إلى غرفة مارية؛ ليتحدث معها.

صعد السيد إيمار إلى عربته وأمر السائق بأن ينطلق، ففعل الأخير ما أمر به فسارت الجياد في دروب سالتيور المظلمة، ولم يكن هناك مصدر للضوء سوى شعاع القمر فأصبح الجو العام للغابة غير مريح على الإطلاق.

فتح السيد إيمار درجاً صغيراً أسفله كان جزءاً من مقعد العربة، ثم أخرج منه زجاجة خمر اعتاد سائقه أن يضعها فيه حتى يستمتع سيده بها عندما يرغب. تجرع الزجاجة بأكملها على مرتين، وعندما انتهت ألقى بها من العربة. لقد كانت الغابة مظلمة للغاية يسودها الصمت، ولكن الإيقاع الصادر عن ضربات الجياد للأرض هو من جعل الصمت أقل حدة ومع ذلك لم يقلل من التوتر الذي ساد الطريق.

وبعد مرور بضعة دقائق على الانطلاق من محيط قلعة تيلارين، وصلت العربة إلى قصر السيد إيمار الذي كان يترنح من أثر الخمر، فساعده الحارس على الصعود إلى غرفته، ثم تركه بمفرده. ما إن استلقى على ظهره إلا وتلاشت جميع الأضواء من حوله عدا ضوء أزرق اللون كان يظهر ويختفي خارج الشرفة. إنه يعلم أنه مخمور، ولكن هناك شيئاً بداخله حثّه على النهوض فراح يتحسس طريقه

المظلم وهو يترنج، فتعثر في طريقه وسقط على الأرض ليتفاجأ
بقدمين أمامه.

إنه يعلم أن الخمر يعبث بالعقول ولكنها المرة الأولى التي يؤثر
فيه هكذا، فلم يسبق له أن رأى هلاوس بصرية بسبب هذا المشروب
الكريه. رفع أنظاره إلى الأعلى فأتسعت عيناه هلعًا لما رآه؛ كانت
زوجته تقف أمامه تنظر إليه بوجه انقلب رأسًا على عقب، فلم يكن
هناك شيء في وجهها في مكانه الصحيح. أحنّت رأسها، فاقترب
وجهها المرعب من وجهه كثيرًا، ثم قالت بصوت لا يمت لعالمنا بصلية:

- هل أنتم مستعدون؟

حاول أن ينهض مسرعًا ولكنها دفعته إلى الخلف فاصطدم جسده
بالباب بقوة، ثم سقط على الأرض وهو يتأوه من شدة الألم. رفع
نظره إليها فاكشف أنها اختفت؛ ولهذا تعجب كثيرًا فأين ستذهب؟
لا بد أنها في الشرفة؛ هكذا فكر فنهض وهو يتكئ على كلتا يديه
محاولًا ألا يسقط بسبب حالة الشكر التي غمرته، ولكن خوفه مده
بالقوة قليلًا. سار إلى الشرفة ووقف ينظر في كل الاتجاهات؛ باحثًا
عن زوجته التي اختفت وتلاشت وكأنها لم تكن أمامه أبدًا.

استند على سور الشرفة وهو ينظر إلى السماء التي راحت النجوم
فيها تتشكل وتدور حتى تكونت كلمات مفهومة: "هل أنتم مستعدون
للمحاكمة؟" هكذا قرأ ما رسمته النجوم في السماء.

في هذه اللحظة، تيقن السيد إيمار أنه يهلوس، ولكن ظنونه لم
تستمر فمن أسفل الشرفة رآها؛ كانت زوجته تتشبث بها كالعناكب؛
ووجهها المقلوب رأسًا على عقب ما يزال ينظر إليه، وارتسمت على

ثغرها ابتسامةً مربعة جعلته يتراجع إلى الخلف ولكنه تفاجأ بها خلفه؛ إذ لم يتمكن أن يراها وهي تسير على الجدار من فوقه حتى هبطت بالأسفل ووقفت خلفه، ثم دفعته إلى الأمام بقوة تنافي طبيعتها الأنثوية الضعيفة، استند على السور وهو يرتجف من الهلع والألم معًا.

قال:

- ماذا تكونين؟ وما الذي تريدينه مني؟

سارت على يديها وقدميها كالحيوانات وهي تنظر إليه بوجهها المرعب، ثم وقفت أمامه وانتصبت لتطبق على رقبتة وهي تفتح فمها المخيف؛ فتنتقلق منها الصرخات المدوية التي نذفت أذناه على إثرها.

حاول باستماتة أن يفتح فمه ليصرخ حتى يتمكن أحد من سماعه ولكنه فشل، فحاول ثانية أن يمسك بيديها ليبعدهما عنه، ولكن الأطفال والنساء والرجال ذوي الوجوه المشوهة والفاقرين لبعض من أجزاء أجسادهم جعلوه يعدل عن الفكرة، فكانوا يزحفون على الأرض وهم يصرخون فلم يعد الألم محتملاً.

مضت الدقائق قليلةً للغاية قبل أن يلفظ آخر أنفاسه وعيناه مفتوحتان عن آخرهما، سقط جسده على الأرض صريعًا واختفى كل شيء فلم يعد هناك في الشرفة سوى جثة هامة غارقة في دماؤها.

- يجب أن نتحدث على الفور.

قالها السيد ليرون وهو ينظر بقلقٍ إلى مارية، وما هي إلا لحظات حتى كانت تجلس في مكتبه وهي تنظر بعدم فهمٍ إليه، وإلى ابنه السيد آدم، وقائد الحرس راكان.

جلس السيد ليرون على المقعد أمام مكتبه وقال بجدية:

- عزيزتي مارية، أخشى أن الأخبار ليست جيدةً أبدًا؛ لقد أصيبت والدتكِ بذلك المرض المنتشر في المدينة!

لم تنطق مارية ولم تذرف الدموع على الرغم من تعلقها بوالدتها وحبها الكبير لها، فقالت بعد بُرهةٍ بوجهٍ خالٍ من أي تعبير:

- وأين هي الآن؟

نظر إليها كلٌّ من الغرفة نظرات تعاطف وشفقة، بينما مارية ظلت ثابتةً أمامهم؛ مما أثار استغرابهم وتعجبهم.

أجابها السيد ليرون:

- إنها في العزل.

نهضت مارية من مقعدها ونظرت إلى راكان وهي تقول:

- هل بإمكانني أن أسافر إليها؟ لقد أخبرتنا من قبل ألا نخرج من القلعة أو ندخل إليها إلا بتصريحٍ منك!

أجابها راكان:

- لا بدّ أنكِ تتساءلين عما أفعله معكم في هذه الغرفة. أليس كذلك؟ حسنًا، إن الأمور سيئة للغاية يا آنسة، لقد سقطت سالتيورا في مستنقع من الشغب والعبث بعد تفشي المرض الغريب فيها؛ فجرائم

القتل أصبحت تحدث في الضواحي أيضًا حيث يعيش السكان الأصليون، وفي هذه اللحظة التي نتحدث فيها يحدث ما لم نرغب به أبدًا.

صمت قائد الحرس قليلًا، ثم أردف:

- تسببت حالة الهلع في المدينة بظهور بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم "فرسان الرب"، وهم مجموعة من الأشخاص الذين ينشرون بعض النبوءات والأخبار الكاذبة والشائعات عن أن نهاية العالم اقتربت، وأن هذا المرض المنتشر سوف يقضي على البشرية بأسرع ما يمكن؛ ولهذا السبب قام العديد من السكان الأصليين باقتحام العديد من متاجر الطعام والشراب ودور الشفاء، فتمت سرقتها جميعًا ولم تتمكن الشرطة من السيطرة على الأمر مع الأسف؛ ولهذا السبب فإنني ببالحزن والأسى أودك أن تعرفي أن رؤية والدتك سيتم تأجيلها حتى تهدأ الأمور قليلًا.

ظلت مارية تنظر إليه دون أن تنطق بحرف واحد حتى قطعت صمتها أخيرًا وهي توجه سؤالها للسيد ليرون:

- هل هذا يعني أنني أسيرة في القلعة؟

تنهّد السيد ليرون، ثم قال بهدوء:

- بالطبع لا، أنت أمانة والدك يا عزيزتي مارية، فأنت مثل آدم بالنسبة لي، وأخشى أن يحدث لك شيئًا ما؛ فأنت تعرفين أن معظم السكان الأصليين لا يضمرون الخير لنا في قلوبهم حتى وإن أخفوا ذلك، فما بالك وإن رأى أحدهم وجهك الجميل في المدينة، فماذا

تتوقعين أن يفعلوا بك؟

خانت الدموع مارية فأبت أن تنتظر في مقلتيها، قالت وهي تحاول أن تبدو قوية:

- هل حقًا لا تعرفون السبب في ذلك المرض اللعين؟ ألم تدّعوا أن سالتيورا هي رائدة العلوم في العالم بأسره؟ هل هذه كذبة أخرى يا سيد ليرون؟

مط السيد ليرون شفّتيه ورفع حاجبيه دهشةً مما سمعه، ولكنه يتفهم غضبها؛ لذا قال:

- أعلم أنك حزينّة وغازبة لعجزك عن رؤية والدتك، ولكنني أتفهم مشاعرك جيدًا يا عزيزتي مارية، ولأجيب عن سؤالك: تم اجتماع العديد من علماء المدن المجاورة مع علماء سالتيورا ووعدونا أن يبذلوا قصارى جهدهم في العثور على علاجٍ مناسبٍ لذلك المرض اللعين.

دخلت الخادمة وطلبت من السيد آدم أن يتوجه إلى الهاتف؛ لأن هناك من يرغب في التحدّث معه من الشرطة، امتعض وجه السيد ليرون وهو يقول:

- رُحماك يا إلهي! الشرطة لا تتواصل معنا إلا لإخبارنا بالأمور الكارثية فقط.

لم تحب مارية الكينمارو ذوي السلطة؛ فهي تراهم مستبدين ظالمين لجميع من حولهم، ولم تعتبر نفسها واحدةً منهم أبدًا، بل كانت ترى نفسها ضحيةً للقدر الذي جعل منها واحدةً منهم بالدم

فقط، فلم تكوّن صداقات كثيرة معهم لأنها تبغضهم؛ ولهذا السبب لم تتعاطف مع قلق السيد ليرون الذي تبدّى على مُحيّاه.

عندما عاد آدم قال بوجه مكفهر:

- لقد عثروا على السيد إيمار غارقًا في دمائه في شرفة غرفته المغلقة!

خيّم الصمت الثقيل عليهم فلم يجد أحدهم ما يقوله؛ فالأمور تزداد غرابةً وسوءًا في وقتٍ قصير. تذكّر السيد ليرون خوف السيد إيمار منذ ساعاتٍ وهو يتحدث عن رسالة التهديد التي عمر عليها في الزجاجة العائمة في البحر، وهو لم يكثر ث بل سخر منها؛ لم يكن من المعتاد أن يهتم السيد ليرون بشؤون الآخرين أو يشعر بالأسف تجاههم، ولكنه لام نفسه كثيرًا على عدم تصديق السيد إيمار عندما زاره وهو يرتجف من الخوف.

قال السيد ليرون لقائد الحرس:

- سيد راكان، هذه القلعة لم تعد آمنة، يجب أن نضاعف الحراسة استعدادًا لأي شيءٍ قادم.

أوماً راكان، ثم غادر الغرفة وتوجه إلى حراسه تاركًا السيد ليرون وابنه ومارية في المكتب يتحدثون عما يجب فعله في الأيام المقبلة. استأذنت مارية من الرجلين وتحججت بأنها تشعر بالدوار حتى تصعد إلى غرفتها، ولكنها لم تفعل؛ فعندما خرجت من المكتب توجهت على الفور إلى بوابة القلعة وسألت عن راكان ولكنه لم يكن في الجوار؛ شعرت مارية بالإحباط، فعادت إلى غرفتها ووقفت

في الشرفة تراقب الأفق أمامها. توهج نور القمر فوق مياه البحيرة وتلألأت الأضواء الساطعة من الضفة الأخرى لها، فهناك منازل السكان الأصليين تقف بتحدٍ وكراهية تراقبهم أجمعين.

أتى الصوت من بعيد خافتًا كالهمس ولكنه ارتفع شيئًا فشيئًا حتى أصبح لا يُحتمل، لم تكن همسات بل ترانيم مخيفة، وهي المرة الثانية التي تسمعها مارية؛ فأيقنت أنها يجب أن تتبعها كما فعلت في المرة السابقة حتى تعرف مصدرها. استدارت وخرجت من الغرفة لتجد القلعة كما توقعت غارقة في ظلام دامس. توجهت إلى المشكاة أمام غرفتها وهي تعلم بمكانها عن ظهر قلب، فأمسكت بالمصباح الذي كان بداخلها وأشعلته لتتفاجأ أن هناك شخصًا ما في نهاية الرواق يقف وهو ينظر إليها؛ يرتدي الرداء الأحمر القاتم وينظر إليها بوجهه المخيف الذي جعل نبضات قلبها تضطرب وتتسارع وهي تراه.

تعالَت أنفاسها وهي تحاول أن تلتقط أكبر قدرٍ من الهواء، ولكنها لم تتمكن من فعل هذا وكأن الهواء يأبى أن يدخل رئتيها. تقدّم الشخص المخيف ببطء نحوها فارتعشت يداها وكاد المصباح يسقط إلا أنها سرعان ما تماكنت نفسها، وقالت بصوت يرتعش من الخوف:

- ماذا تريد مني؟

تراجعت بضعة خطواتٍ إلى الخلف ودموع الخوف تنساب على وجنتيها، بينما تقدّم المقنع منها بصمتٍ وثباتٍ، عادت تسأله وصوتها الباكي يرتجف:

- من أنت بحق الإله؟

رفع الشخص الغامض سبابة يده اليمنى ووضعها على فمه في إشارة واضحة منه لأن تصمت مارية، التي حاولت أن تبحث عن أي شيء تدافع به عن نفسها ولكنها لم تجد. على الرغم من أنها حاولت ألا تفلت المصباح حتى لا يسقط على الأرض فإنها فشلت في هذا، حيث سقط من يدها وتهشم زجاجه فاشتعلت السجادة من أسفلها بسبب شعلة المصباح المكسور، فتأججت النيران بشكل غير منطقي ينافي العقل فتراجع الشخص الغامض إلى الخلف حتى وصل إلى نهاية الممر ومن ثم نزل الدرج.

حاولت مارية أن تخدم النيران، فنزعت عنها الرداء الأزرق التي كانت ترتديه فوق ثوب النوم وراحت تضرب النيران به حتى انطفأت أخيرًا وساد الظلام ثانية. جلست مارية على الأرض وهي ترتجف من الخوف فأجهشت في البكاء وانتحبت؛ لأنها لم تعد تحتمل ما يحدث لها، وما زاد اليلة طينًا أنها تذكرت مرض والدتها وعجزها عن السفر إليها، فظلت تبكي للحظات حتى سمعت أصوات خطوات أقدام تقترب منها.

نزع راكان معطفه ثم أحاطه بجسد مارية الجالسة على الأرض لا حول لها ولا قوة وقال:

- آنسة، هل أنت بخير؟ لقد أخبروني أنك تودين التحدث معي في أمر هام.

بمجرد ما إن سمعت صوته حتى انفجرت في البكاء وهي تومئ بالنفي، ثم قالت:

- أنا لست بخير أبدًا يا سيد راكان، لا بد أن أرى والدتي.

أمسك راكان بيدها وساعدها على الوقوف، ثم مسح دموعها وقال بهدوء:

- أعلم أن الوضع مؤلمٌ بالنسبة إليك، ولكنني أخشى أن يحدث لك شيئًا ما.

قالت وهي تبكي بحرقة:

- أتوسل إليك، يجب أن أراها؛ لا بد أن أراها يا سيد راكان، ولسوف يكون هذا معروفًا أدين لك به طوال حياتي.

إنها المرة الأولى التي يشعر فيها راكان بهذه المشاعر الغريبة نحو شخص من الكينمارو، فهو القائد الصارم الذي وهب حياته بأسرها لحماية قلعة تيلارين، وهو أيضًا الشخص ذاته الذي كره الكينمارو كثيرًا على الرغم من أن والده واحدٌ منهم، ولكن راكان كان يفكر بعقله لا بقلبه، ولهذا السبب عزم على العمل مع الكينمارو والاختلاط بهم بدلًا من كراهيتهم في الخفاء، فإن مشاعره هذه لن تفيده في شيء، بينما التقرب منهم والعمل معهم سيعود عليه بالمنافع والامتيازات الكثيرة. وها هو الآن يقف أمام مارية عاجزًا عن السيطرة على مشاعر الشفقة والحزن على ما أصابها.

قال كالمسحورين:

- حسنا، أعدك أنني سأصحبك إليها بنفسني، ولكن هذا سيبقى سرًا بيننا، اتفقنا؟

أومات وهي تبسم بخجل، ثم قالت:

- لن أنسى ما فعلته من أجلي أبدًا.

تركها وتوجه إلى بوابة القلعة وهو يفكر فيما أقحم نفسه فيه، فإن علم السيد ليرون أنه سمح لها بالذهاب لرؤية والدتها، فلن يمر الأمر مرور الكرام أبدًا، بل من الممكن أن يتسبب في أذيته، ولكن قلبه يشفق على حالتها على الرغم من أنه يكره والدها الحاكم الظالم، ولكن قلبه أبى أن يكره ابنته الرقيقة.

عندما رأى أحد الحراس قائده تقدّم منه وقال:

- تم تأمين محيط القلعة والبحيرة يا سيدي، كما أمرت.

كانت البحيرة تفصل حي المصانع عن قلعة تيلارين، وعلى الرغم من أن القلعة قد تبدو من هذه الجهة غير مؤمنة إلا أن راكان كان يقوم بدوره على أكمل وجه، فالعديد من الحراس يقفون على ضفة البحيرة لردع أي زورق أو دخيل يفكر في الاقتراب. فتحت بوابة القلعة ودخلت إحدى العربات بعد التفتيش، ثم توقفت لتهبط منها امرأة شابة في عقدها الثالث، جذابة لها جسد ممشوق، وشعر كستنائي، وعينان زرقاوان كلون السماء، ترتدي ثوبًا أبيض اللون وفوقه معطف أسود، تقدّمت من راكان فور رؤيته، قالت بدلال:

- ما زلت وسيقًا كما أنت يا سيد راكان.

تفاجأ راكان برؤيتها، بل تفاقم اندهاسه لأنها أتت في وقت غريب، ليس متأخرًا فقط بل إن المدينة تشتعل بالشغب والفوضى وعلى الرغم من هذا فهي تقف أمامه الآن، وهو من ظن أنه لن يراها مرة أخرى.

قال بابتسامة مصطنعة:

- مرحبًا بك أنسة غزل.

كانت غزل حبيبته السابقة، وهي ابنة شقيقة السيد ليرون الراحلة، وكانت تدرس الفنون في إحدى المدن المجاورة، ولكنها سأمت المدينة الأخرى وشعرت بالحنين إلى سالتيور. لم تجمعها مع راكان علاقة عشق قوية، أو هكذا ظن راكان، ولكنها كانت تعشقه بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وعلى الرغم من هذا فاختلاف طباعهما يحول دون المضي قدمًا في علاقة محكومًا عليها بالفشل كما كان يعتقد راكان، وها هي الآن تقف أمامه بجمالها الجذاب تنظر إليه النظرات نفسها، بينما غزل لا تعني له شيئًا.

تبادل الاثنان الحديث لوقتٍ قليلٍ قبل أن تتركه غزل وتدخل القلعة، حيث كان خالها ينتظرها في مكتبه. أخبرته غزل بكل ما حدث في المدينة التي كانت تدرس فيها، فأخبرها بدوره بكل ما فاتها من أحداث، اتفق السيد ليرون مع ابنة شقيقته أن تعلم أطفال الميتم فن الرسم فهي بارعة فيه، فلم ترفض ورحبت بالأمر.

قالت بابتسامة ساخرة:

- ما تفعله هنا هو شيءٌ جديرٌ بالاحترام والتقدير يا سيد ليرون.

- نعم، أنا رجلٌ محبٌ للخير كما تعلمين.

نهضت وتوجهت إلى النافذة لتراقب راكان، ثم سألت خالها بجدية:

- تقول أن ابنة الحاكم تعيش معنا الآن، هذا أمرٌ ممتع حقًا.

نهض السيد ليرون ووقف بجانب ابنة شقيقته، ثم قال وهو ينظر إلى راكان:

- أرجو ألا تتسببي في مشكلة بيني وبين والدها؛ فهي فتاة رقيقة القلب لن تحتمل مزاحك.

طبع قُبلةً فوق جبينها ثم غادر الغرفة، وتركها لتراقب راكان وهو يتحدث مع إحدى حراسه. انطفأت الأنوار في القلعة ومحيطها، حتى أن حي المصانع بدا مظلمًا من الجهة الأخرى للبحيرة، فتوقعت غزل أن من قطع الأنوار هي الشرطة حتى تسيطر على حالة الشغب والتطرف في المدينة. توجهت إلى المكتب وأمسكت بالمصباح الذي كان مشتعلًا من قبل، ثم خرجت من الغرفة.

غرقت القلعة في ظلام دامس فتجمعت خطوات الأقدام المضطربة في مكان واحد، بينما تسمرت غزل مكانها وهي ترى ضوءًا أزرق يأتي من إحدى النافذات في البهو. تقدّمت ببطء من النافذة وهي تمعن النظر في ذلك الضوء المتصاعد من ناحية شاطئ البحر في جنوب القلعة، كان شاطئ البحر يبعد عن القلعة نحو مائتي متر، ولهذا فإن رؤيته من القلعة لم تكن عسيرة عليها. انبعث الضوء الأزرق من البحر وليس الشاطئ، وكانت رؤية البحر والشاطئ يسيرةً بعض الشيء، فلا وجود لمنازل في محيط القلعة لتعيق رؤيتهما.

تعجبت غزل وهي ترى الأضواء تتراقص في سماء سالتيور، والأغرب هو قدومها من البحر فظلت تراقب تلك الأضواء وهي تتذكر مشاهد لها استحضرتها عقلها وأتى بها من دهاليز ماضيها

البعيد؛ لقد وُلدت ونشأت في القلعة وعاشت حياتها بأكملها هنا، ولكن عقلها يختزن بداخله ذكريات كثيرة لم تجد لها تفسيرًا، وما أثار حنقها واستغرابها هي تساؤلاتها الكثيرة لكل ما تراه ولكن لا أحد كان يروي ظمأ فضولها.

استدارت عندما سمعت صوت أقدام تأتي من خلفها، فإذا بالخادمة تنحني وتقول:

- غرفتك جاهزة سيدتي.

نظرت غزل إليها ثم عادت تنظر إلى الضوء القادم من البحر وسألتها بحماس:

- هل ترين ذلك الضوء الأزرق القادم من البحر؟

نظرت الخادمة إلى حيث أشارت فلم تجد شيئًا؛ ولذلك شعرت بالخوف قليلًا فربما أصيبت غزل بذلك المرض المنتشر، فقالت بتردد وهي تنظر إلى الأرض أسفلها:

- لا أدري سيدتي، إن رؤيتي أصبحت ضعيفة للغاية في الآونة الأخيرة، حتى أنني كنت أرغب في زيارة الطبيب.

قاطعتها غزل وهي تتأفف:

- حسنًا، فهمت، بإمكانك الذهاب الآن.

غادرت الخادمة وهي منكسة الرأس، بينما ظلت غزل تراقب الضوء الأزرق الذي عاد في الظهور مرة أخرى وكأنه يتحداها فلا يريد لأحد سواها أن تراه.

مرح

نظرت المرأة لي وقالت بعينين مبتسمتين:

- مرحبًا بك في سالتيوراء.. المظلمة!

لم تبالغ المرأة في وصفها للمكان؛ فهو مظلم إلا من مصباح باهت معلق على الجدار على يساري. نظرت حولي فتفاجأت أنني أقف في طريق واسع إلى حد ما تراصت الحوانيت على جانبيه، ولكنني لم أعلم ماذا يبيعون فيها بالضبط؛ فزجاج بعضها محطم افتрشت شظاياها الأرض المبلطة، والمكان بالداخل مظلم للغاية. أما الحوانيت الأخرى، فهي مغلقة ولا يوحي أي شيء بما تبيعه فلا وجود للافقة ولا وجود لأي شخص فيها. كان المكان مطلقًا وباردًا يسوده الضباب كما في الأعلى، ولكنه هادئ للغاية بشكل يثير الريبة.

استدرت وسألتها وقلبي ينبض بقوة في صدري:

- أين نحن بالضبط؟

- أخبرتك أننا في سالتيوراء المظلمة، ظننت الإجابة واضحة.

كدت أن أفتح فمي لأسألها مرة أخرى عما سنفعله، ولكنني لم أنطق بكلمة عندما رأيت شخصًا ما يرتدي الملابس نفسها كالمرأة التي تصاحبني، ولكن من هيئة جسده أظنه رجلًا ولم أخطئ في هذا، فقد قال وهو يستلم ورقة صغيرة من المرأة:

- لماذا تأخرت يا امرأة؟ الكينمارو الأول يسأل عنك.

ارتسمت ملامح الفرع والارتباك على وجهها، فقالت وهي تنظر إلى

الأرض:

- أعتذر منك سيدي، فهذه الحمقاء هي السبب في تأخري.

نظرت إليها باعتراض، وكنت على وشك أن أفتح فمي إلا أن الرجل أمسك بيدي بقوة واقتادني غنوة ودون مقاومة مني إلى نهاية الطريق، حيث كانت بوابة حديدية كبيرة تنتظر كالوحش السرمدى. ما إن وصلنا إليها ترك الرجل يدي وقال وهو يتحدث مع شخصين آخرين يقفان أمام البوابة لحراستها على ما يبدو:

- هذه مكان الفتاة الأخرى. أما بالنسبة لتلك الفتاة الحمقاء فالكينمارو الأول يرغب أن تذهبوا إليها لتولي أمرها.

تبادلث النظرات معهم وأنا أحاول أن أفهم ما يجري وما عنوه بتولي أمر الفتاة الأخرى، ولكنني لا أحتاج إلى ذكاء خارق لكي أعلم أنهم يتحدثون عن أسيل التي لم ترغب في القدوم إلى هنا.

لم أنتبه لما قاله الرجل للمرأة؛ لأنني انشغلت بمراقبة المكان من حولي؛ كنت أقف في ساحة واسعة بها منازل صغيرة متراسة بجانب بعضها البعض، يقف أمام كل منزل منها شخصان يرتديان الملابس نفسها كالمرأة، ولكن الغريب في الأمر هو اللافتات التي رأيثها أمام كل منزل منها، فهناك لافتة رُسم عليها مجموعة من الأطفال الصغار المبتسمين، ولافتة أخرى رُسم عليها مجموعة من الأطفال الباكين، وهناك لافتة رُسم عليها أغلال معدنية، ولافتة أخرى رُسم عليها حيوانات، وفي نهاية الساحة وفي الجهة المقابلة مني بالتحديد استقر هناك قصر أسود كبير أنارته المصابيح الملونة؛ فسرت قشعريرة في جسدي لا أدري سببها.

قال الرجل الذي اصطحبني إلى البوابة:

- هلم الآن، فأنت متأخرة بالفعل.

سرت معه بلا صوت، فلم يكن هناك بجعبتي ما يُقال حتى وصلنا إلى القصر الأسود. توقف وأمرني بالدخول دون أن يشرح لي طبيعة العمل، ثم تركني كطفل يتييم هجرته أمه، ظننت أنني سمعت صوت صراخ قادمًا من أحد المنازل خلفي؛ فاستدرت وأنا أتنفس بسرعة من فرط الخوف، ولكن الصوت اختفى فجأة فدخلت إلى القصر لأتسمر مكاني من المفاجأة عندما رأيته أمامي.

رأيث زوج شقيقتي السابق، وعلى وجهه أقبح نظرات الشماتة والسعادة التي من الممكن أن أراها في حياتي! توقفت مكاني أتطلع إليه وعلى وجهي ارتسمت أشد نظرات الغباء، فما الذي يفعله السيد يوسف في هذا المكان المريب بالضبط؟ يبدو أنه قرأ أفكاري حيث أجاب قائلًا وهو يفتح ذراعيه:

- مرحبًا مرح، لم أتوقع أن أراك هنا، ولكنني لست مندهشًا فأمالك ينتمون إلى هذه الأماكن. على كل حال، أنا من أدير هذا القسم من المدينة، هناك أقسام أخرى كما تعلمين، ولكن هذا القسم مختلف عن بقية الأقسام الأخرى؛ فالمال هنا مضاعف يا عزيزتي.

عبس وجهي وأنا أنظر إليه باشمئزاز وحنق، فتبدلت ملامح وجهه على الفور وقال بلهجة أمرة:

- هيا تحركي، السادة ينتظرونك.

سألته بوجه مكفهر:

- عنن تتحدث؟ وما الذي سأفعله هنا بالضبط؟

مظ شفتيه ثم تنهد وقال:

- هل هذه هي المرة الأولى لك في سالتورا المظلمة؟ لقد ظننت أنك عملت في إحدى الحوانيت.

سألته بحدّة:

- هل من الممكن أن توضح لي رجاء طبيعة هذا المكان؟

ارتسمت ملامح خيبة الأمل على وجهه، ولكنه أجابني:

- مرح، لأجل الأيام الخوالي فقط سأوضح لك كل شيء، ولكنني أحذرك أن أي حرف سيخرج من هنا سوف تعاقبين عليه؛ هؤلاء الأشخاص لا يتفاهمون، كما أنني يجب أن أذكرك بأن التراجع لم يعد مطروحاً على الطاولة.

سقط قلبي في جوفي فلم أعد أشعر به ينبض بداخلي، لمحث طفلة صغيرة مقيدةً بأغلالٍ من حديدٍ يمسك طرفها رجلٌ يرتدي الرداء الأسود المميز وعلى وجهه الوشاح الأسود الذي أخفى ملامحه جيّداً، ولكن الطفلة كانت تبكي وتصرخ بينما الرجل يركلها فتزداد صرخاتها. لم أحتمل المشهد فكذت أن أصرخ في وجهه إلا أن السيد يوسف أمسك بذراعي بقوةٍ وقادني إلى ركنٍ قريب، ووضع يده على فمي، ثم قال:

- اسمعيني جيّداً؛ هذا المكان ليس كما تعتقدين إن من يتردد إلى هنا هم الثّخبة، فلا ترتكبي أي حماقةٍ لأنك سوف تواجهين العواقب

الوخيمة بمفردك. وإن أردت نصيحتي، فلا تتدخل في ما لا يعنيك ولا تتحدثي مع أحد، ومهما ترين لا تفتحي فمك الجميل هذا. امضي الليلة حتى الصباح وكأنك جماد متحرك يفعل ما يؤمر به فقط، لا أسئلة ولا أي شيء يؤدي إلى خروجك من هنا إلى قبرك مباشرة!

كنت أتنفس بسرعة جنونية وكأنني أعدو في سباق طويل للجري، أبعد يده عني أخيرًا فالتقطت أنفاسي وحاولت أن أهدأ. نادى السيد يوسف على إحدى الرجال ولم يكن يرتدي الرداء الأسود أو يخفي وجهه بالوشاح، بل كان يرتدي ملابس عادية معه، ثم طلب منه أن يصحبني إلى المطبخ.

عندما وصلت إلى المكان المنشود، رأيت فتيات في مثل عمري أو أصغر قليلًا، وهناك امرأة وحيدة في العقد الخامس من عمرها يبدو أنها المسؤولة في المطبخ.

ما إن رأيتني قالت بوجهها الصارم الذي يشبه وجه البوم:
- ما اسمك؟

أجبثها بصوت متردد خافت:
- م.. م.. مرح يا سيدتي.

صفعتني بقوة! ثم قالت وهي تمسك بأذنها وتقربها مني:
- لم أسمع يا عزيزتي، ماذا قلت؟

كانت الصفعة غير مبررة وقوية بشكل مفاجئ فلم أتوقع أن تعاملني هكذا، أنا لا أعرفها حتى فلماذا هذه القسوة؟! كانت الأسئلة

تدور في عقلي فكدت أن أجنّ وأنا أفكر فيما أقحمث نفسي فيه. يا
لغبائك يا مرح!

عادت المرأة تسأل بعصبية والفتيات الأخريات يراقبن المشهد في
صمتٍ وخوف:

- ما اسمكِ؟

أجبثها دون تفكير وبصوتٍ أعلى من ذي قبل:

- مرح يا سيدتي.

قالت بطريقتها المخيفة:

- والآن يا مرح، سوف تذهبين إلى القاعة رقم اثني عشر ومعكِ
هذه العربة.

أشارت المرأة إلى عربة طعامٍ وُضع عليها ما لذّ وطاب إلى جانب
زجاجات النبيذ على ما يبدو. توجهت إلى حيث أشارت، ثم وقفت
أمام العربة منكسة الرأس أفكر فيما ورطت نفسي فيه وأدعو الإله
بداخلي أن ينقذني من هذا المأزق المرعب، ولكن كيف يكون ذلك
الإنقاذ الذي أنشده وأنا من أقحمث نفسي فيه بمحض إرادتي؟

أعطت المرأة المخيفة تعليماتها إلى الفتيات الأخريات؛ فوقفن
جميعهن بجانب عربات الطعام المحددة ينتظرن ما ستأمر به تاليًا.
انطلقت صرخاتٍ مدوية من خارج المطبخ؛ فانتفضت في مكاني في
هلعٍ وأنا أتخيل ما يحدث لتلك الفتاة التي تصرخ بالخارج.

قالت المرأة بحدّة:

- استمعن إليّ جيّدًا، لن أكرر ما سوف أقوله، فأنصتن بعناية.. ستطرقن الأبواب ومن ثمّ تدخلن إلى القاعات وأنتن تنظرن إلى الأرض، ستبدأن في تقديم الطعام إلى الثّخبة وسوف تضعن كؤوس النبيذ أمامهم وأنتن تنظرن إلى أقدامكن. إن تحدّث أحدهم معكن فمسموخ بالإجابة وإن لم يتحدّث فلن نسمع كلمة منكن على الإطلاق! ومهما رأيتم في تلك الغرف فلن تصدرن صوتًا ولن تتدخلن أبدًا. هل هناك من ترغب في أن أعيد الكلام على مسامعها مرّة أخرى؟

أنهت كلامها وهي تمذرقبتها مننا كالأفعى منتظرةً الإجابة التي يرغب الجزء السادي بداخلها أن يسمعها لتنقض برائنه علينا، ولكننا كنا أذكى منها هذه المرة فلم تجرؤ واحدة مننا على الهمس.

قالت المرأة وهي تبتسم:

- والآن، اذهبن.

دفعث العربة إلى البهو الواسع، فرأيت السيد يوسف ثانيةً وهو يبتسم لي ابتسامته المزعجة فتجاهلته وتوجّهت إلى القاعة رقم اثني عشر في الطابق الثاني للقصر. فتحت القاعة فأتسعت عيناى من هؤل ما رأيث؛ هناك عددٌ من الأشخاص الذين يرتدون الرداء الأسود ويضعون الأوشحة السوداء التي أخفت وجوههم عدا أعينهم الزرقاء والرمادية المميزة للكينمارو، كانوا يجلسون في قاعة تشبه المسرح كثيرًا، فهم يجلسون على مقاعد مرتفعة قليلًا عن المنصة الخشبية التي بالأسفل.

وقف ثلاثة رجال من السكان الأصليين مصلوبين على أوتارٍ

خشبية فوق المنصة وهم ينزفون الدماء التي راحت تتساقط في مشهد مثير للغثيان. كان الكينمارو أو الثخبة كما أطلقت المرأة المخيفة عليهم يجلسون بأريحية فوق المقاعد المريحة على ما يبدو، وكان بعضهم يمسك بغليون تبغ تفوح منه رائحة كريهة للغاية لا تشبه رائحة التبغ المعتادة التي اعتدت شمها وأنا أجلس مع السيد يوسف في منزله قبل أن يترك شقيقتي، بل كانت الرائحة لا تُحتمل. سكبث النبيذ في بعض الكؤوس كما أخبرتني المرأة، ثم اقتربث من أحد الكينمارو ووضعت الكأس أمامه، فأمسك بيدي فتجمدت مكاني ولم أتحرك.

قال وهو يضغط على يدي برفق:

- أنت جميلة للغاية.. ما اسمك؟

أجبته بصوت يرتجف من الهلع:

- م.. مرح سيدي.

ظل ممسكًا بيدي لبرهة من الزمن حتى تركها أخيرًا، فتنفست الصعداء وسرث نحو الشخص الثاني لأضع الطعام أمامه. لم أنتبه في بادئ الأمر إلى ما كان يحدث بالأسفل فوق المنصة الخشبية، ولكنني انتبهت بعدها عندما سمعت صرخات تصدر عن أحد الرجال المقيدين فأدرث رأسي نحوه لأسمعه يقول:

- لن أفعل، قلت لكم من قبل أنني لن أفعل.

نهض الرجل الذي أمسك بيدي منذ قليل، ثم توجه إلى صندوق أسود يبعد عنه بمسافة قصيرة ووقف بجانبه ليضع كلتا يديه فوقه،

ثم قال:

- من يقفون بالأسفل الآن هم من غُصبة الأحرار، تسبب واحد منهم في قتل قائد الجيش السابق، فلتترقد روحه في سلام. والآن، عشرون ألف عملة ذهبية يراهن بها الكينمارو الأول على أن ذلك الرجل...

أشار إلى واحد من الأشخاص المصلوبين بالأسفل، فالتفتت الرؤوس إليه ثم استطرد قائلاً:

- أن ذلك الرجل سوف يختار قتل شقيقه مقابل حرّيته!

كنث ممسكةً بكأس صبيث فيه الخمر، ولكنه وقع من يدي عندما سمعتُ ما قاله الرجل فالتفتت جميع الرؤوس نحوي؛ ارتجف جسدي من الخوف وأنا أنظر إلى أعينهم وهي تراقبني بصمت، فتراجعتُ بضع خطواتٍ إلى الخلف حتى نهض واحد من الكينمارو يبدو أنه مخمورٌ وقال:

- هذه العاهرة تخصني الليلة.

احتشدت الدموع في مقلتي، ثم تساقطت وأنا أومئ بالنفي، قلث بصوتٍ منخفض:

- لا.. أتوسل إليكم.. أرغب في الرحيل.

نهض واحد آخر من الكينمارو ثم تحسس جسدي، بينما وقفتُ أمامه وأنا أنتفض من الخوف والهلع ودموعي تنساب على وجنتي أنهارًا، قال واحد من غُصبة الأحرار:

- اتركها أيها الضيع!

صاح الرجل الذي يقف بجانب الصندوق غاضبًا:

- اتركها الآن وإلا قطعث رأسك أمامهم أجمعين! إنها لي وحدي.

انهرث من البكاء وجلسث على الأرض أنوح وأتوسل إليه أن يتركني أرحل، ولكنه تجاهلني ثم أردف قائلاً لأحد الرجال المصلوبين:

- والآن أيها الصعلوك، ماذا سوف تفعل؟ هل تقبل بقتل شقيقك مقابل حريتك أم ترفض فنمرر العرض إلى شقيقك وتموت؟

قال الرجل المصلوب بوهن:

- مرر العرض إليهما كما تشاء، فلن يختار أحدٌ منهما أن يقتل شقيقه. ماذا ستفعل حينها؟ ستخسر رهانك أمام الجميع؟

أجابه الرجل بجانب الصندوق وهو ينظر لي:

- نحن لا نخسر يا عزيزي. حسًا، إليك الأمر، إن لم تقتل شقيقك الآن، سوف أمزق ثياب تلك الفتاة الجميلة هناك ولسوف نتناوب في الاعتداء عليها واحدًا تلو الآخر. ما رأيك الآن؟

بمجرد ما أن سأل سؤاله صاح الرجال بحماس وتعالّت أصواتهم، بينما ازداد نواحي وهلعي وأنا أتوسل إليهم ليدعوني وشأني ولكنهم لا ينصتون. عاد الرجل بجانب الصندوق يقول بتحد:

- نحن ننتظر يا عزيزي، ماذا سيحدث في الدقيقة التالية؟ هل نعتدي عليها مقابل حريتك أم تقتل شقيقك؟

نظر إليه الرجال المصلوبين بحقدٍ وغلي فخيم الصمت على المكان
إلا من صوت بكائي، فالتفتت بعض الرؤوس لي بينما استسلمت
للحزن والخوف فلم أتحرك من مكاني. قال أحد الرجال المصلوبين
مخاطبًا الرجل بجانب الصندوق:

- عندي لك اقتراح آخر؛ ما رأيك أن تختار واحدًا منكم ليقتلنا في
مقابل تحرير تلك المسكينة؟

قهقه الرجال وتعالى ضحكاتهم المفزعة في المكان، ورمى بعضهم
بزجاجات النبيذ الفارغة نحو الرجال المصلوبين؛ فأصابت إحداها
رأس واحدٍ منهم فنزفت الدماء منه على الفور.

وقف أحد الرجال المغمورين وقال وهو يترنح:

- مُملٌ.. أين الإثارة إن قتلناكم نحن؟ ولكن تخيل معي مدى
شعورنا بالنشوة إن قاتلتم بعضكم البعض أمامنا.. يا للمتعة!

صاح الرجل الواقف بجانب الصندوق:

- أو.... نختار أحدًا منا ليقتل واحدًا منكم ببط وبوحشية، بينما
يشاهد الآخرون ما يحدث، ما رأيكم؟

انتظر الرجل لحظاتٍ معدودات، وعندما لم يتلقَ ردًا من الرجال
المصلوبين صاح ثانيةً وهو يقول بطريقةٍ مرعبة:

- حسنًا، الصمت علامة القبول، أليس كذلك؟ أين يوسف؟

خرج واحدٌ من الأشخاص الذين يحرسون الثُخبة إلى الخارج ثم
عاد ومعه يوسف. ما إن دخل يوسف ورآني على الأرض ابتسم

بشماتة للمرة الثانية، ثم انحنى إلى سيده فقال الأخير:

- اذهب إلى المنصة وقف أمام الصعاليك.

فعل يوسف ما أمر به، فوقف أمام الرجال المصلوبين فبصق واحد منهم على وجهه، ثم قال باشمئزاز:

- كلبٌ خسيس.. عبدٌ ذليل.. خائنٌ للعهد والأرض. هل الأموال التي تقاضيتها مقابل الوشاية بنا سدت تلك الفجوة الكبيرة في قلبك الأسود؟ هل تنام على وسادتك ليلاً وأنت تشعر بالارتياح؟

مسح يوسف آثار اللعاب على وجهه، ثم قال وهو يبتسم:

- في واقع الأمر إن من يُشعرنى بالارتياح ليلاً هي أمك يا عزيزي.

صاح الرجل في وجه يوسف صيحة غضبٍ وحنقٍ وكرهٍ لا آخر له، بينما تعالت قهقهات مستفزة من الكينمارو الذين راحوا يصفقون ويهللون في إعجابٍ لرد يوسف الذي أردف:

- رائحتها تجعلني منتشياً كما لو كنت أستنشق غليون الجنة. هل جربته من قبل؟

ضحك الرجل المصلوب والدم يتساقط من فمه ثم قال بحسرة:

- الجنة؟ تلك التي لن تشموا رائحتها ولو بعد ملايين السنين؟

وقف أحد الكينمارو وقال مخاطباً الرجال المصلوبين:

- عجبث لكم معشر السكان الأصليين! لماذا تعتقدون أن الجنة حكرٌ عليكم؟

قال الرجل الواقف بجانب الصندوق بعصبية:

- كفى، والآن يا يوسف، لقد وضع القصر الأسود رهائنًا مقداره عشرون ألف عملة ذهبية في هذا الصندوق مقابل أن تقتل الصعلوك الأول ثم تُطعم الصعلوك الثاني بقطعة من جسد الأول. هل أنت جديرٌ بالتحدي؟

- بالطبع سيدي.

قالها يوسف وهو ينحني، ثم أخرج من جيب شترته خنجرًا لامعًا وبحركة واحدة وبسرعة لا شك فيها ذبح رقبة الرجل الذي لم يفتح فمه ليعترض، بل ابتسم للموت وكأنه صديقٌ قديم.

صاح أحد الكينمارو المغمورين:

- ممل.. ميتة سريعة مريحة.. مقرف.

تجاهله يوسف وأكمل ما بدأه فقطع قطعة من ذراع الأسير المذبوح أمامنا كالدجاجة، ثم توجه إلى الأسير الثاني وقال وهو يُقرب قطعة اللحم منه ويضعها بالإكراه في فمه:

- تذوّق يا عزيزي، لا بدّ أن مذاقها جيد.

رأيت الدموع المناسبة على وجنتي الرجل البائس فاعتصر الألم قلبي؛ لذا بكيت كما لم أبك من قبل وأنا أشاهد ما يحدث مع رجل من الممكن أن تكون الدماء التي تسري في عروقي هي نفسها التي ارتوت المنصة الخشبية بها منذ قليل، ولكنني لن أعرف ذلك أبدًا.

حاول الرجل أن يتملص ويغلق فمه قدر ما استطاع، ولكنه فشل

حينما تلقى بعض اللكمات القوية في فكه طارت بسببها بعض السنون والأنياب للأسير؛ فاضطر تعيس الحظ أن يفتح فمه ليتأوه من فرط الألم فانتهاز يوسف الفرصة ووضع قطعة اللحم في فمه.

ثارت معدتي وكنت على وشك أن أتقيأ من بشاعة المشهد ولكنني أبعدت أنظاري عنهم؛ حتى لا أقحم رأسي في متاعب أخرى، سمعت يوسف يقول بعصبية:

- هل مذاقها سيء إلى هذه الدرجة التي تجعلك تبصقها هكذا؟ هل أطهوها لك؟

يُقال أن قهر الرجال عظيم، ولم أصدق هذه المقولة إلا عندما رأيت الأسير يبكي على ما يحدث لهم؛ ذل وهوان وعجز، لا بد أنه يشعر بهذه المشاعر القاتلة ولكنه يعبر عنها بصمته تارة وبصراخه وبكائه تارة أخرى.

صاح الرجل الواقف بجانب الصندوق:

- والآن يا يوسف، ماذا نفعل مع ذلك الأحمق؟ هل نقتله أم نعذبه أولاً؟

أجابه يوسف وهو يبتسم بمكر:

- القتل السريع رحمة لا يستحقونها، سأختار التعذيب أولاً.

تقدم أحد الحراس وهو يحمل حقيبة مصنوعة من جلد الحيوانات ووضعها أمام يوسف، الذي ما أن رآها فتحتها وأخرج منها أدوات التعذيب الخاصة به على ما يبدو، وهكذا مرت الدقائق الثقيلة عليّ وأنا مرغمة على سماع صرخات الرجل المسكين وبكائه تارة

وضحكات الكينمارو المستفزة وتهليلاتهم؛ تشجيعًا للسيد يوسف الذي كان يجيد عمله بحق تارةً أخرى. ما إن سكت الرجل المصلوب، تأكّدت أنه فارق الحياة، ولم أكن مخطئة؛ فالرجل الواقف بجانب الصندوق صاح قائلاً:

- والآن، لقد اقتربت الأمسية على الانتهاء، وشارفنا على توديع المتعة، لم يتبقّ سواك الآن. سأضع الاختيار بين يديك، إما أن تجلس على الأرض وتقطع قطعةً من لحمها وتأكلها أمامنا وأنت تنبح كالكلاب الضالة أو....

توقّف الرجل عن الكلام وأشار إليّ ثم استطرد قائلاً:

- كما سمعتني من قبل؛ سوف نتناوب الأدوار للانقضاء عليها ولسوف تشاهد هذه الشابة الصغيرة وهي تُغتصب ويُنتهك عرضها أمامك مقابل جائزة بسيطة منّا ألا وهي إطلاق سراحك! هذه الفتاة التي أتت إلى هنا بمحض إرادتها؛ بحقًا عن المال والعراء السريع والتي لا تختلف عن يوسف في شيء؛ فكلاهما ينحدران من الشجرة الخبيثة نفسها، كلاهما باعا الأرض لنا، كلاهما تنفسا عبير المال وأذمنا رائحته، كلاهما رفع الراية البيضاء ولم يقاوما معك أنت وقومك، فهل تستحق هذه الفتاة أن تجبرك على أكل لحم أخويك الميتين؟ هل تستحق أن تضحي بمبادئك وشعورك بالوطنية كما تدّعون وترضخ لنا نحن الكينمارو؟

كان الرجل المصلوب ينظر لي بحقدٍ وكراهية فنبض قلبي في حلقي؛ لا بدّ أنه سوف يختار أن يتم الاعتداء عليّ في سبيل إطلاق سراحه كما وعدوه من قبل. ولم لا؟ لسوف أختار حريتي إن كنت

مكانه.

قال الأسير الأخير بعد بُرهة:

- لقد انتهكتكم عرض نساءنا في الماضي، واغتصبتكم حقوقنا في امتلاك الأرض والعيش فوقها، والآن ترغبون في الاعتداء على تلك الفتاة الضعيفة، أليس كذلك؟

ضحك الرجل الواقف بجانب الصندوق، ثم قال:

- نعم، هذا ما نرغب فيه بالضبط، يا لذكائك الخارق!

ابتسم الأسير بمرارة، ثم قال بتحدٍ:

- أطلقوا سراحها وسوف أفعل ما تأمرون به.

يا للسماء! هل رضخ للتو لمطالبهم؟ هل يثق بهم إلى تلك الدرجة التي تجعله يأكل لحم أخويه في سبيل إطلاق سراحه؟ كيف تأكد أنهم سوف يطلقون سراحه حقًا وأنهم لن يصحبوني إلى خارج القاعة ليتم حبسي في مكان آخر؟ من الواضح أن الرجل المسكين لم يعد به عقل يفكر به.

تقدّم أحد الحراس مني وأمسك بذراعي بعنف فنهضت مرغمة، ولكنني كدت أن أتعثر وأسقط على الأرض ثانية فأسندت يدي على إحدى المقاعد حتى أستعيد توازني، وبينما أفعل هذا ألقيت نظرة أخيرة على الرجل المسكين وهو يقطع قطعة صغيرة من فخذ شقيقه الميت ثم يضعها في فمه وهو يبكي ويتساقط مخاطه على فمه في مشهد لن أنساه ما حييت.

خرجت أخيرًا من القاعة المتوحشة، وتركت ذلك الكابوس اللعين وراء ظهري على أمل مزيف ألا تطاردني أشباحه في منامي ليلاً، ثم أسرعْتُ إلى باب القصر الكبير، ولكنني استدرتُ لأرى ما يحدث بالخلف عندما سمعتُ صرخات بعض الفتيات اللاتي كنَّ معي في المطبخ وهن يتشاجرن في مشهدٍ مهين مخزٍ على أكياس العملات الذهبية الملقاة على الأرض، وكأنها فُتات خبزٍ أُلقيت في قن الدجاج. هناك فوق الأرض الرخامية تستقر وسيلةٌ سهلة للوصول إلى حلمي الذهبي، ولكن هل يستحق الأمر العناء حقًا؟!

مارية

وقفت بجانب إحدى النوافذ في الميتم، أنظر إلى راكان بعد انتهاء اليوم الدراسي الذي أصابني بالآلم لا مثيل له في مقدمة رأسي. لمحت امرأة لم أرها من قبل تقترب منه، وتتحدث معه وكأنهما حبيبين فاشتد الألم في رأسي، أو قلبي على ما يبدو. لم أعد أعرفني؛ فمنذ وصولي إلى هنا وأنا أشعر بأشياء لم أتوقع أن أشعر بها من قبل، وأرى أشياء لم أتخيل أن أراها أبدًا.

أكره هذا المكان، وإن ما زاد من اليلة طيئًا هو انتشار تلك الحوادث المثيرة للشغب في المدينة الضبابية؛ فلم يعد أحد منا قادرًا على مغادرة مكانه؛ فخارج المدينة ينتظرنا سكان غابة الأحرار على أمل أن تأتي تلك اللحظة الحاسمة للاستيلاء على سالتيور و قتلنا جميعًا. أما بداخل المدينة، فإن السكان الأصليين تناسوا أننا أصدقاء وجيران لهم نتشارك الأرض نفسها ونتشارك كل شيء معًا، إلا أن الخوف يعمي القلوب ويجعل الأشخاص يرتكبون أفظع الجرائم الأخلاقية على الإطلاق.

لم أعد أحتمل مزاح تلك المرأة مع راكان، ولكنني وقفت بجانب النافذة أشعر بعجزٍ يفوق العجز الذي شعرته به بالأمس، ومع ذلك لم أتحرك من مكاني فوقفت هكذا أراقب المشهد بقلبٍ حزين، وفي صمتٍ قطعه خطوات أقدام السيدة ديلارا التي اقتربت مني مبتسمةً ثم قالت:

- هل أنت بخير يا آنسة مارية؟

أمسكت رأسي وأجبثها وأنا أكافح لأرسم ابتسامة على وجهي:

- ألم الرأس اللعين، ولكنني اعتدت الأمر على كل حال.

- يا لقساوة ذلك الألم! ولكن ألم القلب أشد قسوة، أليس كذلك؟

تفاجأت بسؤالها وبمفظةاظتها معي، فلا بد أنها رأتنى وأنا أنظر إلى راكان كلما أتيحت لي الفرصة، ولكن هذا لا يعطيها الحق في تلميحات كهذه، فنحن لسنا صديقتين حتى نتحدث معي بشكل ودي هكذا. انزعجت كثيرًا من سؤالها فغيرت محور الموضوع قائلة:

- ما الذي يحدث إلى هؤلاء الأيتام عندما يكبرون؟

يبدو أنها لم تتوقع هذا السؤال؛ فلامح وجهها تبدلت على الفور، ولكنها عادت بتبسم ثانية وقالت:

- منهم من يعمل بالقلعة، ومنهم من يرحل عنها ليشق طريقه في المدينة الضبابية.

- ألا يتبناهم أحد على الإطلاق؟

تنهدت ثم ابتسمت وأجابتنى:

- لا يمتلك الجميع قلبًا رقيقًا مثل قلبك يا سيدتي. صدقيني، لن يرغب الكثيرون في تربية أطفالٍ يختلفون في اللون واللامح عنهم، فكما ترين جميع أطفال الميتم هنا من أبناء السكان الأصليين.

تعجبت كثيرًا لكلامها؛ فأنا لا أمانع أبدًا من تبني طفلٍ يختلف عني في اللون والشكل؛ فهذا لن يهم بالنسبة لي. احترمت وجهة نظرها ولم أجادلها؛ فألم رأسي أعال أال دون النقاش في أي موضوع يحتاج

للحجة والبراهين.

سألها:

- منذ متى تعملين هنا يا سيدة ديلارا؟

تطلعت في وجهي مليًا ثم قالت وهي تبتسم بسعادة حقيقية:

- أتيت إلى قلعة تيلارين قبل عشر سنوات، أتذكر ذلك اليوم جيدًا يا سيدتي؛ ففي ذلك اليوم كان أطفال الميتم في حالة سيئة للغاية.

قطبت جبیني باستغراب فسألها عن السبب، أجابني:

- آه! لقد كانت مأساة حقًا؛ بعدما تعلق بها الأطفال ماتت والدته السيد آدم فتركت خلفها قلوبًا صغيرة محطمة، فكانت مهمتي تكاد تكون مستحيلة، ولكنني تمكنت أخيرًا من إدارة المكان وخلق صداقات قوية مع أولئك الأطفال المساكين.

تنهدت بنبرة حزينة ثم أردفت:

- يا لهم من أطفال بائسين حقًا! يضعهم القدر على عتبة باب الميتم بين الحين والآخر ونحن من يتولى رعايتهم في نهاية المطاف فنصبح لهم الكون بأكمله؛ ولهذا السبب كان رحيل مديرة الميتم السابقة والمفاجئ للجميع لهو أمر عسير لم يحتمله الكثير منهم، فكانت مهمتي شاقة، ولكن السيد آدم كان يساعدني كثيرًا، وإنني لأدين بفضل وجودي هنا له؛ فهو من أحضرني إلى هنا.

التمعت عيناها وهي تتحدث عن آدم فابتسمت وأنا أرى نظرات العشق في عينيها، ربما هي شماعة حمقاء مني، ولكم رغبت أن أقول

لها "لست وحدك يا عزيزتي" ولكنني تراجعث فنحن لسنا صديقتين.

تقدّمت إحدى المعلمات منا وهمست في أذن السيدة ديلارا فأومأت واستأذنت مني لترحل؛ فأذنت لها. سمعت صوتًا أنعويًا لم أسمعته من قبل يقول من خلفي:

- ابنة الحاكم تترك القصر الكبير لوالدها وتأتي إلى قلعة تيلارين لتعمل في الميتم! عجيبة هي مدينة سالتيور، ألا تتفقين معي؟

استدرت؛ فإذا بي أفاجاً بتلك المرأة التي كانت تتحدّث مع راكان وهي تبتسم وتضحك بطريقة استفزت مشاعري كثيرًا. لم تكن نظراتها لي توحى بالخير أبدًا ولكنني لم أهتم؛ ففضولي بمعرفة اسمها وكثيبتها جعلني أسألها بعبوس:

- لم أتشرف بمعرفة اسمك يا عزيزتي.

ضحكت بطريقة جعلتني أضعها في قائمة الأشخاص الذين لن أشعر بالسعادة وأنا برفقتهم أبدًا. تنفست بعمق وكأنها تحاول تهدئة نفسها حتى تجيبني، ثم قالت وهي تمد يدها لي لتصافحني:

- أنا غزل، ابنة شقيقة السيد ليرون والوريثة الوحيدة لها يا عزيزتي.

صافحها ببرود وأنا أقول:

- تشرفت بمعرفتك، ولكن لماذا لم أرك سوى الآن؟

- لأنني أتيت في الليلة الماضية واستيقظت في الصباح متأخرة فلم تريني، وها أنا أقف أمامك الآن في المكان نفسه الذي سوف

أعمل فيه.

رفعت حاجبائي اندهاشًا؛ فهي لن تعيش معنا في القلعة فقط بل سوف تلازميني في الميتم طوال اليوم! للحق أظن أن هذا المكان لن يدهشني بشيء أسوأ من هذا؛ فأعتقد أنه أراني كل الأشياء السيئة وأعطاني من الأسباب ما يكفي لأبغضه بشدة.

لم أكن فظة أبدًا مع أحدٍ من قبل، ولكن طريققتها الغريبة معي والتي تنم عن شخص لا يحب وجودي بالجوار جعلتني استأذن للرحيل؛ فتركناها ونزلت الدرج إلى ساحة القلعة حيث كان راكان يقف مع أحد الحراس، وما إن رأيي تقدّم مني بسرعةٍ وقال بصوت منخفض:

- لتقابل بعد منتصف الليل في الممر أمام غرفتك.

قطبت جبيني فكذت أن أتكلم لأسأله عن السبب، ولكنه تركني وذهب على الفور إلى البوابة. تعجبت كثيرًا مما قاله، ولكنني سرّت إلى القلعة لأصعد إلى غرفتي، بمجرد ما أن رأيث الفراش ارتميّ عليه واحتضنت الوسادة الناعمة، ثم أغلقت عيني أخيرًا.

لا بدّ أنني غفوْتُ لوقتٍ قليل؛ لأنني استيقظتُ وفتحْتُ عيني عندما سمعتُ صوتًا غريبًا يأتي من الشرفة، وكأن هناك من يخربش الأرض بأظافره! كانت الغرفة غارقةً في ظلامٍ دامسٍ أصابني بالهلع. نهضتُ من الفراش ببطءٍ وأنا أتحسس الطريق؛ لأصل إلى المصباح الذي أنا على يقينٍ أنني وضعته بجانب فراشي فوق الكومود قبل أن أنام، ولكنني لم أجد شيئًا بالطبع!

مشيت بخطوات متعاقلة نحو الشرفة التي راحت ستائرها تتطاير بفعل الرياح، ثم وقفت أشاهد المدينة بأكملها وهي غارقة في ظلام تام فلا ضوء قمر ولا مصابيح تنير المكان على الإطلاق. لم تتوقف أصوات الخريشات على الأرض بل على العكس تمامًا كانت أسرع وأقوى من ذي قبل؛ فأصبح صدري يعلو ويهبط من الهلع، فبحث في الغرفة ثانية عن المصباح اللعين حتى وجدته أخيرًا فوق المنضدة التي تقبع في ركن صغير من الغرفة، على الرغم من أنني متأكدة أنني لم أتركه هناك.

أين تركت أعواد العقاب بحق الإله؟ أخذت نفسي عميقًا لكي أهدأ فتوقفت عن البحث؛ حتى أتذكر أين تركت أعواد العقاب فأسرعت نحو الكومود مرة أخرى وفتحت الدرج وتحسست الأشياء بداخله حتى عثرت عليها أخيرًا. وضعت المصباح على الكومود، وأمسكت بأعواد العقاب وأشعلت واحد منها فتراجعت إلى الخلف من هول ما رأيته؛ كان شخصًا ما يجلس على الفراش يرتدي الرداء الأحمر، ويضع غطاء الرأس فلم أتبين ملامحه جيدًا. أصدر الشخص المخيف أصواتًا مكتومة وكأنه يحاول قول شيء ما، بينما تسمرت في مكاني وأنا أتنفس بسرعة وقلبي ينبض بقوة من الهلع.

انطفأ عود العقاب بفعل الرياح الآتية من النافذة؛ فازدادت نبضات قلبي قوة وازداد تنفسي سرعة فحاولت بيد مرتجفة أن أشعل عودًا آخرًا، وعندما نجحت صرخت على الفور وأنا أنظر إلى القناع المخيف الذي رأيته في النافذة من قبل، لم يفعل الشخص الغامض شيئًا سوى النظر لي بعينين باكيتين بينما ارتسمت على القناع ابتسامة مرعبة.

رائحة الموت تحوم حولي وكأنه خرج من قبره الأبدي للتو، رفعت المصباح لأضرب رأسه ولكنه أمسك بيدي فرأيت أظافر طويلة تنغرس في معصمي! فصرخت من الألم الشديد، ولكن كل شيء اختفى بمجرد أن فُتح الباب ودخل راكان واقترب مني وعلى وجهه ارتسمت نظرات الخوف والقلق.

سألني:

- ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟

نظر إلى معصمي ليكتشف آثار الأظافر فيها فأمسك بيدي وتفحصها، ثم سألني بجديّة:

- من الذي فعل هذا بك؟

التفت حوله ليبحث عن أي شخص قد يكون مختبئًا في الظلام؛ فبحث في الشرفة، ونظر أسفل الفراش، ثم فتح خزانة الثياب وعندما لم يجد شيئًا نظر لي نظرات ارتياح، ثم سألني مترددًا:

- هل أنت مصابة بذلك المرض المنتشر؟

لم أرد عليه، فماذا سوف أقول؟ أنا لست متأكّدة حتى أنني مصابة بذلك المرض اللعين، فكيف أؤكد أو أنفي له؟ حاولت أن أتنفس بصورة طبيعية ليهدأ قلبي عن الخفق المضطرب، ثم قلت له:

- لقد جرحت يدي وأنا أبحث عن المصباح عندما ارتطمت بالكومود، فصرخت من شدة الألم.

من الواضح أنه لم يصدق ما قلت، وللحق إن كنت مكانه فلن أفعل.

خرج من الغرفة وتركني وحدي دون أن ينطق بحرف؛ فعبس وجهي وأنا أفكر في سبب وجوده في كل مرة أرى فيها شيئًا غريبًا. لماذا عندما أصرخ أو أشاهد تلك الأشياء العجيبة أجد راكان يقف أمامي بعدها مباشرة؟ هناك شيء غريب يحدث وأنا لا أفهمه وهذا يثير حنقي كثيرًا. بينما كنت أفكر، رأيث راكان يعود ثانيةً ومعه ضمادة؛ فاندعشت وهو يقترب مني ويمسك بيدي ليضمّد الجروح حول معصمي. بمجرد ما إن لمس يدي، شعرت بمشاعر متضاربة فالدفع المنبعث من لمستته أصابني بالقشعريرة حتى أنه نظر في عيني متسائلًا، قال بوجهه العابس دائمًا:

- إنها تؤلمك، أليس كذلك؟

لو أن القلوب تتحدث فلن تكفيها حروف الكون بأكمله لتعبر عما تشعر به. كم أنت مسكين يا راكان! فأنت تسألني عن الألم وأنت الدواء! وددت كثيرًا أن أخبره أن ما يؤلمني حقًا هو قلبي وليست هذه الجروح السخيفة حول معصمي، ولكنني شعرت بالخزي من وقاحتي واختفاء شعور الحياء بداخلي فأبعدت يدي عنه وأجبته:

- إنها بخير.. شكرًا لك.

- اعتذر منك يا آنسة، كنت مضطرًا لأن ألمس يدك حتى أستطيع أن أضمد الجرح.

لا بد أنه شعر بأنني لم أحب إمساكه ليدي فابتعد عني على الفور واعتذر مني، ولكنني لست مستاءةً منه بل من نفسي؛ فهذه المشاعر غريبة على قلبي وكأنها مغناطيس يجذبني إليه فلم أعد أستطيع الفرار منه.

عندما تذكرت ما قاله راكان بعد انتهاء اليوم الدراسي، سأله:

- لماذا أردت أن تراني بعد منتصف الليل؟

تنهد ثم قال وهو يتجه إلى باب الغرفة ليغلقه فأنزعجت مما فعل، ما الذي سوف يحدث عندما يعلم أحدهم أن قائد الحراس خرج من غرفتي بعد منتصف الليل؟ حتى وإن كان قلبي يكره له المشاعر فليس من حقه أن يتصرف معي بهذه الأريحية! كنت على وشك الاعتراض ولكنه سبقني وقال:

- صدقيني الأمر هامٌ للغاية ولا يحتمل التأخير؛ أعتذر عن التحدث في غرفتك بعد منتصف الليل ولكنني لن أتمكن من التحدث معك إلا بهذه الطريقة.

لم أرد على كلامه وتركته ينهي ما بدأه، فاستطرد قائلاً:

- لقد فقدت الشرطة السيطرة على أحداث الشغب في المدينة؛ فالوضع كارثي بحق، ولكنني أعلم أنك تشتاقين لرؤية والدتك، ولهذا السبب اتصلت بجميع من يدينون لي بالمعروف وطلبت منهم رد الدين.

سكت قليلاً، ثم أردف:

- سوف نذهب لرؤية والدتك الآن!

- هل تمازحني؟ سنذهب الآن؟

سأله باستغراب فأجابني على الفور وعلى وجهه أمارات القلق:

- آنسة مارية، اسمعيني جيداً إن سالتيورا على وشك أن تشهد

اندلاع حرب أهلية بين الكينمارو والسكان الأصليين، وإن الفرصة الوحيدة لرؤية والدتك في ظل هذه الظروف الصعبة هي الآن؛ ففي الصباح سوف يتم نقلها إلى مكان مجهولٍ مثلما حدث مع المصابين السابقين، وحتى الآن لا يعرف أحدٌ شيئًا عن ذلك المكان، وإن كنتِ حقًا ترغبين في رؤية والدتك للمرة الأخيرة قبل أن يتم نقلها إلى مكانٍ لا يعلمه سوى الإله وحده فالآن هي فرصتك.

ساد الصمت بيننا وأنا أفكر في هذا المأزق، فليس فقط الآن هو الوقت المناسب لرؤيتي لوالدتي ونحن من تخطينا منتصف الليل بقليل، بل إن الكارثة الكبرى هي نقل والدتي إلى مكانٍ مجهول لن أعرف شيئًا عنه! ما هذا الهراء؟ سألته بعصبية:

- كيف سوف يتم نقلها؟ وأين والدي؟

- صدقيني لا يوجد في سالتيوراً بأسرها من له السلطة الكافية ليعرف المكان الذي يُنقل إليه المصابون بذلك المرض اللعين! أغمضت عيني وأنا أفكر فيما سأفعله في الدقيقة التالية، فسألته:

- وكيف سنذهب؟

- سوف نبحر بالقارب حتى الضفة المقابلة، وبعدها نتجه إلى محطة القطار لتتوجه إلى القلعة البيضاء حيث تقيم والدتك في العزل الصحي.

لم يكن هناك اختيارات كثيرة أمامي؛ فإما أرافقه الآن أو أعيش حياتي بأكملها دون رؤية أمي أو معرفة مكانها. أومأت بالإيجاب فقال لي:

- يجب أن ترتدي رداءً ذا غطاءٍ للرأس ليخفي ملامحك.

استأذن مني ليخرج من الغرفة بعدما اتفق معي على مقابلته أمام البحيرة بعد عشر دقائق. ارتديت الرداء الأسود ووضعت غطاء رأسه فوقى، ثم خرجت من غرفتي وأنا أنظر حولي لكي لا يراني أحدهم. مشيت في الممر وأنا أرتجف من البرد، ثم لمحت راكناً من النافذة وهو ينتظرني عند البحيرة ومن خلفه رأيته القارب الذي أخبرني عنه.

نزلت الدرج بحذرٍ وأنا ألتفت حولي بين الحين والآخر، وما إن وصلت إلى البهو تسمرت مكاني عندما رأيته السيد آدم يقف أمامي وينظر لي بوجه خالٍ من أي تعبير؛ لقد تفاجأت كثيراً عندما رأيته، فأنا نادراً ما أراه، ولا أدري السبب الذي جعلني أشعر بأنه كان يراقبني، قلتُ وأنا أحاول أن أبدو طبيعية:

- مرحباً، كيف حالك؟

- إلى أين؟

سألني وهو ينظر إلى ملابسي فأجبته بعد تفكير:

- أرغب في استنشاق الهواء بجانب البحيرة.

- ولماذا ترتدين هذا الرداء وتضعين غطاء الرأس؟

لم يصدقني على الأرجح، لن ألومه فإن إجابتي لن تقنع طفلاً في الخامسة من عمره، ولكنني أجبته على كل حال:

- لأنني أشعر بالبرد.

اقترب مني وهو يبتسم ابتسامة شخص لم يصدق حرفًا مما قلت،
ولكنه تظاهر بعكس ذلك قائلاً:

- لا تقلقي، أنا لم أركِ بإمكانك الذهاب الآن، ولن أخبر أحدًا أنك
ترتجفين من البرد فوقفت بجانب البحيرة في هذا الطقس البارد
لتستنشقي الهواء البارد أيضًا!

تركني وصعد إلى الطابق الثاني؛ فابتسمت وأنا أتذكر تكراره لكلمة
"البارد" ولكنني شعرت بالامتنان لما فعله، فكان بوسعه أن يمنعني
من الخروج أو يخبر والده أو الأسوأ.. أن يخبر والدي، ولكنه لم يفعل؛
أظن أنه ليس شخصًا بغيضًا كما كنت أعتقد.

خرجت من باب القلعة، فلم يتحدث معي أحد من الحراس، يبدو
أن راكان قائد صارم كلامه كالسيف يخاف أحدهم الاقتراب منه أو
العبث به. بمجرد ما أن رأيته حتى أفسح لي الطريق لأصعد على متن
القارب.

كان راكان يجدف بكل ما أوتي من قوة وهو ينظر لي تارةً وإلى
القلعة خلفي ونحن نبتعد عنها تارةً أخرى، كلما اقتربنا من الضفة
الأخرى أصبحت رؤية الدمار والخراب الذي سببه السكان الأصليون
واضحًا كالشمس في كبد السماء؛ كانت النيران تشتعل في كل شيء،
ورأيته بعض العربات مقلوبة رأسًا على عقب، ولكن ما أثار هلعي حقًا
هو رؤية الدماء التي افترشت الأرض في مشهد ترتعد له الأوصال
وتقشعر له الأبدان خوفًا واهلًا.

رسى القارب على الضفة الأخرى من البحيرة، فأمسك راكان
بمعطف أسود اللون وارتداه ثم أمسك بوشاح وضعه حول رقبته، ثم

رفع جزءًا منه ليغطي فمه وأنفه وأعطاني واحدًا مثله ففعلت مثله،
ثم ترجلنا معًا ونحن نسير بحذرٍ شديدٍ نحو محطة القطار. أخبرني
راكبان أن حركة القطارات كانت قد تعطلت عن العمل في الأيام
الماضية، ولكنها عادت أخيرًا بالأمس فحمدتُ الإله وعندما وصلنا
إلى محطة القطار قلث:

- سيد راكان، أنا ممتنة حقًا لما تفعله معي، أعلم أنك تتكبد عناء
الكثير، و....

قاطعني قائلاً وهو ينظر إلى نقطةٍ بعيدةٍ عنا:

- هناك من يراقبنا.

كاد قلبي أن يقفز خارج صدري حينما سمعتُ ما قاله، تسقُرتُ
مكاني دون أية حركةٍ وأنا أحاول النظر حولي دون أن أحرك رأسي؛
لعلي أرى من يتحدث عنه راكان. لا يوجد الكثير من المسافرين،
ولكنني اكتشفتُ أخيرًا أن هناك شخصًا ما يبعد عن راكان مسافة
عشرة أمتارٍ ينظر نحونا بتركيزٍ؛ فأمسكتُ يد راكان دون تفكيرٍ،
ضغط راكان على يدي لأطمئن ولكن قلبي لم يهدأ للحظةٍ إلا عندما
أعلن القطار عن وصوله وهو يطلق صافراته المرعبة بالنسبة لي.

وقف القطار بانتظار المسافرين للصعود على متنه، فسرتُ ببطءٍ
مع راكان وأنا ما زلتُ ممسكةً بيده التي لم تفارقني بدورها، ثم
صعدنا على متن القطار البخاري وجلسنا في العربة الأولى الفاخرة
التي لا يمكن للكثير من السكان الأصليين أن يتحملوا تكلفتها.

ما هي إلا دقائق قليلة حتى أطلق القطار صافراته مرةً أخرى،

ثم تحرك متجهاً إلى القلعة البيضاء والتي كان يفصلنا عنها ثلاث محطات فقط. تركت يد راكان وأنا أشعر بالإحراج من تصرفاتي الحمقاء وهو بجانبني، ولكنه فاجأني عندما قال:

- ما زلنا مراقبين.

اتسعت عيني من هول المفاجأة، ولكنني آثرث الصمت فلم يعد هناك ما أقوله، تعجبت كثيراً من هدوء راكان وهو يعلم أن هناك من يراقبنا ومع ذلك يجلس وكأنه أمرٌ عادي يحدث له كل يوم! لم يشاركنا أحد في العربة سوى رجلين وامرأة يجلسون معاً في نهايتها ورجل آخر يجلس وحده في منتصفها.

قال راكان بهدوء وهو يراقب نظراتي:

- نعم، إنه ذلك الذي يجلس بمفرده.

لم أعلق على كلامه فوراً، انتظرت قليلاً ثم قلت:

- من يعلم أننا متوجهان إلى القلعة البيضاء؟

- بعض الحراس الذين أثق بهم.

فكرت في السيد آدم، من المستحيل أن يكون قد أرسل شخصاً ما لمراقبتنا، ولكن لنفترض أنه فعل، لماذا يفعل هذا إن كان يعلم أن قائد حراسه بنفسه يصحبني إلى والدتي؟ لا أعتقد أن من يراقبنا له علاقة بالسيد آدم أو والده، فكلاهما يخافان أن يمسنني سوء، وحتى إن علما بأمر ذهابي إلى العزل الصحي فإن وجود راكان برفقتي كفيل بأن يبت الاطمئنان في نفسيهما.

يكاد عقلي أن ينفجر من كثرة التفكير والتساؤلات التي لا تكف عن الضجيج أبدًا. أتى محصل التذاكر فدفعت رايكان ثمن التذكرتين، ثم نظر لي وقال بصوت مكتوم بسبب الوشاح:

- هل أنت بخير؟

أومات حتى لا أشعره بالقلق، ولكنني في الحقيقة كنت أرتعش من الخوف، لا بد أنه لاحظ رعشة يدي فأمسك بها وضغط عليها برفق لكي أهدأ. لم أحب أن يلمسني أحد، وعلى الرغم من أن الكثير من الكينمارو لا يكثرثون للمبادئ والتعاليم الدينية إلا أنها كانت تهمني كثيرًا؛ ولهذا السبب لم أشعر بالارتياح وشخص غريب يمسك بيدي حتى وإن لم يقصد إيذائي، أبعدت يدي عنه برفق حتى لا أشعره بالحر؛ فالرجل ضرب لي مثلًا رائعا في الشهامة والثبل جعلاني أخاف على مشاعره كثيرًا.

وصل القطار إلى المحطة الأولى التي تفصلنا عن القلعة البيضاء، فذهب الثلاثة أشخاص إلى الباب لينزلوا من القطار ليتركونا بمفردنا مع الشخص الذي لم تتزحزح عيناه عنا حتى الآن. نظرت إلى رايكان بعينين يملؤهما الخوف، فقال لي بصوت منخفض:

- لا تنظري إليه، تظاهري بأنك لا تعرفين أنه يراقبنا.

نظرت بجانبني أراقب المحطة التي كانت تبعد عنا كلما سار القطار أسرع ليتجه نحو المحطة الثانية لعلي أهدأ قليلًا، ولكنني مع الأسف كنت أختلس النظرات بين الحين والآخر لأراقب ما يفعله الرجل المريب؛ فتصيبني خيبة الأمل في كل مرة ظننته فيها أنه كف عن مراقبتنا إلا أنه لم يسأم أبدًا. لاحظت أن ملامحه تشبه ملامح

السكان الأصليين، فمن المستحيل أن يكون من الكينمارو؛ فهذه البشرة الحنطية والشعر الأسود من أهم ما يميز السكان الأصليين.

لم ينتشلي من غياهب الخوف إلا مشاهد الخراب والدمار التي تبدت في أنحاء سالتورا الضبابية؛ كلما اقتربنا من القلعة البيضاء ازداد الضباب الأبيض فأصبحت الرؤية غير واضحة، مما جعل القطار يهدئ من سرعته قليلاً.

عندما توقّف القطار، وقف الرجل فجأة ثم تقدّم ناحيتنا وأنا أنظر إليه بعينين متسعيتين عن آخرهما من الدهول والخوف، بينما ظل راكان ينظر إليه بنظرات جامدة ثابتة وكأنه لا يخشى شيئاً أبداً. جلس الرجل في المقعد المقابل لنا فأصبح وجهه أمامي الآن ولا يفصلنا عنه سوى بضعة سنتيمترات!

لم يصعد أحدٌ على متن القطار، وهذا يعني أننا سنظل وحدنا مع هذا الرجل المخيف حتى نصل إلى محطة القلعة البيضاء؛ تبادلت معه النظرات بين الحين والآخر، هذا الرجل نظراته ليست بريئة أبداً؛ إنه ينتوي أن يفعل بنا شيئاً سيئاً للغاية، وللأسف لم أكن مخطئة، إذ نهض الرجل فجأةً فرأيت الخنجر اللامع في يده وكان على وشك أن يطعن راكان، فصرخت بأعلى صوتٍ تمكّنت حنجرتي من إطلاقه؛ أمسك راكان بالخنجر وراح يدفع الرجل إلى الخلف فتشاجر الاثنان في الممر الفاصل بين المقاعد، بينما وقفنا كالتماثيل أراقب المشهد دون أي تدخل.

لَکَم راكان وجه الرجل المخيف بعنف وقوة، ثم أمسك برأسه وراح يضربها في طرف أحد المقاعد مما تسبب في نزيف في جبينه،

لم يقف الرجل مكتوف الأيدي فلکم راكان في وجهه لكمة شديدة جعلتني أرتجف مكاني وأنا أرى الدماء تسيل من أنفه.

ظل الاثنان يلکمان بعضهما البعض وأنا أشاهدهما دون حراك، ولكنني تحركت أخيرًا عندما وقع الخنجر من يد راكان وسقط إلى أسفل أحد المقاعد؛ فتوجهت إليه بسرعة حتى أتمكن من الإمساك به، ولكنني لم أنتبه إلى أن راكان تلقى ضربة في عينه جعلته يتأوه ويجلس على إحدى المقاعد من إثر الألم واللكمة القوية. تقدّم مني الرجل وهو يبتسم بوحشية، بينما كنت أراجع إلى الخلف ويدي ترتعش حتى كاد الخنجر أن يسقط من يدي.

قال الرجل وهو يتقدّم مني والدم يسيل من أنفه وفمه:

- عاهرة الحاكم الصغيرة!

صرخت فيه:

- ما الذي تريده مني؟

اقترب مني وانتزع الخنجر بقوة ثم حاول أن يطعن جسدي به، ولكنني كنت أخف وأسرع منه فجريت إلى نهاية العربة لاكتشف أنني وصلت إلى الباب المغلق المؤدي إلى مقصورة السائق! أين سأذهب الآن؟ أسندت ظهري إلى باب المقصورة وأنا أنظر إلى الرجل وهو يتقدّم مني فاستسلمت ولم أقاوم. كانت لذة الانتصار تكاد أن تقفز من عينيه المبتسمتين، بينما وقفت أبكي وأنا أرى الخنجر اللامع يقترب من قلبي.

قال الرجل:

- عندما تذهبين إلى الجحيم أرسلني تحياتي إلى أسلافك القذرين
وأخبريهم أن فرسان الرب...

لم يكمل جملته أبدًا؛ لأن ذراع راكان القوية التفت حول عنقه فراح
يضرب المقاعد بيده وهو يختنق أمامي، وما هي إلا لحظات حتى
سقط على الأرض.

سألت راكان:

- هل مات؟

- لا يهم، سيتوقف القطار الآن في القلعة البيضاء، يجب أن نسرع.

توقف القطار بالفعل، فنزلنا منه ونحن نضع الوشاح على فمنا
وأنفنا حتى لا يرانا أحد، أحاط الضباب الكثيف كل شيء فكانت
الرؤية غير واضحة أبدًا. انطلق القطار وهو يطلق صافراته المزعجة
والمرعبة في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، ولكنني ظننت أنني
رأيت شيئًا لشخص يحاول أن ينهض بداخل العربة التي كنا على
متنها.

أخبرت راكان فأمسك بيدي لتسرع خارج محطة القطار، فألقيت
نظرة أخيرة على الرجل بداخل العربة فلم أجده. رأيت لافتة تُزل
تلوح في الأفق فأخبرت راكان، دخلنا إلى التزل فلم نجد أحدًا
بالداخل. قرعنا الجرس فوق مكتب الاستقبال فلم يأت أحد.

قلت وأنا ألهم:

- لا أعتقد أنه يوجد أحد هنا.

توجه راكان إلى باب الثزل وأغلقه، ثم طلب مني أن أصعد معه إلى
الغرف في الطابق الثاني ففعلت. بمجرد ما أن دخلنا إحدى الغرف،
نزع الوشاح لأرى أن وجهه غارقًا في الدماء فأسرعت إليه وسألته
وأنا أمسح الدماء بوشاحي:

- لماذا لم تقتله؟

نظر لي نظرات قاسية حادة، أجابني وهو يبعد عينيه عني:

- لا يمكن أن يكون القتل هو الاختيار الأمثل والوحيد دائمًا يا
آنسة، فهناك اختيارات أخرى.

تعجبت كثيرًا من إجابته، فسألته بعبوس:

- وما هي الاختيارات الأخرى أمام شخص يرغب أن يطعن قلبي
بخنجر حاد يا سيدي؟

- أنا لست سيدك.

قالها بصرامة تنفي ما قاله للتوا أعلم أن الكثير من السكان
الأصليين يكونون لنا مشاعر الكراهية والغضب، ولكنني لم أفعل شيئًا
سيئًا له حتى يعاملني بهذه القسوة، ربما يتألم أو يشعر بالندم لأنه
رافقني في المقام الأول، لا أدري، ولكنني على يقين أنني لست من
أشخاصه المفضلين، على الأقل في هذه اللحظة بالتحديد.

انتهيت من تنظيف جراحه وتوجهت نحو الباب لأنام في الغرفة
المجاورة دون أن أنطق بكلمة، ولكنه أمسك بيدي قبل أن أفتح
مقبض الباب ثم نظر لي متسائلًا، فقلت:

- سأنام في الغرفة المجاورة.

ابتسم بسخرية، ثم قال وهو يترك يدي ليفتح الباب:

- لا، ستنامين هنا بينما أنا سأقف أمام باب الغرفة لأراقب المكان، لا تنسي أن سلامتك هي الأولوية بالنسبة لي.

تساءلت في قرارة نفسي إن كانت سلامتي تهمة لأن السيد ليرون كلفه بحمايتي؟ أم أن سلامتي تهمة لأنه يكن لي المشاعر؟ لا أدري حقًا، ولكنني متعبة ويجب أن أرتاح. خرج من الغرفة وأغلق الباب، فذهبت إلى النافذة لأراقب المكان فلم أجد أحدًا بالجوار. أين اختفى الناس؟ لماذا كل شيء يبدو هادئًا هكذا؟ أتذكر هذا المكان منذ فترة كان يعج بالحركة والصخب، ولكنه الآن هادئ للغاية كالمقابر.

استيقظت في الصباح بعد نوم متقطع لم يعرف السكينة أبدًا، ثم ألقيت نظرة من النافذة فرأيت الساعة الكبيرة بالأسفل تشير إلى السادسة صباحًا، وكان القليل من السكان الأصليين يمشي في الساحة. فتحت الباب فإذا بي أفاجا بأن راكان ينام وهو جالس على الأرض أمام الغرفة، انحنيت لأوقظه برفق ففتح عينيه ونهض ووجهه عابش من آلام ظهره.

قال:

- يجب أن نتحرك الآن.

سألته وأنا أنظر حولي:

- ما لا أفهمه هو أين ذهب الجميع؟

سار إلى الدّرج دون أن يجيبني؛ فتبعته على الفور. عندما خرجنا إلى الساحة، انتظرنا لبضعة دقائق حتى وصلت عربة أوقفها راكان ثم صعدنا إليها لتتوجه إلى العزل الصحي. ما زلت أضع الوشاح على وجهي لأخفي ملامحي عن السكان الأصليين، وعندما وصلنا إلى العزل تعجبت من معاملة الحراس والأطباء لراكان؛ لا بدّ أنه شخص اجتماعي من الدرجة الأولى، فنظرات الحب والاحترام التي رأيتها على وجوههم كانت تروي الكثير من المواقف النبيلة له، وقد حان الآن وقت رد الدين إليه.

صعدنا إلى الطابق الثاني حيث تمكث أمي في إحدى الغرف، لم يكن هناك الكثير من الزوار، بل لم يمكن هناك زائر واحد سوانا! وقف حارّش أمام كل غرفة من الغرف، وعندما توقّف راكان أمام الغرفة رقم 11 تحدّث قليلاً مع الحارس الضخم وسلّمه ورقة قرأها الأخير، ثم أوماً وقال وهو يشير إليّ:

- هي فقط من ستدخل، خمس دقائق وتنتهي الزيارة.

خمس دقائق فقط؟ هل مررت بالكثير من المتاعب وكدت أن أقتل في سبيل رؤية أمي لخمس دقائق فقط؟ ما هذا الهراء؟ أعرف أنه من الخطر أن أتواجد وحدي معها في الغرفة نفسها، ولكنها أمي بحق الإله، ماذا سوف تفعل لي؟

اقترب مني الحارس وطلب مني أن أزيح الوشاح لكي يرى وجهي ففعلت، ثم نادى على إحدى الممرضات وطلب منها أن تفتش ملابسني بحثاً عن أي أداة حادة بإمكان والدتي استخدامها لإيذائي أو إيذاء نفسها. وعندما انتهت، فتح الغرفة بالمفتاح ثم أدخلني

إليها وأغلق الباب بسرعة عجيبة وكأن من بالداخل وحش ذو أنياب وليست أمي المسكينة.

رأيثها جالسة على الأرض وهي ترتدي رداءً أسود قبيحاً يبعث على الاكتئاب والبؤس، وكانت تنظر إلى النافذة فلم أرَ وجهها. اقتربت بحذرٍ والشوق يملأني والحنين إلى حضنها الدافئ الآمن يؤلمني فسقطت الدموع غنوةً وأنا أراها بلا حول ولا قوة هكذا.

قلت بصوتٍ يملؤه الألم والشجن:

- أمي.. لقد أتيت لأراك.

لم تتحرك من مكانها ولم تستدر؛ لترى من يتحدث معها فظلت ثابتةً بلا حركة وكأن وعيها سافر إلى عالم آخر، ولكن ظل جسدها هنا في عالمنا. تقدّمت منها ببطءٍ وأنا أبكي على حالنا، فلقد عشنا أنا وهي حياةً بائسة مع والدي والآن الحزن يستمر في ملاحقتنا حتى الموت. ناديت عليها مرةً أخرى ولكنها لم تتحرك قيد أنملة، جلسْتُ بجانبها على الأرض ونظرتُ إليها ثم غلبني الشوق واحتضنتها وبكيت كما لم أبك من قبل. لا يوجد في الكون بأكمله شيءٌ يضاهي حضن الأم الدافئ والآمن، أخبرتها وأنا أبكي فخرجت الكلمات مختنقة:

- اشتقت إليك كثيرًا.

أظن أنني ظللتُ هكذا نحو الخمس دقائق، بينما هي ظلت كما هي لم تتحرك أو تصدر صوتًا، ولكنني ظننتُ لوهلةً أنني سمعتُ همهمةً تصدر منها. سألتها عما تقول فلم ترد واستمرت في إصدار الهمهمات

غير الواضحة، ثم التفتت ونظرت في عيني وابتسمت أبشع ابتسامة من الممكن أن أراها في حياتي؛ لا يمكن أن تنظر أُمِّي لي هكذا. سَرَت قُشْعِريرةً في جسدي ونحن نتبادل النظرات هكذا، قالت وما زالت الابتسامة لا تفارق ثغرها:

- لقد اقتربت المحاكمة.

قطبث جبيني وأنا أراقب تعبيرات وجهها التي أصبحت مخيفة للغاية، سألتها بدون فهم:

- ماذا تقصدين؟

وعلى حين غرة مني، أمسكت برقبتي بكلتا يداها وراحت تعتصرها بكل ما أوتيت من قوة؛ فطرحتنني أرضًا وأنا أنظر إليها بذهول، كنت أختنق وأضرب الأرض من حولي حتى يسمعني الحارس أو راكان ولكن يبدو أنني وحدي ولا يمكن أن يساعدني أحد!

راحت تقول أشياء غير مفهومة لي: "اقتربت المحاكمة.. وعند الضوء الثالث يظهر المخلص." راحت ترددها وهي تضغط بأصابعها على عنقي؛ فبدأت الرؤية تصبح ضبابية بسبب حاجتي للهواء. رأيت أشخاصًا يزحفون بجانبني ومن خلف والدتي بعضهم مبتور الأطراف، والبعض الآخر وجوههم محروقة، أو بلا أنف أو فم أو عينيْن، وكأنه وجه أملس ليس به ملامح على الإطلاق، راحوا يضحكون تارةً ويبيكون تارةً أخرى.

تقدّموا من والدتي وحاولوا أن يقتلوها؛ فأمسكوا بها وجروا

جسدها بعيدًا عني، فظلت تصرخ كالمجانين فغرس مما لديه أطراف أظافره في عينيها حتى أصيبت بالعمى إثر النزيف الذي حدث لهما. شاهدت ما يحدث وأنا ألهمت بحثًا عن الهواء، فبدأت أسعل حتى كدت أن ألفظ حنجرتي. فُتح الباب على مصراعيه ودخل راكان والحارس فتقدم الأخير من والدتي بسرعة وقيدتها، بينما أمسكني راكان وهو ينظر إلى عنقي باندھايش، اختفى كل شيء فلم يعد هناك سوى والدتي وراكان والحارس الذي صاح بعصبية لكي نرحل، فأمسك راكان بيدي وقادني إلى خارج العزل.

- هل أنت بخير؟ ماذا حدث؟

لم أستطع أن أتحدث، فأومأت أنني بخير، أوقف إحدى العربات وصعدنا إليها ثم توجهنا إلى محطة القطار لنعود إلى حي المصانع. ترحلت من العربة ونظرنا إلى الساعة فرأيت أنها الثامنة صباحًا، إنني متأخرة عن العمل في الميتم. وضعت الوشاح على فمي وأنفي ثم رفعت غطاء الرأس، وتوجهت مع راكان إلى محطة القطار. ما هي إلا دقائق معدودات حتى راح القطار يطلق صافراته في الأفق، وما إن توقّف في المحطة صعدت على متنه مع راكان. لم يكن هناك الكثير من الركاب على متن القطار، ولكن يبدو أنهم جميعًا من الكينمارو. جلسنا بجانب بعضنا البعض وأنا أنظر إلى آثار الخراب والدمار في كل شبر من سالتيور.

كان راكان يراقبني بنظراته طوال الطريق، ربما يرغب في الاطمئنان على حالتي بعد ما حدث، وربما يرغب في التحدث عن الأمر، ولكنني كنت متأكدة من شيء واحد؛ أنا لا أرغب في التحدث

عما حدث بالأمس أو منذ قليل؛ فيكفيني الكوابيس التي سوف تطاردني ليلاً.

بينما كان القطار يسير، ظننت لوهلة أنني رأيت أمي وهي تقف بالرداء الأسود وعلى وجهها تلك الابتسامة الخبيثة، والمرعب في الأمر أنها كانت ثابتة على الرغم من أننا نتحرك بالقطار! أعتقد أن راكان شعر أن هناك شيئاً غريباً يحدث، فسألني بقلقي:

- ماذا هناك؟

استدرت لأنظر إليه؛ لعلي لا أراها ولكنها كانت تجلس بجانبى بدلاً من راكان. نهضت كمن لدغه ثعبانٌ وأنا أصرخ فاختفت تماماً وظهر راكان أمامي وهو يمسك بذراعي ويحاول أن يهدئني، فعندما أدركت الأمر نظرت حولي ورأيت الكل ينظر لي نظرات استغرابٍ وريبة، فسرت إلى باب القطار ووقفت أمامه أنظر من النافذة. كانت والدتي ثابتة على الأرض بالخارج فلم تتزعزع من مكانها، ولكنني عزمث على التحلي برباطة الجأش فلا يجب أن يشك أحدهم أنني مصابة بذلك المرض اللعين مثل والدتي وإلا كانت العواقب وخيمة. كانت نظرات راكان لي توحى بأنه يعرف أنني مصابة بذلك المرض، ولكنه لم ينطق بحرف، فقط وقف بجانبى يراقب الطريق مثلي.

مرح

هل يستحق الأمر العناء حقًا؟ هل أصرار تلك الفتيات لآخذ ما هو حقي في المقام الأول؟ بعد الأهوال التي رأيثها الليلة في هذا المكان الموحش، ألا أستحق أن أحصل على بضع عملات ذهبية لأحقق خلقي لم ترني سالتيوراً جديرةً بأن أحلم به؟

سرتُ ببطءٍ نحو الفتيات وعيناي تدمعان على ما أقحمتُ رأسي فيه؛ إن علمت أُمي بما فعلت الليلة فلسوف تتبرأ مني، وهذا حقٌ مشروعٌ لها، فمن يفني عمره بأكمله في تربية فتاة يتيمة وتوجيهها إلى الصواب والخير دائماً لا يمكن أن يتخيل الوضع الذي ذهبث إليه بكامل إرادتي، بل ولا يمكن أن يتخيل الهدوء والبرود الذي يلازماني الآن وأنا أسير على جمراتٍ من النار في جحيمٍ مستعرٍ لا أبالي بما حدث منذ قليل في الغرفة رقم اثني عشر، ولا لذلك العبث الذي يحدث هناك في تلك البقعة اللامعة حيث تنتظر العملات الذهبية من يقتنصها ويرحل من هنا.

المثير للضحك أن الكينمارو لم يكلفوا أنفسهم عناء تسليم كل واحدة منا المبلغ الخاص بها في يدها، بل وقفوا جميعاً في الطابق الأول ينظرون إلينا ونحن نضرب بعضنا البعض؛ لكي نحصل على الجزء الأكبر من الكنز المحرم.

لم يتبق سوى ضرة من العملات الذهبية استقرت على الأرض وكأنها نجمة مضيئة في سماءٍ كالحة السواد في ليلة مظلمة كئيبة؛ ظننتُ لوهلة أن الضرة تناديني وتهمس باسمي، اقتربث منها وأنا لا أكثرث لبعض الفتيات التي افترشن الأرضية وهن غارقاث في

دمائهن ويتأوهن من الألم. كان الهدف واضحًا يلمع ويتراقص أمامي، توجهت إليه وقبل أن ألمسه أخذته فتاة كانت تعرج ثم حاولت أن تجري بكل ما أوتيت من قوة.

نهضت والشرر يتطاير من عيني وكأن هناك شيطانًا لعيّنًا تلبسني فلم يعد للخير وللبادئ مكانًا في قلبي. جريث بقلبي غاضب ووجه عابس فلحقت بها وأمسكت بشعرها لأرجع رأسها إلى الخلف، وحاولت أن أنتزع منها الضرة ولكنها كانت محاربة لم تستلم أبدًا إلا عندما ركلت ساقها التي كانت تعرج منذ قليل فسقطت المسكينة على الأرض وهي تصرخ من الألم ودموعها أنهار فوق وجنتيها.

أخذت الضرة التي تحررت من قبضتها واستقرت فوق الأرض، ثم مشيت بكل هدوء نحو البوابة ودموعي تسقط بلا مشاعر وكأنها ماتت فلم يعد لها أثر. وصلت عند تلك المنازل التي وضعت لافتات غريبة أمامها، رأيث طفلًا صغيرًا في العاشرة من عمره تقريبًا يرتدي تنورة أرجوانية وشتره بيضاء، ويضع مساحيق التجميل على وجهه الباكي. سار نحو ذلك المنزل الذي استقرت لافتة الأطفال الباكين أمامه ومعه رجل يرتدي الرداء الأسود نفسه، ثم دخلا الاثنان ذلك المنزل فتوقفنا بعيدًا لأرى ما يحدث بالضبط.

عندما فُتح الباب، رأيث كهلاً من الكينمارو لم أتبين ملامحه في بادئ الأمر، ولكنني ضعقت عندما تذكرت أنني رأيث وجهه من قبل في إحدى الجرائد، لا أتذكر اسمه ولكنني على يقين أنه يشغل منصبًا مرموقًا في المدينة! كان يقف وهو يتحسس جسد الطفل الباكي الذي راح يصرخ ويضربه، بينما الرجل كان يحب ما يحدث فظل

يضحك ويبتسم ويكمل ما بدأه.

أغلق الباب، فجلست وحيدة على الأرض ودموعي تنزف من عيني وأنا أتخيل ما سوف يحدث لذلك الطفل، وهو يُساق كالحيوانات لعرين الأسد الجائع الذي ينتظر الانقضاض على فريسته الضعيفة في اللحظة المناسبة. نهضت بصعوبة والكون بأكمله يدور حولي وكأنني جندي جريح خسر لتوه المعركة، فسرت نحو الدرج المؤدي إلى دار الشفاء بالأعلى، وعندما وصلت إليه صعدت بسرعة وكأن الموت يلاحقني.

خرجت أخيرًا من حفرة الجحيم المستعر وجلست على الأرض لأبكي؛ فلم يعد قلبي الجريح يحتمل الكتمان. صرخت وبكيت وصدرت مني أفزع أصوات النواح التي سمعتها أذني في حياتي بأسرها لفترة من الزمن لا يعلمها سوى الإله.

سمعت خطوات شخص تأتي من بعيد؛ فنهضت بسرعة حتى وصلت إلى إحدى الغرف المحترقة ودخلتها لأختبئ. اقتربت الخطوات مني فإذا بي أفاجأ بشاب وسيم للغاية يبدو من ملامحه أنه واحد من الكينمارو. اقترب مني فتراجعته إلى الخلف وأنا أرتعش من الخوف، فأمسك بيدي وعلى وجهه أمارات القلق.

قال:

- ما الذي حدث ليدك؟ وما الذي تفعلينه هنا بالضبط؟

لم أنطق بكلمة؛ فمسح دموعي برفق وأخرج منديلاً من بنطاله الأسود وضغط على يدي ليمتص الدماء التي راحت تنزف دون أن

أشعر بها. لا بد أن الخوف أصابني بفقدان مؤقت للإحساس؛ لأنني لم أشعر بالألم سوى الآن! كان الشاب يعاملني برفقٍ وكأننا أصدقاء قدامى، أمسك بيدي وقادني إلى الخارج حيث كانت عربةٌ تنتظره. صعدت على متن العربة وكأني مسحورة مسلوقة الإرادة والتفكير.

سارت العربة في دروب سالتيوراً حتى توقفت أمام إحدى دور الشفاء؛ فترجل الشاب وساعدني على النزول. دخلت معه وعندما رأني إحدى الطبيبات سارت نحوي ثم قادتني إلى غرفة العلاج، لم أنطق بحرف حتى الآن ولم أجب عن أسئلتها الكثيرة، فقط اكتفيث بالنظر إليها وإلى ذلك الشاب الغريب.

عندما انتهت من تضميد الجرح في يدي، نهضت على الفور وتوجهت إلى خارج دار الشفاء دون أن أتحدث مع الشاب وكأنني رغبت في الهرب منه، ولحسن الحظ لم يلحق بي.

كانت أُمي تجلس بجانب شقيقتي أمام منزلنا وهي تبكي وحولها بعض السيدات من الجيران يحاولن تهدئتها، وما أن رأني حتى صرخت باسمي ونهضت لتحتضنني، بينما وقفت أراقب الكل وهن ينظرن لي بذهول وأنا صامتة لا أتكلم أو أتحرك.

انهالت عليّ سيولٌ من الأسئلة قابلتها بالصمت المطبق؛ مما جعل والدتي تبكي بحرقة على ما أصابني. إن علمت أُمي ما فعلت الليلة الماضية، وإن رأت ما رأيته أنا لقتلتنني بدم بارد وهي تشعر بالرضا عن نفسها؛ لذا التزمث الصمت لعدة أيام دون أن أفتح فمي، حتى جاء ذلك اليوم وأخبرتني فيه ربما أن هناك امرأة تقف أمام المنزل وترغب في التحدث معي.

هل من الممكن أن تكون تلك المرأة من سالتورا المظلمة؟ هل لها علاقة بذلك اليوم؟ تسارعت نبضات قلبي وأنا أفكر في كل الاحتمالات. هل سوف يكون مصيري هو الموت؛ لأنني لم أنزل الدّرج في الليالي الماضية؟ كان عقلي يعجّ بالكثير من الأسئلة التي لم أجد لها إجابات حتى الآن. لا بدّ أن أذهب لأتحدّث مع تلك المرأة التي كانت تنتظر أمام المنزل. وقفت أمام امرأة من السكان الأصليين، ترتدي ثيابًا فاخرة بعض الشيء وتقف أمام المنزل بانتظاري وهي تتحدّث مع والدتي.

في هذه اللحظة فقط، فتحت فمي وطلبت من أمي أن تتركني وحدي مع هذه المرأة؛ فتعجبت مما قلت ولكنها فعلت ما طلبته منها على الرغم من هذا. اقتربت المرأة مني ثم همست في أذني:

- إن لم تنزلي الدّرج الليلة سوف يأتون لقتل عائلتك.. إما أن تذهبي إلى سالتورا المظلمة أو لا تذهبي فيموت أفراد عائلتك واحدًا تلو الآخر.. الاختيار لك في نهاية المطاف!

قالتها وصعدت على متن العربة التي كانت بانتظارها، وتركتني وحدي في غياهب الخوف والهلع. لقد حانت الآن اللحظة التي سوف تحدد مصيري، هل أنزل الدّرج أم تموت عائلتي؟ في هذه اللحظة فقط، وصلت الإجابة في هيئة جملة قالتها شقيقتي وهي تبكي "لقد عمروا عليها مقتولة يا مرح، المشهد يُدمي القلب!"

لم أفهم عمن تتحدّث إلا عندما رأيث أسيل، زميلتي في العمل التي رفضت أن تنزل الدّرج ثانيةً، وهي تولول في الساحة وتنوح أمام جثة أمها التي دُبحت رقبتها غدراً. تخيلت نفسي وأنا أصرخ على

فراق أمي وشقيقتي وابنتها البريئة بهذه الطريقة البشعة، كدث أن أفقد الوعي ولكن أمي أمسكت بي واحتضنتني وهي تبكي وكأنها تشعر بكل ما أمر به حتى وإن لم أنطق بكلمة حتى الآن.

مكثت في غرفتي طوال اليوم لا أتحدث مع أحد ولا أخرج منها، وكنت أفكر فيما أقحمته عائلتي فيه وهم لا ذنب لهم. انتشلتني طرقات شقيقتي على الباب من التفكير؛ حيث دخلت وأخبرتني أن هناك اتصالاً هاماً لي، ذهبت مسرعةً إلى كابينة الهاتف في الميدان الكبير ففتح صاحب الكابينة الباب لي لأدخلها، أغلقت بابها وأمسكت بالهاتف:

- من يتحدث؟

سألت الطرف الآخر عن هويته، فكانت الإجابة غير متوقعة على الإطلاق:

- أنا ذلك الشاب الذي اصطحبك إلى دار الشفاء، هل تتذكريني؟

لم أرد وكأن لساني انعقد، فلم أتمكن من التحدث. عاد يسألني مجددًا:

- أعلم بما حدث معك؛ لا بد أن أراك فإن الأمر ضروري، وإنها لمسألة حياة أو موت.. موتك بالتحديد!

لم أندعش أن الأمر يتعلق بموتي، ولكن الغريب هو معرفته بما حدث، فأنا لا أظن أنه كان معنا في سالتيور المظلمة. إذن، كيف عرف بما حدث في الأسفل؟

أخبرته بصوتٍ متردد:

- حسناً، الخامسة في المكان نفسه!

أغلقت الهاتف على الفور، وخرجت من الكابينة لأتوجه إلى منزلي. ماذا سوف أقول لأمي المسكينة؟ كان لا بد أن أكذب للمرة الثانية؛ حتى تسمح لي بالخروج، فتحججته بأنني أرغب في استنشاق نسيم البحر فسمحت لي اعتقاداً منها أنني سوف أذهب إلى الميناء، ولكنني توجهت إلى دار الشفاء المهجورة.

كان ينتظرني بالداخل، وما إن رأيته اقترب مني ثم قادني إلى إحدى الغرف وهو يلتفت يميناً ويساراً دون أن ينطق بكلمة، وعندما اطمأن إلى أننا وحدنا في المكان، جلس على إحدى الأسيجة المتهالكة من الحريق، ثم قال:

- ما الذي جعلك تتورطين في ذلك المأزق؟

- كيف عرفت بأمر سالتيورا المظلمة؟

تنهد ثم ابتسم وأجابني:

- أنا من الكينمارو يا مرح، ووالدي له شأن عظيم في سالتيورا، وأعرف كل ما يحدث في هذه المدينة. حتى الآن لم تردي على سؤالتي، وأتمنى ألا تتهربي من الإجابة؛ لأنني أرغب في معرفة كل شيء حتى أفكر في طريقة لمساعدتك.

أخبرته عن الأسباب التي جعلتني أهبط إلى ذلك المكان الملعون، وقصصت عليه كل ما حدث هناك وما رأيته وهو ينصت إليّ باهتمام،

وعندما انتهيتُ راح يفكر قليلاً بوجهه عابس ثم نهض وتقدّم مني وقال برفق:

- أعتقد أن من يلاحقك يرغب في إسكاتك إلى الأبد، ليس فقط لأنك ترفضين الذهاب إلى الأسفل مرةً أخرى، بل بسبب ذلك الشخص وما كان يفعله مع الطفل المسكين، إنها لفضيحة ستدمر حياة ذلك الرجل الحقيق، فأنتِ تعلمين أن منظمات حقوق الإنسان عامةً وحقوق المرأة والطفل خاصةً لن يتركانه وشأنه ولسوف يقدمان وثيقةً ضده في دار العدالة العالمية ومن الممكن أن يحكموا عليه بالموت.

صمت قليلاً وهو يفكر، ثم استطرد قائلاً:

- إلا إذا اختفيتِ عن الأنظار إلى الأبد.

- وكيف سأفعل ذلك بالضبط؟ ولماذا أنت مهتمٌ بسلامتي؟

سألته بنبرةٍ لم تخلُ من العصبية؛ مما أصابه بالإحراج قليلاً، أجابني:

- صدقيني أنا لا أدري لماذا أرغب في مساعدتك، ولكنني أعتقد أنك ستكونين في أمانٍ إن أتيتِ معي للقصر حتى تعملِي هناك؛ بإمكانِي حمايتكِ هناك وكأنكِ واحدةً من العاملين.

لم أعلق على كلامه واكتفيتُ بالصمت، أردف:

- ما يهمني الآن هو سلامتك. انظري يا مرح، أنا أعرف كل شيءٍ عنكِ، فكما أخبرتكِ من قبل عائلتي ثرية للغاية ولها مكانة هامة في سالتايورا، وعندما رأيتهُ تحرك شيء ما بداخلي وذلك الشيء

يأمرني بمساعدتك!

تحرك شيء ما بداخله؟ إنه يمزح معي ولقد اكتفيث من هذا النقاش، تركته وحده في الغرفة ثم هممت بالرحيل دون الاكتراث لأي شيء آخر؛ فلقد اكتفيث بالفعل من هذه المحادثة العقيمة التي لن تحل مشكلتي أبدًا، إلا أنه أمسك بذراعي وقال:

- انتظري من فضلك.

أبعدت يده عني، ثم سألته بحدّة:

- ما الذي تريده بالضبط؟

أجابني بعد صمتٍ دام لبرهة:

- أريد أن أساعدك.

ضحكت وتعالّت أصوات قهقهتي على ما سمعته للتو؛ فأنا الآن أقف أمام واحدٍ من أبناء الكينمارو المدللين والذي يرغب في مساعدتي ليس لأنه يعرفني، بل لأن هناك شيئًا ما تحرك بداخله ويأمره بمساعدتي كما يدعي، والمطلوب مني الآن هو التصديق والموافقة. في الواقع، لا أعتقد أن المدينة الضبابية بإمكانها أن تثير دهشتي أكثر من هذا.

قلث وأنا أبتسم بسخرية:

- سيد...؟ يا إلهي! أنا حتى لا أعرف اسمك، هل تتخيل هذا؟

- أرسلان.

قالها وهو يبتسم لي، أكملت كلامي:

- سيد أرسلان، أنا لست فتاة غبية حمقاء بإمكانك أن تكذب عليها لكي تصل إلى أغراضك الخبيثة أيًا كانت ماهيتها، بل أنا فتاة بائسة حقًا ترغب في التخلص مما أقحمت نفسها فيه، فإن كان لديك حل لهذه المعضلة فسوف أكون ممتنة لك للغاية، أما أن تعرض عليّ الذهاب إلى القصر معك للإيقاع بي عندما تتيح لك الفرصة ووحده الإله من يعلم ما سوف تفعله بي هناك، فإن هذا أمر غير مقبول بالنسبة لي.

قال على الفور دون تفكير:

- بإمكانني أن آتي إلى والدتك؛ لأطلب منها السماح لك بالعمل في القصر!

ساد الصمت بيننا لعوان قليلة، ثم أردف قائلاً:

- فكّري في الأمر جيدًا، إن قبلت بالعمل في القصر فلن يتمكن أحدهم من المساس بك؛ عائلتي العرية وذات النفوذ ستكون كالحصن المنيع أمام سهام العدو. فقط فكّري في الأمر، وأنا سوف أنتظرك هنا غدًا في الموعد نفسه، إن أتيت سأعود معك لأطلب من والدتك أن تسمح لك بالعمل في القصر، وإن لم تأت أعدك أنك لن ترين وجهي مرة أخرى!

إنه جادٌ فيما يقول ولكنني حقًا لا أعرفه، لماذا أعطي الأمر فرصة ربما لا يستحقها في المقام الأول؟ قبل أن أغادر سلمني أرسلان ورقةً مكتوبًا فيها رقم هاتف القصر الذي يعيش فيه إن احتجث شيئًا يجب أن أتصل به كما طلب مني، فأخذتها دون أن أنطق

بحرف. غادرت دار الشفاء وعدت إلى المنزل وأنا أفكر فيما قاله وأنا جالسة في الشرفة أنظر إلى المارة في الميدان الكبير، وأستمع إلى أصوات القطار المزعجة.

دخلت شقيقتي الشرفة وابتسمت لي واحتضنتني ثم جلست قبالي، وقالت بنبرة حزينة:

- مسكينة أسيل، من الذي قتل والدتها بتلك الوحشية؟ ولماذا فعل ذلك؟

كنت أعرف ما حدث لأسيل والأسباب التي أدت إلى قتل أمها بتلك الطريقة المفزعة، ولكنني تظاهرت بالجهل، وما أسهل الجهل في عالم يحكمه الكذب والخداع والظلم!

أردفت شقيقتي:

- هل تعلمين أن بعض الأشخاص من دار العدالة العالمية زاروا منزل أسيل منذ يومين؛ لأنهم يرتابون في أن الكينمارو وراء اختفاء الفتيات في حي المصانع؟ إن ما يحدث في سالتيور هو الجنون بعينه.

الآن، تأكدت أن تلك الزيارة هي السبب الذي جعل تلك المرأة تأتي إليّ بالأمس؛ لتهددني بأنهم سوف يقتلون عائلتي إن لم أنزل الدرج الليلة، ولكنني لا أفهم لماذا الإصرار على ذهابي إلى سالتيور المظلمة ثانية؟ هل ذهابي إليها يعني أنني لن أتحدث عنهم أبدًا؟ فكرت في الأمر للحظات فخرجت من هذا التفكير باستنتاج واحد فقط؛ إنهم يريدون أن أذهب إليهم ليقتلوني هناك ولأختفي تمامًا فلا يعرف أحد

مكاني وبهذا يُكمم فمي إلى الأبد!

عندما يحدث هذا، كيف ستدين دار العدالة العالمية الكينمارو ولم يتم العثور على جثة في المقام الأول؟ لا بد أن هذا هو بالضبط ما حدث مع جميع الفتيات اللاتي اختفين على مر السنوات الماضية، فمن الواضح أن العديد من الفتيات لم يعدن إلى سالتيور المظلمة مرة أخرى فتم تهديدهن بقتل عائلاتهن؛ حتى يذهبن قسراً وهناك يتم قتلهن دون أن يعلم أحد بما حدث لهن.

والآن، إما أن أذهب إليهم ليقتلوني أو أختار البقاء هنا فيرسلون شخصاً ما لقتل أفراد عائلتي هذه الليلة. نظرتُ بمرارة إلى مجموعة الأوراق فوق المنضدة بداخل غرفتي وأنا ألعن اليوم الذي خط قلمي فيه كلمة واحدة! أن يمنحك الإله هبة كهذه هو أمر عظيم يجب أن يكون مصدر سعادة وفخر لك، ولكن أن تكون موهبتك هي السبب في هلاكك فإن هذا أمر قاسٍ للغاية.

لم أكن أصغي لما تقوله شقيقتي، فقد كنت أومئ بالإيجاب لإيهامها أنني أنصت لما تقول وأفهمه، بينما عقلي كان شاردًا في أمورٍ أخرى مثل عرض العمل الذي تلقيته في دار الشفاء، ولكنني توقفت عن التفكير عندما رأيته شخصاً يقف بالأسفل على بعد أمتارٍ من المنزل يبتسم ويشير إلى ساعة يدٍ حول معصمه؛ إنه يحذرنى لأن الوقت يمر فأصبحت ساعة موت عائلتي تدنو مني بلا رحمة. نهضت ووقفت في الشرفة أراقبه وهو يبتسم كالمجانين فلاحظت شقيقتي ملامح الفرع على وجهي فوقفت بدورها لتنظر إليه، ولكنه اختفى بين المارة وتلاشى وكأنه لم يقف هناك من الأساس!

مارية

وصلنا إلى العربات التي بإمكانها أن تأخذنا إلى قلعة تيلارين، وصعدنا على متنها ونحن نلتزم الصمت طوال الطريق، فلن نتمكن من العودة عن طريق البحيرة لأن الأعين هناك سترصدنا، كما أنني متأخرة للغاية عن العمل. قبل أن تصل العربة إلى القلعة، طلب راكان من السائق أن يتوقف لكي نسير ما تبقى من الطريق؛ حتى لا يرانا أحدٌ معًا في هذا الوقت. كان ذهني شاردًا في كل ما حدث منذ أن وصلت إلى القلعة حتى تلك اللحظة في دار الشفاء مع أمي، التي حاولت قتلي منذ ساعاتٍ مضت.

وصلنا إلى محيط القلعة أخيرًا، فأخبرني راكان أنه سيدخل من البوابة الرئيسة بمفرده، وأنه سيذهب إلى بابٍ خلفي سوف يفتحه لي لأتمكن من الدخول وكأنني لم أخرج من القلعة قط؛ ففعلتُ كل ما أخبرني به. قادني إلى الباب الخلفي أولًا وطلب مني أن أنتظر ثم تركني بعدها وذهب إلى بوابة القلعة، انتظرتُ لفترةٍ قصيرة من الوقت حتى سمعتُ صوت المزلاج وهو يُفتح ثم رأيتُ راكان أمامي، طلب مني أن أسير بمحاذاة سور القلعة في ذلك الممر الضيق والمؤدي إلى الميتم ففعلتُ ما طلبه مني على الفور.

قلتُ له قبل أن أتركه:

- لن أنسى ما فعلتُ يا سيد راكان.

ذلك الشاب يدفن الكثير من الحزن والألم في عينيه، فكلما نظر لي شعرتُ أنني أستطيع قراءة روحه التي تعاني من أشياء لا أعرفها،

ولكم تمنيث لو أنني أعرفها، فإن البوح بما يعقل كاهل المرء هو جزء من علاج الألم، ولكنني لا أعني لقلبه شيئًا لكي يطمئن لي ويشاركني أحزانه. تركني ثم ذهب إلى بوابة القلعة لمباشرة عمله، بينما توجهت إلى الميتم وأنا أجري وعندما وصلت توقفت على الفور عندما رأيته السيدة ديلارا تنتظرني في الساحة.

سألتني بملامح جامدة:

- أعلم أنك ابنة الحاكم وأنت واحدة من الكينمارو، ولكن تأخيرك هكذا ودون سابق عذر يا سيدة مارية يُصعب علي الأمر كثيرًا، وبالأخص أنني أخبرتك بالأمس أن هناك وفدًا قادمًا من منظمة العلوم العالمية للإشراف على مستوى التعليم في الميتم، وعندما أتوا لم تكوني بالجوار، فاضطرت إلى الكذب واختلاق الأعذار، وهو شيء لم أفعله من قبل.

إنها محقة بالطبع ولن أجادلها في شيء، فيبدو أنها عانت الكثير أثناء غيابي؛ لذا اعتذرت منها ووعدتها أنني لن أكرر الأمر ثانية. تركتني وذهبت فصعدت بدوري إلى الطابق الثاني؛ لأبشر عملي مع الأطفال الصغار.

كنت أتحدث مع إحدى الطلاب عندما طُرق الباب، ودخل أحد العاملين في القلعة وهو يحمل معه خطابًا لي؛ أمسكت الخطاب فاكتشفت أنه مرسَل من والدي يأمرني فيه بأن أحضر حفلًا تذكريًا لجمع التبرعات لدور الشفاء غداً، بالنيابة عن والدتي التي لا بد أنها تتعفن الآن في مكان ما لا يعلم عنه شيئًا سوى الإله وحده! إن سالتيوراً مدينة العجائب حقًا، فإن الناس يذهبون إلى بيوت المتعة

والبغاء بوقاحة دون أن يتنكروا أسفل قناع ما، بينما يتوجهون إلى التبرعات والأعمال الخيرية وهم يختبئون خلف الأقنعة وكأنه أمر بغِيض لا ينبغي أن نعرف عنه شيئًا.

من الواضح أن أبي يعلم أنني لن أقبل بالتحدث معه في الهاتف، ففكر في إرسال خطاب لي ليضمن أن الرسالة ستصل إليّ، ولكنني لا أكرث فمن ذاك الذي يتجاهل كل الخراب الذي يحدث في الضواحي، بل ويتجاهل الحرب الأهلية وشيكة الحدوث ويقيم حفلًا تنكريًا؟

انتهى اليوم الدراسي في الميتم، وبينما كنت أتوجه إلى القلعة رأيت غزل وهي تتحدث مع راكان بطريقتها التي تثير استفزازي وغضبي، ولكنني لم أكرث وعزمت على تجاهل الأمر. أوقفني آدم قبل أن أدخل القلعة وقال وهو يبتسم:

- مرحبًا، هل ستذهبن غدًا إلى الحفل التنكري؟

تنهدت من التعب والإرهاق، ثم أجبت:

- للأسف، أنا لست من هواة حضور الحفلات التنكيرية، وبالتحديد عندما تكون المدينة فوق صفيح ملتهب!

ابتسم ابتسامة واسعة وقال:

- معك حق، لقد خرجت الأمور عن السيطرة مؤخرًا، ولكنني أعتقد أن هذا هو بالضبط التوقيت المناسب للاحتفال ونسيان الأشياء السيئة التي تحدث في سالتايورا، ألا تتفقين معي؟

- لتتفق على أن نختلف يا سيد آدم.

ابتسم ثانيةً، ثم قال:

- أوّذ حقًا أن نذهب معًا إلى ذلك الحفل؛ فكّري في الأمر.

- وماذا حدث لعدم ذهابي إلى أي مكانٍ بسبب أعمال الشغب في المدينة حرصًا منكم على سلامتي؟

لم تفارق الابتسامة وجهه، أجابني:

- بالضبط نفس الشيء الذي حدث معك وأنتِ تستنشقين الهواء البارد بجانب البحيرة بالأمس، أليس كذلك؟

- هل هذا تهديدٌ يا سيد آدم؟

سألته بتجهم وبنبرة لم تخلُ من العصبية، فتلاشت ابتسامته ثم قال:

- آنسة مارية، صدقيني أنا لم أقصد أبدًا أن أزعجك بكلامي، فقط أرغب في الذهاب معك إلى ذلك المكان لأنني أشعر بانجذابٍ كبير نحوك.

قطبتُ جبينني وأنا أعيد ما قاله في ذهني، تركته دون أن أعلق على كلامه وذهبتُ إلى القلعة، ولكنني لم أتمكن من إخفاء انزعاجي عندما رأيث راكان ينظر لي هو وغزل وكأنهما كانا يراقباني أنا والسيد آدم.

عندما دخلتُ القلعة، رأيث السيد ليرون يقف بجانب الهاتف فأشار لي ليتحدّث معي، فانتظرته لحين انتهائه من المكالمة.

قال وهو يضع السماعة:

- يجب أن تذهبي إلى الحفل التنكري يا عزيزتي مارية، حتى والدتك لم تكن لتفوت مناسبة كتلك.

- سيد ليرون، أنا أكرُّ لك كل الاحترام الذي لم أكنه لأحدٍ من قبل، ولكنني حقًا لن أتمكن من الذهاب، أعتذر منك.

تركته ثم توجهت إلى الدّرج لأصعد إلى غرفتي، ولكنه قال:

- لا تقسي على والدك هكذا؛ إنه يحمل هم العالم بأكمله فوق أكتافه يا ابنتي.

تسوّث مكاني ورغبث كثيرًا في الاستدارة لمواجهته بكلامٍ كثيرٍ قاسٍ يحمله قلبي، ولكنني أخذت نفسًا عميقًا لأهدأ فإن شعور الغضب كان يزداد بداخلي مؤخرًا، ثم أكملت في طريقي إلى الأعلى.

كلما تذكّرت والدي وتذكّرت ما اعتاد أن يفعله مع أمي البائسة؛ شعرت بنيرانٍ تحرقني. أمسكت بالكوب لأضع فيه المياه ورفعته إلى فمي، ولكن يدي ظلت معلقةً في الهواء وأنا أرى شخصًا ما يقف خلفي انعكس ظله على الحائط المواجه لي! سقط الكوب من يدي فنهضت من مكاني لأستدير فلم أجد أحدًا خلفي. كانت إضاءة الغرفة خافتةً دائمًا فلم يكن المصباح المعلق فوق الحائط له ضوءٌ قوي؛ ولهذا السبب تمكّنت من رؤية الظل بوضوح.

تنفست بهدوءٍ حتى تهدأ ضربات قلبي المضطربة، ثم توجهت إلى النافذة ليدخل الهواء النقي الغرفة، رأيت غزل وهي تتحدّث ثانيةً مع راكان ولكنها كانت مستاءةً من شيءٍ ما؛ فإن ملامحها

المرحة اختفت وهي تتحدث معه. ظننت أنني لمحت ضوءًا أزرق يأتي من ناحية البحر، دققث النظر فلم أرَ أي ضوء، بل إن العتمة كانت منتشرة في كل مكانٍ بقرب الشاطئ. لقد سئمت حقًا من هذه الهلاوس، ولا أدري إلى متى سأظل أعاني من هذا المرض اللعين.

شعرت بالبرد القارس فجأةً، وما إن استدرت لأذهب إلى الفراش رأيته يقف أمامي؛ ذلك الشخص المخيف الذي رأيته في هذه الغرفة من قبل وهو يجلس على الفراش. أمسك بعنقي وظل يرجع بي إلى الخلف وفم القناع المخيف يبتسم ابتسامته البشعة، فما إن اصطدم ظهري بسور الشرفة حتى شعرت بأنني سأفقد الوعي في أي لحظة بسبب الاختناق.

هل انتهى العد التنازلي لحياتي؟ هل من المفترض أن أموت الآن كما حدث مع من أصيبوا بهذا المرض من قبل؟ يُقال أن ذكريات المرء تتراقص أمامه لحظة الموت، ولكن ما يحدث معي الآن مختلفًا، فإن ما أراه هو قناعًا قبيحًا مخيفًا يضغط صاحبه بكل ما أوتي من قوة على عنقي، بينما أنا أصرع الموت المؤلم دون أن ينجدني أحد! رفعت كلتا يديّ لأمسك وجهه وأبعده عني ففشلت ولم يكن منه إلا أن صرخ صرخة ألم ويأس بشعة، ثم ألقى بي من الشرفة.

كنت أسقط من الأعلى وأنا صامتة لم أتمكن من الصراخ؛ فالدهشة هي من استولت على مشاعري ولم يعد بإمكانني التفكير إلا في شيء واحد فقط؛ الموت والاستسلام.

استغرق السقوط مني الكثير من الوقت وهو أمر يتنافى مع المسافة الفاصلة بين الشرفة والأرض، ولكنني لن أشعر بالاندهاش

فما عاد هناك ما يثير دهشتي، إلا أنني كنت مخطئة بالطبع، ارتطمت رأسي أخيرًا بشيء صلب؛ ففقدت الوعي أو وافتني المنية -لا أدري- ولكنني متأكدة أن الكون أصبح مطلقًا.. مطلقًا للغاية.

فتحت عيني بعد عدة دقائق وأدركت الموقف الذي أواجهه الآن؛ كانت مياه البحر تحيط بي من كل اتجاه، أما أنا فكانت مستلقية في كفة ميزان عملاق في منتصف البحر!

لم يكن الميزان مستقرًا فوق الأمواج المضطربة، بل كان يترنح فكاد قلبي أن ينخلع من صدري وأنا أشعر أنني على وشك السقوط في المياه، كنت أردد في قرارة نفسي أن ما أراه ليس حقيقيًا وأنني سأنهض من هذا الكابوس عاجلاً أو آجلاً في أي لحظة.

ظلت أفتح عيني وأغلقهما ولكن المشهد لم يتغير أبدًا، تطايرت خصلات شعري بفعل الرياح فاعتدلت في جلستي؛ لأبحث عن أي مخرج من هذا المأزق، ولكنني تجمدت مكاني عندما رأيت أشخاصًا لهم أجساد شاحبة، بعضهم مقطوع الأطراف، والبعض الآخر ينزف الدماء من فمه أو أنفه أو أذنه، أثاروا الهلع في نفسي وهم يصعدون على كفة الميزان الأخرى، ويتوجهون إلى الكفة التي أقف فيها.

لم أكن أعلم قبل هذه اللحظة أن الصراخ مفيد في مثل هذه المواقف، ولكن صوتي لسوء الحظ لا يطاوعني فكلما حاولت أن أصرخ فشلت ولكنني تمكّنت من البكاء؛ فشعرت بدموعي الدافئة وهي تتساقط من مقلتي أنهارًا. اشتدت الرياح وارتفعت الأمواج عاليًا؛ فراح الميزان يدور وكفتاه تتأرجحان في الهواء. لاحظت أن الضوء الأزرق الذي رأيته من قبل في الشرفة يومض بقوة من مصدر

أظنه قريبًا مني ولكنني لم أتبينه بعد، أمسكت في إحدى سلاسل الميزان الضخمة لكي لا أسقط في البحر الهائج، بينما ظل الأشخاص الشاحبون يقتربون مني.

شعرت بألم شديد في قدمي عندما تمكّن أحد الأشخاص الشاحبين من الإمساك بها، ولكنني تمكنت من الصراخ أخيرًا عندما زحفت فتاة صغيرة شاحبة تفوح منها رائحة الموت والعفن، ثم غرست أسنانها السوداء في قدمي وراحت تأكل من لحمي وأنا أشاهدها!

في هذه اللحظة فقط، صرخت حتى كدت أن ألفظ حنجرتي ولكنها لم تتوقف، بل استمرت وهي تأكل في قدمي باستمتاع. ركلتها ركلة قوية فسقطت في البحر، فتقدّم مني واحد منهم وفعل ما فعلته الفتاة فلكمّته ليباعد عني، ثم تقدّم الكثير ولم يعد هناك متسع لي لأفر إليه، وقفت على حافة الكفة ثم حاولت أن ألقى بنفسي في مياه البحر الثائرة والأشخاص الشاحبون يحاولون منعني، ولكنني تمكّنت من القفز أخيرًا. كانت المياه مظلمة وباردة للغاية، وعلى الرغم من أنني كنت بارعة في السباحة إلا أن التيارات الشديدة في البحر لم تساعدني على العوم أبدًا، بل راحت تجذبني إليها فلم أتمكن من الفرار.

رأيت الأضواء الزرقاء في السطح تتراقص، فحاولت أن أسبح إليها وتمكّنت من فعل هذا أخيرًا. ملأت رئتي بالهواء وأنا أشاهد الميزان يقترب مني، فسبحت مبتعدة عنه عندما أدركت أن الضوء الأزرق يأتي من خلف صخرة ضخمة تبعد عني بأمطار قليلة. كان الأشخاص الشاحبون يتساقطون من الميزان فراح بعضهم يسبح خلفي ليلحق

بي، ولكنني كنت أجيد السباحة حتى وصلت أخيرًا إلى تلك الصخرة الضخمة.

صعدت على الصخرة والتقطت أنفاسي، ثم استدرت لأراقب الأشخاص الشاحبين فلم أرهم ولم أجد الميزان العملاق بالطبع؛ فلقد اختفى كل شيء. توهج الضوء من خلفي أكثر فأكثر فأناار المكان حولي إلى تلك الدرجة التي جعلتني أغمض عيني، وعندما حاولت أن أستدير لأرى مصدره وفتحت عيني رأيتني أجلس في غرفتي وأنا أنظر إلى الحائط الذي لم يكن كعادته، بل لطخت بقع سوداء أماكن متفرقة فيه. كانت ملابسني مبتلةً والدماء تتساقط من قدمي؛ فنهضت مسرعةً إلى الخارج لأطلب من الخادمة المساعدة ولكنني رأيت غزل تقف أمامي وهي تنظر لي باندهاش.

سألتني بملامح وجه مكفهر:

- يا إلهي! ما الذي حدث لك؟

لم يكن ينقصني سواها، تجاهلثها وتوجهت إلى الدرج ولكنها لحقت بي وظلت تسألني عما حدث لي، وعندما ألحت ولم تتوقف استدرت وصحت في وجهها:

- لا شيء! لم يحدث لي شيء!

لم أكن شخصًا طباعه حادة ولم أكن من أولئك العصبيين الذين يغضبون من أقل الأشياء، ولكن غزل أمر آخر، فإنها تخرج أسوأ ما في المرء. سمعت خطوات تصعد الدرج فإذا بي أرى آدم وهو ينظر لي مقطب الجبين متعجبًا لما يشاهده.

سألني:

- ما الذي يحدث هنا؟ هل أنتما بخير؟

سبقتني غزل قائلةً وهي تتظاهر بالحزن:

- لا أدري يا آدم، إنها تصيح في وجهي لأنني فقط سألتها عن حالتها الغريبة. هل أخطأت في رأيك؟

أدركت أننا لا نتحدث بمفردنا بل اجتمع جميع الخدم ليشاهدوا ما يحدث، وما زاد الطين بلة أن راكان أتى مسرعًا ظنًا منه أن هناك شيئًا سيئًا يحدث بالداخل. تسمر في مكانه وهو يتطلع إلى حالتي الغريبة، وعندما لاحظ النزيف في قدمي خلع شترته وأسرع ناحيتي، ثم انحني ليوقف النزيف بينما شاهدته غزل وهي تجز على أسنانها من الغيظ.

طلبت منه أن يتركني وألا يساعدني، ثم غادرث وتوجهت إلى البحيرة دون الاكتراث للإحراج الذي سببته لراكان، وللحق هذا أكثر ما يؤلمني؛ فأنا لست من الأشخاص السيئين الذين لا يراعون مشاعر الآخرين، ولكنني كنت هكذا الليلة فقط على الأقل.

وقفت على شاطئ البحيرة فكانت المياه تزيل الدماء من قدمي، ولم أكرث إلى نظرات الحراس ولم أهتم بهمساتهم، لا بد أن الجميع يرتاب في أمري. نعم، أنا مريضة والكل يعرف الآن، ولكنني غاضبة، وإن الغضب راح يتأجج بداخلي كالنيران، ولكنني أخشى كثيرًا أن تلتهمني أو الأسوأ تلتهم من حولي!

سمعت خطوات أقدام تتجه نحوي؛ فاستدرث بغیظ لأخبر أيًا

كان من يقترب مني بأن يذهب بعيدًا عني، ولكنني سكث على الفور عندما رأيث ميرال ابنة آدم الوحيدة وهي تتقدم مني بهدوئها المعتاد والمخيف في الوقت ذاته.

قالت بصوتٍ منخفض:

- لقد كُنتُ هناك، عند الميزان العملاق!

يا إلهي! لقد عاشت المسكينة ما عشته منذ قليل، ولكن ماذا يعني هذا بالضبط؟ لا بد أن يعني ما نراه شيئًا ولكنني حقًا ضائعة، وإن ما زاد الأمر سوءًا أنني لا يمكن أن أشارك أحدًا بما أراه، وإلا كانت نهايتي مثل والدتي ومن سبقوها، وإن أكر ما يفزعني هو أن يتم احتجازي بداخل غرفة ما في مكان بعيد.

سألثها وأنا أضع كلتا يديّ حول وجنتيها برفق:

- ما الذي رأيته هناك يا ميرال؟ ومن هم الملائكة يا عزيزتي؟

نظرت إليّ بعينيها الحزینتين، ثم قالت بعد تشجيع مني:

- كان الشاحبون يحاولوا قتلي فوق الميزان.

كان الفضول يتأجج بداخلي، شجعته على التحدث أكثر، فأردفت:

- هناك أضواء زرقاء رأيثها قادمة من خلف الصخرة.

- ومن هم الملائكة؟

سألثها بحماس فلم ترد في البداية، ولكنها قالت أخيرًا:

- إنني أراهم في الممر ليلاً يسرون وهم يحملون الشموع

ويرتدون الأقنعة المخيفة.

- هل تقصدين ممر الغرف في الطابق الثاني؟

لم ترد واكتفت بالصمت؛ فشعرث بالاستياء فناشدتها:

- ميرال.. حلوتي الصغيرة.. الأمر سيء للغاية، لا بد أن أعرف ما تريئه وما تعرفينه حتى أتمكن من مساعدتك، وإلا سيأتي الأشخاص السيئون ليأخذوك بعيدًا عن والدك وجدك. هل تريدين أن يحدث هذا؟

أومأت بالنفي بطريقة الهادئة التي توحى دائمًا أن هناك من يراقب كلامها وأنه على استعداد لإيذائها إن أفشت بما تعرفه، تلفتت حولها ثانية ثم همست في أذني:  - إنني أراهم في الممر الآخر للقلعة.. الممر المظلم.

تطلعت في وجهها البريء وتساءلت عفاً تعنيه، ولكنها تركتني وجرت مسرعةً إلى والدها الذي أمسك بها واحتضنها بحنان، ثم أمر إحدى الخادومات أن تأتي لتصحبها إلى الأعلى. قال وهو يبتسم:

- هل أنت بخير الآن؟

- نعم، لم أكن أفضل!

اتسعت ابتسامته للتعبير عن عدم تصديقه ما أقول، سألني:

- هل فكرت في عرض الذهاب إلى الحفل التنكري؟

أغمضت عيني بضيق ولكنني عذمت على ألا أكون فظة معه، فيكفي ما فعلته اليوم مع الكل. كنت على وشك أن أرفض بأدب

قدر المستطاع، ولكنني رأيت غزل وهي تضحك بصوت عالٍ وهي تقف بجانب راكان والذي كان يبدو عليه الاستمتاع بصحبته؛ عندما لاحظ آدم ما أنظر إليه قال:

- لا تكثرني لأمرها، إنها فقط غزل؛ الفتاة الحمقاء التي تعشق راكان حبيبها السابق.

هكذا إذن! كانا عاشقين من قبل؛ ولهذا السبب هي تكرهني ظناً منها أنه يحبني أو ما شابه، أو ربما تراني كمصدر تهديد لها. مسكينة غزل! لو تعلم أن راكان لا يطيق وجودي في القلعة، لجاءت واعتذرت مني بكل احترام. استغرق الأمر من آدم نحو العشر دقائق وهو يحاول إقناعي بحضور الحفل، فتارةً يقول أن وجودي سوف يكون له تأثير هام في المتبرعين ليشجعهم على وضع أموال أكثر في صندوق التبرعات، وتارةً يخبرني أن ما حدث لوالدتي مؤخرًا يؤثر على حالتي النفسية وأني لا بد أن أغير نمط حياتي الكئيب على حد قوله، وبالتالي وافقت على الذهاب معه ليتركني وشأني.

في اليوم التالي، وبعد انتهاء اليوم الدراسي في الميتم ارتديت الثوب الزهري المصنوع من الحرير، ووضعت قناعاً أسود يغطي كل شيء في وجهي عدا عيني وفمي، ونزلت الدرج لأجد آدم بانتظاري، ولكنني تفاجأت عندما رأيت راكان وهو يرتدي حلة سوداء زادت من وسامته، يقف مع غزل التي كانت بارعة الجمال بدورها؛ إنه من سيصحبها إلى الحفل إذن.

صعدت على متن العربة مع آدم، وسرنا في دروب سالتيورا حتى

وصلنا إلى مبنى الحفل. وقفْتُ أشاهد بوابة المبنى الفاخرة وهي
تزدان بالورود، وتتصاعد من داخلها ألحانٌ موسيقية رائعة أذابت
قلبي من عذوبتها، دلفْتُ إلى الداخل بعدما سلّم آدم الحراس تلك
الدعوة التي أخذها من والده؛ فتفاجأتُ بعددٍ كبيرٍ من الحضور
أغلبهم من أسياد سالتيوراء الأثرياء والقليل من السكان الأصليين،
راح البعض منهم يرقص بمرحٍ والبعض الآخر انخرط في حديثٍ جادٍ
باركته النخلة والنبيذ!

عزفت الفرقة الموسيقية ألحانًا جعلت أوتار قلبي ترتجف مثل
الكمّان؛ فتلك الألحان العذبة أثارت في نفسي شعورًا غريبًا لم أشعر
به من قبل وأنا أنظر إلى ذلك الرجل الغامض المرتدي لبدة سوداء
قائمة اللون أنيقة للغاية، يخفي بعض ملامح وجهه بقناعٍ تنكري
يناسب أجواء الحفلة، لا يظهر منه سوى عينيه البندقيتين وشفتيه
اللتين ارتسمتا عليهما ابتسامة غريبة أراها لأول مرة وهو ينظر لي،
أم أنه لا ينظر لي؟

دقّ قلبي كطبول الحرب وأنا أراقب راكان يتقدّم ناحيتي بخطواتٍ
متردة وكأنه ليس متأكدًا من الخطوة التي هو على وشك أن
يتخذها. وقفْتُ بعيدًا عن التجمعات كعادتي أحاول أن أشتت
أنظارني؛ حتى لا أظل محمّلةً في وجهه كالبهاء ولكنني فشلت؛ إذ
كانت عيناى سرعان ما يلتقيان بعينيه مرةً أخرى ليتعانقا وكأنهما
عاجزان عن الافتراق!

وددتُ أن أفنى في عينيه البندقيتين، أن أغرق في بحرهما الدافئ،
أن نبتعد عن هنا ولا نكثرث لأي شيء، ولكنني حتى لست متأكّدة

مما يشعر به تجاهي، هل قلبه ينبض بعشقي كما يفعل قلبي؟ أم أنه
زير نساء آخر يعيش معنا مثل كسائر رجال الكينمارو؟ ما أعرفه الآن
أن ذلك الرجل نظراته تقتلني، تُشعل قلبي البائس وتغرقه بمرارة
العشق فيتجرعه المسكين على فترات، وكأنه دواء أم هو شَم قاتل
سيفتك به؟ لست أدري، ولكنني على يقين أنني لم أعد أحتمل رؤية
غزل بجانبه.

تجهم وجهي وأنا أراها تقترب منه، ولا أدري السبب الذي جعلني
أشعر بالدوار فكانت القاعة تدور من حولي، ربما لأنني لم أكل شيئاً
اليوم، وربما الغضب المكتوم بداخلي هو من يؤلم روحي ويمرضها!

أعتقد أنه شعر بتوتري؛ لأنه زاد من سرعة خطواته ليمسك بي إن
وقعت على الأرض أو ما شابه، ولكنه تسمر في مكانه عندما رأى آدم
وهو يحيط ذراعيه بي حتى لا أسقط.

يا للحسرة! نظرت إلى راكان بقلبٍ دامٍ في حين وقف آدم كالحائط
الذي يعيق عناق النظرات بيننا، ابتسم آدم لي وقال ممازحاً:

- هل رؤيتي هكذا كادت أن تفقدك وعيك؟

عاتبته نظراتي وأخبرته ألف كلمةٍ عجز لساني عن نطقها؛ فقطب
جبينه غير مدركٍ لسخافة ما فعله بي. عدتُ أنظر إلى راكان مرةً
أخرى؛ لأنني اشتقتُ إلى عينيه مجدداً، ولكنني فقدتُ النطق وانعقد
لساني عندما رأيته تقف بجانبه وهي تضحك بدلال.

على الرغم من أن مسافةً ليست بالقصيرة تفصل بيننا إلا أنني
تمكّنتُ من فهم ما يقال بينهما، فحركات جسديهما وتعبيرات

وجهيهما تشرح كل شيء؛ فلقد كان واضحًا كالشمس في كبد السماء أنه يطلب منها مشاركته الرقص ليلتصق جسده بجسدها، بينما وقفت أنا أشاهد بحسرة وقلبٍ مشتعل من نيران الغيرة، ولكنني حزينة وغاضبة من نفسي كثيرًا، فلماذا سمحت لنفسي بالوقوع في برائن عشقه كالفريسة الغبية التي تذهب إلى جلادها بكل إرادة وسهولة؟

إنها حبيبته السابقة والكل يعلم هذا، حتى هو لم يدخر جهدًا في إخفاء عشقه لها فها هو الآن يعلنها صراحةً لكل مشكك في مشاعره ناحيتها. يا له من شخص أنيق يعرف كيف يعامل المرأة بحق!

لم يكن تمايلهما على أنغام الموسيقى بحبٍ ولوعة الأمر الوحيد الذي أثار دهشتي، بل تلك المعاملة الجافة التي عاملني بها أوقائيًا كثيرة، والغضب المكتوم الذي كان يحاول أن يخفيه عني، ولكن عينيه كانتا تفضحانه في كل مرة، حتى ظننته عدوًا لجميع نساء الأرض ولكنه الآن يدهشني كعادته؛ فهو يحيط خصرها بذراعيه وينظر إلى عينيها بلهيب شوقٍ يكاد يحرق من حولهما.

أظن أن آدم لاحظ الدموع التي تجمعت في ثقلتي؛ فهمس في أذني بنبرة بها حزنٌ حاول إخفاءها ولكنه فشل في هذا:

- هل ترقصين معي؟

نظرتُ بحسرة إلى عينيه المتوسلتين من أسفل القناع، ثم عاودت النظر إلى طيور الحب المتراقصة على الألحان التي كرهتها الآن. اقتربتُ من أذنه وهمستُ بقبولي مشاركته الرقص وأنا أنظر إلى راكان الذي ولدهشتي كان يبادلني النظرات، وكأن اقترابي من آدم

هكذا لفت انتباهه فلم تفترق عيناه عني الآن، ولكنني كنت كالطير الجريح أرفرف بجناح كسرتة الخيبة وحظمه اليأس؛ فلم أكثر لتوقفه عن الرقص أو لابتعاده عنها ووقوفه وهو يحمل في وجهي غير مصدق لما أفعله.

أحاط آدم خصري بيديه وهو يرقص معي، بينما استقرت يداي على كتفيه فشرعنا في الرقص على ألحان الألم والمواساة وكأن كلينا يعانق خيبة أمله، بينما ظل راكان يراقبنا بوجه عابس.

همس آدم في أذني قائلاً:

- أود أن أعترف لك بشيء.

كاد آدم أن يكمل كلامه، ولكنني قاطعته عندما قلت:

- أعتذر منك يا آدم، فأنا أشعر بالدوار وأحتاج إلى استنشاق الهواء الآن.

خرجت كلماتي غير مرتبة ومرتبكة وكأنها لا تعرف من تصيب ومن تخطئ!

ذهبت بخطوات واسعة باتجاه البوابة وأنا أكافح لكبح جماح الدموع التي ثارت في عيني وستفضح أمري في أية لحظة، ولكنه كان هناك يسير ببطء بين الأشخاص في الحفل دون أن يراه أحد سواي.

كان ينظر لي وحدي، لا ينبغي أن أنهار أمامهم الآن، فلو صرخت أو صدرت مني أية حركات هوجائية سيُفتضح أمري ولسوف يعرف القاصي والداني أن ابنة حاكم سالتيوراً مصابة بالمرض اللعين؛ ولهذا

السبب لم أجرو على الحركة أو إصدار أي صوت وأنا أراقبه وهو يسير بينهم. لم يفعل شيئًا سوى أنه كان يسير ويقترب مني بقناعه المخيف ونظراته المرعبة.

حتى أتجنب أن أنهار في أي لحظة؛ توجهت بسرعة نحو الباب دون الاكتراث للتبرعات أو لإلقاء الكلمة كما كان مخططًا لي من أصحاب الحفل.

لم تكن العربة بانتظاري؛ فوجدت نفسي أسير بسرعة في شوارع سالتيورا بغير اهتمام لا أدري إلى أين أذهب ولماذا. أصابتني الدهشة عندما رأيث الغابة التي تفصل بين قلعة تيلارين والميدان الكبير أمامي تقف بشموخ وكأنها بانتظاري لاحتضاني، تسقرت أمامها ونظرت إلى ظلامها وجسدي يرتجف من البرد والحزن والخوف مما أنا مقدمة على فعله؛ فهذه الغابة يسكنها الشر كما يُقال عنها، ولكنني لا أملك سوى هذا الاختيار فأنا لن أعود إلى الحفل لأرى كوابيسي تسير على الأرض أمامي بشموخ ولن أتجول في شوارع سالتيورا؛ فالسكان الأصليون المتطرفون يختبئون في كل شبر فيها.

لا أعرف عدد الأمطار التي مشيئها ولكنني شعرت بضيق في التنفس، فتوقفت لألتقط أنفاسي ومن حولي الظلام الدامس يثير الرعب في نفسي، لا أدري لماذا لم أكثر كثيرًا لذلك الشعور، بل على العكس تمامًا بدأت في السير مرة أخرى حتى وصلت إلى القلعة قطعة واحدة دون أن يمسنني سوء.

وقفت أمام شاطئ البحيرة، واستنشقت أكبر قدر من الهواء لعل قلبي الصريع يُعاد إلى الحياة ثانية، ولكن هيهات! جلست على

المقعد أمام البحيرة لمدة طويلة دون الشعور بالوقت، وبكيث لفترة من الزمن حتى سمعت صوتًا أعرفه جيدًا؛ فاستدرت لتلتقي عيناى بعينيه الدافئتين.

كيف سيسوء هذا اليوم أكثر من هذا؟ لقد رأى نظراتي التي فضحتني ونيران الغيرة تنبعث منها، ثم رآني وأنا أهرب من آدم كمن لدغني عقرب، ولكنه لم يكتفِ بل لحق بي بصحبته ليشمت في قلبي المبتور وليراني مهزومةً أمامه أبكي لأجله.

اقتربت غزل مني وهي تقول بخبتها المعتاد:

- آه منك يا آدم، يا زير النساء! لقد أحزنك ذلك الوغد. أليس كذلك؟ تصاعدت الدماء إلى رأسي وأنا أنظر إليها غير مصدقة لما سمعته لتوي؛ إنها شخص يتسم بالبجاجة ولكن ليس إلى هذه الدرجة بحق الإله. كيف تقف أمامي الآن وتتهمني أنني أكثرث لأمر آدم وزير نسائه؟! هل تكيد لي تلك المعتوهة؟ أم أنها تظن أن سؤالها هذا سيجعل راكان يقتنع أنني أحب آدم؟ وددت لو أنني أخبرتها أن تطمئن قلبها الرقيق فإن راكان لا يكن لي أي مشاعر من الأساس؛ فهذه المحاولات المضنية للفت انتباهه إلى حبي لرجل غيره ستبوء بالفشل؛ لأنه وببساطة لا يكثرث لأمرى في المقام الأول!

لم أرد على سؤالها السخيف واكتفيت بالتحديق إلى البحيرة، بينما عادت تضغط على جرحي النازف وهي تقول بحنانٍ مصطنع:

- عزيزتي مارية، آه يا روجي أنت لا تستحقين شخصًا مريضًا مثله، بل تحتاجين إلى رجلٍ بحقٍ مثل ذلك الوسيم الذي يقف هناك

يراقبنا.

أشارت إلى راكان الذي كان يتحدث مع أحد الحراس وهو يمسك بالقناع في يده بعد أن نزعته، فنظرت إليها وابتسمت بسماجة ثم قلت:

- غزل، إنه لا يراني أنا شبح بالنسبة إليه، وهو لا يرى أحدًا سواك، وللحق أيًا كان ما تفعلينه الآن هو مضيعة لوقتكَ الثمين.

نهضت وتوجهت إلى القلعة لأصعد إلى غرفتي، فلمحت السيد ليرون وهو يتحدث بعصبية مع أحد الأشخاص في الهاتف، ولكنه قال شيئًا جعلني أتسمر مكاني.

- ماذا تعني باختفاء جميع المرضى في العزل الصحي؟!

الباب المخيف

استعرت نيران الشغب في حي المصانع والأحياء الأخرى فاختلف الأمان في الضواحي؛ حيث كانت منشورات فرسان الرب تسقط في كل مكان، والتي كانت تحذر السكان من الهلاك والموت الحتمي. عمت الفوضى سائر الأحياء في المدينة؛ فأصبح من الصعب أن يخرج السكان الأصليون من بيوتهم أو الذهاب إلى أعمالهم؛ ولهذا السبب كان السيد ليرون يجري اتصالات عديدة للسيطرة على الوضع في حي المصانع حتى لا يتوقف مصنعه عن العمل، فيتكبد هو خسائر فادحة. على الرغم من أنه كان يُظهر رباطة جأش مزيفة أمام الناس فإنه كان ينهار من الضغوطات الثقيلة على قلبه عندما كان يجلس بمفرده في غرفته، ويفكر في الحلول الممكنة لهذا المأزق الذي لم يمر بمثله من قبل.

أخبرته الخادمة في ذلك اليوم المشؤوم على حد وصفه أن السيد يوهان -نائب الحاكم- يرغب في مقابلته عاجلاً، فحدد الموعد الذي بإمكانه استقباله فيه، وعندما وصل جلس في مكتب السيد ليرون وعلامات القلق والحنق تظهر على وجهه.

قال وهو يسلم السيد ليرون إحدى منشورات فرسان الرب:

- إنهم يدعون شباب المدينة إلى الانضمام إليهم متخذين من الشغب والفوضى ديثاً جديداً لهم.

"انضم إلى فرسان الرب، وطهر نفسك من الذنوب أو لا تنضم فتحرقك نيران الانتقام".

قرأها السيد ليرون بصوت عالٍ، ثم ألقى بها بعيدًا وقال بسخرية:

- ما هذا الهراء؟ هل تخافون حقًا من هذه الكلمات الرديئة؟

- الأمر ليس كما تظن يا سيد ليرون، المشكلة الأكبر هي نهب المتاجر والأسواق ثم إغلاقها، وحرب الشوارع التي شنها فرسان الرب ضد الشرطة والمدينة بأسرها، الوضع خارج عن السيطرة حقًا.

تصاعدت الدماء إلى رأس السيد ليرون؛ فاستشاط غضبًا ثم ضرب المكتب بيده تعبيرًا عن حنقه قائلاً:

- ما الذي تحدث عنه يا هذا؟ مجموعة من الأطفال لا يمكنكم السيطرة عليهم حقًا؟

أجابه نائب الحاكم بتردد:

- عجزت الشرطة عن العثور على مقراتهم يا سيدي، إنهم بارعون حقًا في إخفاء مكانهم وهويتهم. حتى أننا لا نعرف ماذا يريدون بالضبط، ومع انتشار المرض اللعين في المدينة أصبحت الأمور خارجة عن السيطرة قليلًا.

كان السيد ليرون يجز على أسنانه من الغيظ، فسأله بهدوء مصطنع:

- وما هي خطتكم لمواجهة هذه المشكلة بالضبط؟

- هذا هو ما أتيت اليوم لأناقشه معك يا سيدي، إن المجلس الحاكم يرى أنه من الأفضل أن نفرض حظر التجوال في المدينة هذه الأيام، حتى تتمكن الشرطة من القبض على هذه الطائفة.

أغمض السيد ليرون عينيه وهو يفكر في هذه المصيبة التي سوف تجعله يدفع الثمن باهظًا، ولكنه أدرك أنه لا سبيل إلى الخروج من هذا المأزق إلا بتنفيذ ما يخبره به نائب الحاكم، فأوماً ثم قال باستسلام:

- أتمنى ألا يطول الأمر.

نهض النائب ورحل تاركًا السيد ليرون وحده في مكتبه وهو يفكر في كل ما يملكه، فلم تكن القلعة ولا المصانع هم ثروته الوحيدة، بل إن سالتيورًا بأكملها ملك له، ولكنه لم يظهر في الصور الرسمية على أنه الحاكم، بل كان يحكم المدينة فعليًا ولكن بعيدًا عن أنظار العالم.

دخلت الخادمة مرةً أخرى بعدما طرقت الباب؛ لتخبر السيد ليرون أن هناك مكالمةً عاجلةً من الحاكم، فتعجب لأن الأخير لا يتحدث معه في الهاتف أبدًا. ذهب وأمسك السماعة وما إن سمع ما قيل له صاح بعصبية:

- ماذا تعني باختفاء جميع المرضى في العزل الصحي؟

توقفت مارية مكانها ما إن سمعت ما قاله السيد ليرون؛ فهي تعلم أن والدتها واحدة من المرضى الذين اختفوا من العزل الصحي، ولكن هذا لم يكن الشيء الوحيد الذي أثار خوفها وغضبها، بل إدراكها أن السيد ليرون يعلم المكان الذي تمكث فيه والدتها ومع ذلك كذب الجميع عليها وكان أولهم راكان؛ عندما أخبرها أنهم لا يعلمون المكان الذي ستتوجه إليه. أصابها ما سمعته بالغضب الشديد؛ فاستدارت لتصعد إلى غرفتها ولكنها اصطدمت براكان، وما أن رآته حتى تصاعدت الدماء في رأسها ونظرت إليه بتجهم، كادت أن تواصل

طريقها إلى غرفتها ولكنه لحق بها ثم أمسك بذراعها.

سألها متوترًا:

- هل كل شيء على ما يرام؟

نظرت بحنق إلى يده التي تمسك بذراعها فأبعدتها عنه بقسوة، وقالت وهي تحاول ألا تبكي أمامه:

- لقد كذبت يا راكان، وأنا لا أسامح الكاذبين.

لم يفهم راكان ما تعنيه؛ فسألها وقلبه يرفرف في صدره من التوتر:

- كذبت عليك؟! سامحيني آنسة مارية، ولكنني لا أفهم حقًا.

رمقته بنظرة عتاب ولؤم ولكنها لم توضح له شيئًا، ثم صعدت إلى غرفتها.

جلست على فراشها وهي تنظر إلى جدران الغرفة التي تلطخت بالبقع السوداء الغريبة، وأمعنت النظر فيها والأفكار تتصارع في رأسها. نهضت ووقفت أمام الجدار وهي تتحسس بيدها، فتساقط الدهان على الأرض ليفصح عن بقعة كبيرة أشد قتامة من تلك التي كانت على الجدار من الخارج.

وقفت مارية تنظر إلى الجدران بدون فهم؛ فأصابها غضب شديد لأنها سأمت من كل ما يحدث، فصرخت وبدأت في ضرب الجدار بيدها التي نزفت على الفور.

توقفت عما تفعله عندما فتح آدم الباب ودخل ليراها في هذه الحالة، فاقترب منها وأمسك بيدها وأحضر منديلًا كان على المنضدة

ليضمد جرحها. كانت تبكي بحرقة وهو ينظر إليها دون فهم لما يحدث معها، ولكنه توقّع أنها مستاءة بسبب اختفاء والدتها من العزل الصحي.

قال لها برفق:

- أعدكِ أنني سأعثر عليها.

شعرت مارية أنها ستفقد عقلها إن لم تشارك أحدهم ما تراه وما يحدث معها، ولكنها حتى هذه اللحظة لم تجد من تأتمنه على أسرارها. سألت آدم عن البقع السوداء في الجدران حتى لا تُصاب بالجنون، فنظر إليها باستغراب ثم قال:

- لا أفهم، عن أي بقع سوداء تتحدثين؟

لم ترغب مارية في إثارة الشك في نفسه فلم تجبه، بل نهضت وتركته دون أن تعلق على كلامه وتوجهت إلى خارج القلعة لتقف على شاطئ البحيرة.

كان راكان يجلس على المقعد أمام البحيرة كعادته، فما إن رآها نهض من مكانه وحاول ألا ينظر إلى عينيها؛ فهو تحمّل منها قسوة وبرودًا لم تتحمّله كرامته من قبل.

تجاهلته مارية واستنشقت الهواء البارد لتهدأ، ثم توجهت إلى أحد الحراس عندما رأت جريدة في يديه، أخذتها منه دون أن تنطق بحرف فلم يعترض الحارس بل ابتسم لها. أمسكت بالجريدة لتقرأ ما كُتب عليها، كانت الأخبار عبثية غريبة كما لم يسبق لها أن قرأتها من قبل؛ فالصفحة الأولى تتحدّث عن اختفاء المرضى من

العزل الصحي، والصفحة الثانية تتحدث عن ارتفاع عدد ضحايا المرض، أما الصفحة الثالثة فتحدثت عن طائفة فرسان الرب وعن اختبائهم خلف أقنعة مخيفة تبت الهلع في المدينة. لم تكن هذه العناوين جديدة عليها؛ فهي تعرف كل ما يدور في هذه الصفحات، ولكن الصفحة الرابعة جعلتها تتوقف عن التنفس مما قرأته؛ تتحدث هذه الصفحة عن أضواء زرقاء يتم رؤيتها بين الحين والآخر من قبل بعض البحارة، ولكنهم يؤكّدون على أن رؤيتها ازدادت مؤخرًا مما جعلها تترك الجريدة وتتوجه إلى البوابة لتذهب إلى الشاطئ؛ لتراقبها عن كثب.

أسرع راكان خلفها وأمسك بذراعها وهو يسألها بصرامة:

- ما الذي تفعلينه بحق الإله؟

لم ترد عليه وأبعدت يده عنها، ثم استمرت في السير نحو البوابة، ولكن راكان عاد يقول وهو يحاول ألا يغضب:

- آنسة مارية، توقفي من فضلك.

استدارت واقتربت منه، ثم قالت بعصبية:

- لماذا يهملك أمري في المقام الأول؟

أجابها بهدوء جعلها تستشيط غضبًا:

- لأنك ابنة الحاكم أولاً وضييفة السيد ليرون ثانيًا، ولا بد أن أحمي كل من يعيش في القلعة.. هذا واجبي.

تبادلت النظرات معه، ثم ابتسمت وضحكت حتى أدمعت عينيها،

كانت الشكوك تساور راكان من قبل ولكنه أصبح على يقين أنها مصابة بالمرض؛ فأمسك بذراعها وخرج معها من البوابة والكل ينظر إليه باستغراب.

سارت معه دون اعتراض؛ فقال بمجرد ما أن خرج من البوابة:
- آنسة مارية، يجب أن أعرف الآن، هل أنتِ ترين أشياء غريبة لا يراها أحدٌ سواكِ؟

لم تجد مارية سببًا مقنعًا يجعلها تكذب وتخفي مرضها عنه أكثر من هذا، فأومت ثم انهارت من البكاء وهي تحكي له كل شيء. أنصت إليها وهو يحاول أن يربط الأحداث ببعضها، وعندما لم يتوصل إلى شيء، قال:

- حسنًا، أعدكِ أنني لن أخبر أحدًا بما يحدث معكِ، وأنه لن يتمكن أحدهم من أخذكِ بالقوة إلى أي مكان، لا العزل الصحي ولا قصر الحاكم ولا غيرهما.

شعرت مارية أن قلبها أصبح كالريشة خفيف لا يثقله شيء، حتى أن أعصابها هدأت كثيرًا بعدما باحت له بكل شيء، ولدهشتها أخبرها راكان أن هناك شيئًا وحيثًا لم تتخيله؛ فإن الأضواء الزرقاء الآتية من البحر تمت رؤيتها لسنوات عديدة، حتى أن غزل رأتها وتكلمت معه عنها. بمجرد ما سمعت مارية اسم غزل تجهم وجهها مرةً أخرى، واعتذرت منه لتعود إلى غرفتها بحجة أنها تشعر بالإعياء وأنها ترغب في النوم.

عندما عادت إلى البهو في القلعة، بدأت أصوات الترانيم المخيفة

تعلو فتسمّرت مارية مكانها وهي تنظر إلى الباب الذي ظهر فجأة أمامها.

عمّت الفوضى في أرجاء قصر الحاكم؛ فالهاتف لا يكف أبدًا عن الرنين وإما تكون الأخبار دائمًا سيئة، أو يكون الأمر هامًا وعاجلاً يستوجب اتخاذ قرارٍ سريعة ولكنها يجب أن تكون حكيمة، وإلا كانت العواقب كارثية. لم يفارق كأس النبيذ يد الحاكم؛ فكلما شعر بالتوتر والضغط الشديد كلما زادت جرعاته مؤخرًا.

مهما حاول الحاكم أن يخفي عن الجرائد ما يحدث في المدينة فإنه ومجلسه يفشلون دائمًا، وهو الأمر الذي جعل الكثير من أغنياء سالتيورا يبغضونه ويرونه الحاكم الضعيف، الذي يحدث في عصره الكثير من الكوارث دون أن يتصدى لها.

كان العبء ثقیلاً عليه حقًا، وما زاد الطين بلة أن ابنته الوحيدة لا ترغب في التحدث معه.

كان يجلس في مكتبه وحيدًا وهو يدخل الغليون بشراهة، فامتلات الغرفة بالضباب الأبيض، ولكنه توقّف عن التدخين عندما ظنّ أنه رأى خيالًا ما مرّ من أمام مكتبه خارج الغرفة، فترك الغليون ونهض ليرى ما يحدث بالخارج. كان الخدم ينامون في القبو فلم يكن أحدٌ مستيقظ سواه؛ نظر يمينه ويساره ولكنه لم يجد أحدًا، ولكنه سمع أصوات شيء يرتطم على الأرضية يأتي من الطابق العلوي. صعد إلى الطابق الثاني وهو ينظر إلى لوحات الحكام الذين سبقوه؛ فخيّل إليه أنه شاهد اللوحة التي رُسم عليها أنها تتحرك من

مكانها، ولكنه ابتسم وهو يلعن نائبه بسبب الغليون القوي الذي جلبه إليه.

استدار لينزل إلى مكتبه ولكنه سمع ارتطام شيء بالأرض مرة أخرى؛ فنظر خلفه ليجد لوحته على الأرض، توجه إليها وأمسك بها ليكتشف أنها ممزقة وكان هناك حيوانًا ما تسببت مخالفه في تمزيقها هكذا.

قطب جبينه وهو ينظر إلى جسده الممزق في اللوحة، وقبل أن يفتح فمه لينادي على أحد الحراس انطفأت الأنوار جميعها؛ فأصبح المكان معتماً كظلمة القبور!

لم يكن الحاكم ممن يخافون بسهولة، ولكن الجو العام في المكان جعله يلتفت حوله بحثًا عن المصاييح، ولكنه لم يعثر على شيء. تسمر مكانه بلا حركة عندما سمع صوتًا أنثويًا يقهقه بطريقة مخيفة يأتي من خلفه، تردد صدى ضحكاتها في القصر بطريقة جعلته يتوقف عن الحركة تمامًا. لم يؤمن الحاكم بأن المرض المنتشر حقيقي، بل كان يظن أن من يصاب به يدعي بأنه يرى أشياء غير حقيقية ليبرر قتله لمن حوله، ولكن الآن الأمر مختلف تمامًا؛ فهو يقف على بعد خطوات من امرأة تضحك بطريقة مرعبة ويتردد صدى ضحكاتها في المكان المظلم من حوله.

كلما تعالت ضحكات المرأة المخيفة اهتزت اللوحة في يديه فلم يفهم ما يحدث، ولكنه خائف بشدة، ألقي باللوحة بعيدًا واستدار ليحاول أن يرى من يضحك ولكن المكان مظلم للغاية. اشتعل مصباح بعيدًا عنه فجأة فأضاء المكان إلى حد ما فكانت الرؤية

ممكنة، ولكن الضحكات توقفت وحلت مكانها صرخات لأطفالٍ صغار شاحبين، أعينهم سوداء لا بياض فيها، وأسنانهم تنزف سائلًا أسود كريحه الرائحة، كانوا يلتفون حوله وهو يقف في مركز الدائرة خائفًا لا حول له ولا قوة.

وضع كلتا يديه على أذنيه؛ ليمنع الصرخات المفزعة من التسبب في الألم لهما أكثر من هذا ولكنه فشل، نزفت الدماء من أذنيه فصرخ كالمجانين وظل يضرب رأسه من شدة الألم.

صعدت إحدى الخادMAT إليه عندما سمعت الصراخ، وعندما رآته ينزف من أذنيه ويضرب رأسه بهذا الشكل الجنوني اقتربت منه بحذرٍ وقبل أن تنطق بكلمة أحاط عنقها بكلتا يديه وظل يضغط عليهما والمسكينة لا تفهم ما يحدث لها. كانت الفتاة ترى المرأة القبيحة ذات الشعر الأسود ولون البشرة الشاحب وهي تهمس في أذن الحاكم بأشياء لم تتبينها. حاولت الخادمة أن تضربه فنجحت بالفعل عندما أمسكت بالشمعدان الذي كان يستقر بداخل المشكاة على يمينها، فانهالت عليه بضرباتٍ موجهة حتى نزفت رأسه، وبكل ما تحمله من حقدٍ تجاهه بسبب تحرشاته بها على مدار أعوامٍ وهي مكمة الفم لا تنطق ولا تشتكي، راحت تضرب رأسه وتهشمها حتى خارت قواه تمامًا وسكنت حركاته.

صعدت الخادMAT الأخريات وعندما رأين الحاكم وهو غارق في بركة الدماء صرخن وضربن بأكفهن على وجوههن؛ فعرف الحراس بالأمر وانتشر الخبر كالنار في الهشيم في كل أنحاء المدينة.

تم القبض على الخادمة المسكينة التي ظلت تنوح وتصرخ بأنه

حاول قتلها، وأنه كان يتحرش بها من قبل ولكنها من السكان الأصليين ولن يصدقها أحد بالطبع، فتم القبض عليها ورميها في أحد السجون لمحاكمتها والتي لن تكون سوى القتل بأبشع الطرق كعادة الكينمارو.

اجتمع السيد ليرون مع ابنه وأعضاء مجلس الحاكم؛ لمناقشة التطورات الأخيرة في المدينة للسيطرة على حالة الهلع التي نشبت فيها، فأصبح من الصعب أن يسيطروا على زمام الأمور وخاصة بعدما تم فرض حظر التجوال بعد السادسة مساءً.

تحدث نائب الحاكم عن رسائل التهديد التي كان يستلمها بين الحين والآخر لتهديد الحاكم الراحل، فوضعها على المنضدة أمام الرجال وهم ينظرون إليها بوجوه مكفهرة.

قال السيد ليرون:

- من الذي سلمها إليك؟

- لم يسلمها لي أحد يا سيدي، لقد تم العثور عليها فجأة دون أن يسلمها أحد للحاكم، أو بالأحرى لقد عثرت هي عليه، وعندما قرأها سلمها لي على الفور.

قالها نائب الحاكم، فزفر السيد ليرون بقوة ثم قال:

- لا بد أن نسيطر على الوضع أكثر من هذا، أعلنوا عن جائزة مالية لمن يسلم طائفة فرسان الرب، أو من يقبض على ذلك الذي يرسل رسائل التهديد.

قال نائب الحاكم:

- لقد أخبرتك يا سيد ليرون، أنه لم يكن هناك أحد ليسلم الرسائل إلى الحاكم، لقد كانت تظهر من العدم فجأة.

صاح السيد ليرون بعصبية وهو يضرب بيده على المكتب تعبيرًا عن غضبه الشديد مما يُقال:

- هل تسمع أذنك ما يخرج من فمك يا رجل؟ كيف لرسائل التهديد أن تظهر من العدم؟

تدخل آدم في الحوار قائلاً:

- أيها السادة، لا يهم الآن من يرسل التهديدات أو كيفية وصولها إلينا، بل الأهم حقًا هو السيطرة على السكان الأصليين في الضواحي؛ فالهاتف لا يكف عن الرنين، وفي كل مرة خبز أسوأ من الذي سبقه. أخشى أن يقتحم السكان الأصليين منازل الكينمارو، ستحدث مذبحة حقًا.

سألهم السيد ليرون:

- وماذا عن المرضى الذين اختفوا تمامًا من العزل الصحي؟

ساد الصمت فلا أحد لديه إجابات على هذه الأسئلة. سأل نائب الحاكم باقي أعضاء المجلس:

- لماذا لا يذكر أحدكم شيئًا عن السكان الأصليين في غابة الأحرار؟

ابتسم السيد ليرون بسخرية، ثم أجابه:

- كيف لأشخاص يعيشون في الغابة الواسعة ويختبئون في مكان لا يعلمه سوى الإله أن يدخلوا مدينة سالتيور، ويتغلبوا على أقوى جيش في العالم بأسره ويتسببوا في كل ما حدث مؤخرًا؟

ساد الصمت ثانية، فلم ينطق أحدهم للحظات وهم يفكرون في الخطوة التالية، كان سبب اجتماعهم هو اختيار الحاكم الجديد فقال نائب الحاكم:

- والآن، يجب أن توضع أسماء المرشحين لتولي منصب الحاكم في هذا الصندوق.

وضع البعض أسماءهم في الصندوق عدا السيد ليرون وابنه. وعندما انتهوا، أخذ آدم الصندوق الأسود الصغير ووضعه في درج المكتب ثم أغلقه بالمفتاح وأخبرهم أن اختيار الحاكم سوف يصدر بعد يومين.

خرج أعضاء المجلس ونائب الحاكم من المكتب، فطلب السيد ليرون من ابنه أن يبحث عن مارية ويطلب منها أن تأتي إلى المكتب؛ ليخبرها بنفسه نبأ وفاة والدها. أوما آدم ثم ترك والده وتوجه إلى غرفة مارية، ولكنه لم يجدها فيها.

شاهدت مارية الباب يظهر فجأة في البهو فتوقفت أمامه تراقبه، كان الباب مصنوعًا من الخشب، لونه أسود قاتم، مطعم برموز عجيبة حُفرت فيه، ولكن مارية تبينت رمزًا منهم تعرفه جيدًا وهو رمز الشمس الذي يُرسم على جبين الكينمارو أجمعين.

كانت الرموز الأخرى غير مفهومة بالنسبة إليها، ولكنها فهمت إحداها فوضعت يدها على رسومات لأشخاص خُفرت أجسادهم على الباب العجيب واستقرت فوق رؤوسهم هالاث تشبه حلقات القمر في مشهد غريب. ظلت تتحسس الرسومات وهي تحاول أن تفهم ما تعنيه، ولكن الترانيم كانت تتعالى فقررت أن تفتح الباب لتدخل إليه.

بمجرد أن أدارت المقبض، وفتحت الباب حتى غرقت في الظلام التام وتطايرت خصلات شعرها بسبب الرياح فهبت عليها رائحة الموت؛ لذا أغلقته على الفور وتراجعت إلى الخلف بضع خطوات وهي تتنفس بصعوبة من هؤل الشعور المفزع الذي خالجها منذ قليل. اختفى الباب فتوقفت الترانيم المخيفة ولم يعد لهم أثر، فاستدارت مارية واصطدمت براكبان الذي كان يقف خلفها مباشرة يراقب ما تفعله.

سألها بتوتر وهو ينظر إلى الجدار:

- هل رأيت الباب الذي اختفى لتوه؟

تفاجأت مارية أنه رأى الباب قبل أن يختفي فغمرها شعور السعادة؛ لأن هناك من رأى ما تراه، فهي ليست الوحيدة الآن، وربما هذا يعني أنها ليست مجنونة أو مصابة بذلك المرض المنتشر. سألتها بحماس:

- هل رأيته؟ كان هناك منذ لحظات.

أشفق راكان عليها فنظر إليها بحزن، ثم قال:

- لقد رأيته حقًا، أنتِ لستِ مصابة بالمرض المنتشر يا آنسة.

عندما علم راكان بمقتل الحاكم رغب أن يعزي مارية خصوصًا
عندما أخبره والده أنه يرغب في الترشح لمنصب الحاكم. قال:
- أشعر بالأسف حقًا من أجل والدك.

تلاشت الابتسامة من على وجهها؛ فسألته عما يقصده وهي تنظر
له نظرات حائرة، أجابها:

- لقد مات والدك يا آنسة، بل قُتل على يد إحدى الخادِمات.

عندما علمت مارية ما حدث لوالدها، شعرت بشعورٍ غريب بداخلها،
فمبادئها تنهياها عن الشماتة وعن عدم احترام الموتى ولكنها شعرت
بأن ما حدث لوالدها كان عدالةً من السماء فقط ليس إلا، ولكن جزءًا
صغيرًا بداخلها شعر بالحزن على ما حدث لها ولوالدتها وحتى ما
أصاب والدها جعلها تشعر باليأس والغضب، ولكن أكثر ما أصابها
بالحنق هو تجاهل الجميع لها فلم يعد أحدٌ يخبرها بما يحدث من
حولها مؤخرًا.

أدمعت عيناها على وفاة والدها، حتى وإن لم تحبه، ولكنها غضبت
من نفسها لأنها عاملته بقسوة، وإن قلبها الرقيق الآن يلوم نفسه على
المعاملة السيئة له. داهم قلبها طوفانٌ من المشاعر المختلطة؛ فهي
تشعر بالحنق من نفسها وبالشفقة أيضًا على ما تسبب فيه والدها،
والآن تتأرجح بين فرحة الخلاص من الأذى الجسدي والنفسي الذي
تسبب والدها فيه، وبين عذاب الضمير الذي كان يئن لفراق والدها.

- هل أنت بخير يا آنسة؟

- هل أنا بخير؟ لا أدري يا سيد راكان إن كنت بخير أم لا. كل ما

أعرفه الآن أنني أعيش في كابوس طويل سخيـف ولكنني سئـمـث منه حقًا، فقط أريد أن أستيقظ منه.

تذكّر راكان ما قالته مارية عن رؤية ميرال للملائكة في الممرات ليلاً، فسألها:

- هل تحدّثت مع ميرال مرّة أخرى؟

- لم تكن هناك فرصة للتحدّث معها، فالأحداث السيئة تلاحقني مؤخراً، حتّى أنني لم أتمكن من رؤيتها في الأيام الماضية.

- لا بدّ أن تتحدّثي معها، لا أعتقد أن والدها أو جدها يعرفان بأمر الملائكة، ربما اختارت المسكينة أن تحكي لك لأنها وثقت بك، وشعرت معك بالأمان، وأنا لا ألومها بالطبع إن لم تفضفض مع أحدٍ سواك، ولهذا السبب يجب أن تسألها أنتِ لا أحد آخر.

تنهّدت مارية بتعبٍ، ثم قالت:

- إنها فتاةٌ كتومة حقًا تخرج الكلمات منها بصعوبة، ولكنني أعدك أنني سأحاول.

- تعازي لك آنسة مارية.

قالها ثم تركها وحدها تراقب الجدار وهي تفكّر فيما يحدث خلفه، فاقتربت منه وألصقت أذنيها به لعلها تسمع شيئاً. وضعت يدها على الجدار لتلمسه وكانت المفاجأة؛ تحوّل لون الجدار بأكمله إلى اللون الأسود وكأن حريقاً ضخماً نشب فيه من قبل. خافت مارية وتراجعت إلى الخلف فعاد الجدار إلى لونه الطبيعي مرّة أخرى، لم تجرؤ على فعلها ثانية، وما كانت لتفعل لأن آدم قال:

- يريد والدي أن يتحدث معك في مكتبه.

علمت مارية ما يريد السيد ليرون إخبارها إيّاه، ولكنها قررت ألا تذهب إليه. صعدت إلى غرفة ميرال وطرقت الباب، ما هي إلا لحظات حتى فتحت الخادمة الباب وأخبرتها أن ميرال كانت تحاول أن تخلد إلى النوم، ولكن مارية أصرت على التحدث معها فخرجت الخادمة من الغرفة.

كانت ميرال تجلس على حافة الفراش تنظر إلى مارية بنظراتها المعتادة الخالية من حماس ومرح الأطفال، فقد كانت طفلةً كئيبة حقًا. جلست مارية بجانبها وابتسمت إليها، ثم سألتها:

- هل من الممكن أن تحتفظي بسرٍّ لم أخبر به أحدًا من قبل؟

أومأت ميرال دون أن تنطق، وما زالت تعبيرات وجهها كما هي، خالية من أي شعور. قالت مارية:

- لقد رأيث الملائكة!

مرح

كدت أن أخبر شقيقتي بكل شيء؛ فالكتمان لم يناسبني، وبالأخص عندما حصرث نفسي بين نارين، إما الذهاب إلى القصر عند عائلة أرسلان العرية لأفني حياتي فيه كخادمة، أو انتظار موت عائلتي في غرفتي، ولكنني تراجعث في اللحظة الأخيرة، وبدلاً من أن أخرج ما بداخلي كذبت عليها وأخبرتها أن هناك شخصاً ما يرغب في نشر روايتي، فطلبث منه أن يعطيني مالاً مقابل بيعها له فوافق على الفور؛ لأنها أعجبتة كثيراً.

كانت المسكينة شخصاً متواضع الذكاء للغاية تصدق أي شخص وأي شيء، طالما أنه أقسم لها! أعطيتها ضرة العملات الذهبية وطلبث منها أن تؤجر منزلاً آخر وتحتفظ بالباقي معها؛ ليتمكنوا من العيش ولو بالقليل من الرفاهية. فرفضت في بادئ الأمر بحجة أن هذا المال لا يخصها، ويجب أن أفعل به ما يحلو لي، ولكنني أقنعها أن تأخذها ففعلت في نهاية المطاف على مضض.

نظرت إلى حزمة الأوراق فوق المكتب وهي تهتز بسبب القطار البخاري بينما ينطلق من المحطة متجهاً إلى وجهته السرمدية، وفكرت في مصيرها، هل سترى هذه الكلمات النور يوماً ما؟ أم أنها سترقد في سلام هنا؟

دقت الساعة الرابعة، فاضطربت معدتي عندما أدركت أنني يجب أن أتخذ القرار المناسب الآن. أخذت نفساً عميقاً وأنا أنظر إلى الأوراق أمامي، ولكنني لم أتوصل إلى قرارٍ مناسب؛ فأمسكت بالأوراق وبكل ما أوتيث من قوة مزقتها بغلي ليس له مثيل وأنا

أصرخ وأبكي في حالة يرثى لها. عمّت الفوضى المكان فكانت أشلاء
روايتي تفترش الأرض في كل حدبٍ وصوبٍ، نظرتُ إلى أحلامي
المبعثرة وهي تتساقط واحدةً تلو الأخرى لتغرق في عتمة اليأس
والألم.

عندما دقت الخامسة بالضبط، شعرتُ برجفةٍ سارت في جسدي
وكأن ناقوس الخطر يدق معلناً عن اقتراب الموت، فارتديتُ معطفي
بسرعةٍ ونزلتُ الدّرج فلم أجد أحداً بالمنزل، إذن لهذا السبب لم يسمع
أحدهم صوتي وأنا أصرخ وأبكي منذ قليل. صعدتُ على متن إحدى
العربات، وتوجهتُ إلى دار الشفاء وأنا أسارع الزمن.

وقفتُ أمام دار الشفاء أراقب جدرانها المتهالكة؛ بسبب الحريق
وأنا أتذكر الصرخات المؤلمة في الماضي للسكان الأصليين وهم
يُحترقون بينما كانوا على قيد الحياة. يا لقسوة الحياة! غرس
الحزن أنيابه في قلبي والتهمه بوحشية، فتأكدتُ أنني لن أشعر
بالسعادة أبداً بعد الآن. دخلتُ دار الشفاء وأنا لا أدري هل أتمنى
أن أرى أرسلان؟ أم أنني أقود نفسي إلى هلاك سالتيور المظلمة؟
لستُ أدري حقاً، ولكنني دخلتُ إلى الغرفة التي وعدني أن ينتظرنني
بداخلها فلم أجده. لم أجرو على اتهامه بالكذب؛ فلا بدّ أنه أتى وشعر
بالاستياء من انتظاري، ثم فقد الأمل في مجيئي ورحل، عدتُ إلى
المنزل لأنتظر منتصف الليل فأعود إلى دار الشفاء ثانية؛ حتى أنزل
الدّرج إلى سالتيور المظلمة.

عندما فتحتُ باب المنزل ودلفتُ إلى الداخل رأيتُ أمي تجلس
على الأريكة وهي نائمة، فلقد كانت المسكينة تعاني من أمراض

خطيرة في قلبها تؤثر على طريقة نومها، فلم تستطع أن تنام مستلقية على ظهرها فوق الفراش مثل سائر البشر، بل كانت تنام وهي تجلس على الأريكة في المنزل؛ لتتمكن من التنفس بصورة سليمة. توجهت إليها بخطوات حذرة لكي لا أوقظها وجلست بجانبها، ثم وضعت قبلتي فوق جبينها ويدها ثم تركتها وصعدت إلى غرفتي.

مرت الساعات بسرعة غريبة وكأن الوقت ضدي يرغب في أن يعجل بنهايتي، فعندما دقت الساعة لتعلن أنها العاشرة بالضبط نزلت إلى البهو، ثم كذبت على والدتي للمرة الألف تقريبًا، فلم أعد أعد عدد الكذبات التي أخبرتها بها مؤخرًا، أخبرتها أنني سوف أذهب إلى إحدى صديقاتي لأزورها وهي مريضة، فصَدَّقت المسكينة ابنتها الكاذبة اللعينة وسمحت لي بالذهاب.

عندما وصلت إلى دار الشفاء المهجور كانت الأضواء من حوله خافتة، ولم يكن هناك أحد يسير بالجوار فدخلت إليها على الفور، توجهت إلى الخزانة إياها ووقفت أمامها بتردد، ولكنني كنت يائسة بحق أكره نفسي وحياتي بأسرها، فتحثتها ونظرت إلى الدّرج العميق وإلى ظلمته الموحشة، ولكنني نزلت على الرغم من الأصوات الصارخة في عقلي، نزلت إلى هلاكي للمرة الثانية وبكامل إرادتي.

كانت الدرجات مظلمة كما تركتها في المرة الأولى، ومن الواضح أنها هكذا دائمًا فلا فارق بين النهار أو الليل هنا. كانت خطواتي وأنا أنزل الدّرج تصدر صوتًا مرعبًا يتخلل صمت المكان ويبدده بوحشية؛ فتزداد ضربات قلبي من هول الموقف. وقفت في نهاية الدّرج أنظر

برهبة إلى سالتورا المظلمة وإلى البوابة الكبيرة التي تستقر نهاية
الدرب هناك، سرث بحذر وأنا ألتفت حولي وقلبي ينتفض بداخلي،
عندما وقفت أمام البوابة الحديدية رأيت الرجلين اللذين رأيتهما
المرّة الماضية ولكنهما لم ينطقا، ولم أتمكن من رؤية تعبيرات
وجهيهما بسبب الأقنعة؛ فأكملت في طريقي إلى الداخل وأنا أنظر
إلى الوحش الذي كثر عن أنيابه بمجرد رؤيتي؛ إنه القصر الأسود
بكل ما يخبئه من قسوة ووحشية وذُل لمن يوجد بداخله.

كانت المنازل على يميني ويساري تُفتح أبوابها؛ ليدخل بعض
الأشخاص منهم الأطفال ومنهم الكبار، ولكنهم جميعًا مقيدون ولا
يبدو عليهم أنهم أتوا إلى هنا طواعية بل قسرًا وقهْرًا.

ارتجفت أطراف جسدي كلما اقترب من القصر الأسود وشعرث
بالدوار فكثت أن أفقد وعيي، ولكن ذراعين أمسكا بي قبل أن أفقد
الوعي، قال السيد يوسف مبتسمًا بشماتة كعادته:

- آه، لقد افتقدتك كثيرًا يا عزيزتي مرح.

أبعدت يديه عني وأنا أحده بنظرات الاشمئزاز، فتخلصت من
قبضته وبصقت في وجهه، ثم قلت بغضب:

- ابتعد عني أيها الكلب اللاهث خلف أموال الكينماروا!

تعالى ضحكاته المستفزة في المكان، فالتفتت بعض رؤوس
الأشخاص من حوله منهم من يرتدون الأقنعة، ومنهم من يكشفون
عن وجوههم. قال وهو يقترب مني كما يقترب الأسد من فريسته:

- انظروا من يتحدّث، إنها النبيلة مرح التي أتت إلى هنا بحثًا عن

الأموال لتنشر روايتها السخيفة مقابل ضرة من العملات الذهبية!

كيف عرف أنني أتيت إلى هنا لأخذ المال من أجل نشر الرواية؟ سمعت بعضهم يضحك ضحكات ماجنة، والبعض الآخر راح يقترب مني فحاولت الابتعاد عنهم ولكنني فشلت؛ فجميعهم يلتفون حولي وينظرون لي نظرات متوحشة، ثم أفسحوا الطريق إلى السيد يوسف الذي تقدّم مني وأمسك بشعري وجذب رأسي إلى الخلف، ثم قال:

- انظري إليهم جميعًا كيف ينظرون إليك، لقد أصبحت من المشاهير هنا يا مرح؛ فالكل يرغب في معرفة ما سوف يحدث معك. أعدك أن ما سيحدث تاليًا سينال إعجابك للغاية بما أنك تحبين الكتابة وتعتبرين نفسك واحدة من الموهوبين.

لكمّث وجهه بقوة؛ فصاح من الألم وتلوى كالعبان، بينما ضحك الأشخاص المُقنَّعون من حولنا؛ فانتهزت الفرصة وحاولت العودة إلى الدّرج ولكن الحراس وقفوا أمامي كالجدار المنيع، ثم أمسكوا بي وقادوني إلى القصر الأسود وأنا أصرخ ليتركوني وشأني.

دلفنا إلى القاعة نفسها كما المرة السابقة، فتذكّرت ما حدث فيها من بشاعة ووحشية لأسرى غابة الأحرار، فسرت قشعريرة في جسدي وأنا أتذكر المشاهد القاسية للأشقاء الثلاثة وهم يأكلون لحوم بعضهم البعض. أعتقد أن من يتواجد معي في القاعة نفسها هم ذات الأشخاص من المرة الماضية، ولكن هناك رجالًا بينهم شعرت أنني لم أراه من قبل، كان يرتدي عباءة سوداء ويضع القناع نفسه على وجهه مثل سائر الكينمارو في سالتيور المظلمة، ولكن عينيه مختلفتان عن أعين البقية، سمعتهم يطلقون عليه لقب "الكينمارو

الأول" فتعجبث كثيرًا، ولكن بماذا يفيد العجب في هذا المكان؟

لم أنتبه لما يحدث على المنصة سوى الآن؛ طفلان في العاشرة تقريبًا أو أكبر بقليل معهما رجل وامرأة يبدو أنهما والداهما، وبجانب الأربعة يقف شيخ كبير يبدو عليه الوهن كثيرًا، وكانوا جميعًا مكمني الفم ومصلوبين عدا الطفلين، فهما مقيدان بأغلال مكمني الفم يجلسان على مقعدين أمام الثلاثة.

رأيت الطفلان يرتجفان هلعًا وخشية لما سيحدث لهما ولعائلتهما، اقترب الرجل الغامض مني ووقف يتطلع في وجهي، ثم قال بصوت رخيم:

- يُقال أنك كاتبة، هل هذا صحيح؟

ترددت كثيرًا؛ فأنا لم أتوقع هذا السؤال، أجبته:

- لا، إنها هواية اعتدت أن أمارسها في أوقات الفراغ فقط، حتى أنني لم أنشر روايتي الأولى بعد.

نزع القناع عنه؛ فارتجف قلبي من المشهد، لم يكن قبيحًا بل على العكس تمامًا إنه وسيم للغاية ولكن بطريقة تجعل المرء يخشى النظر إليه، فملامحه تبدو عليها الشر وكأن كل شبر في وجهه يتوعد بملاحقة كوابيسي كل ليلة!

لا أظنه الرجل نفسه بجانب الصندوق الأسود من المرة السابقة؛ فالصوت ولون العين مختلف تمامًا، كما أن "الكينمارو الأول" له هيبة مختلفة؛ فالناس هنا يرتجفون هلعًا منه أكثر من الرجل الآخر.

قال مبتسمًا:

- عزيزتي مرح، لا عيب في أنك تتمنين أن تصبحي كاتبة، فأنا على سبيل المثال كاتب في المقام الأول ورخالة في المقام الأخير، واليوم لنشارك معًا كتابة رواية من نوع خاص، أنا وأنتِ فقط!

ابتلعت ريشي من الخوف، ثم قلت:

- سيدي، أنا لا أفهم حقًا، عن أي رواية تتحدث؟

- ستفهمين كل شيء الآن.

قالها والابتسامة لم تختف من وجهه، توجه إلى المنصة الخشبية حيث الخمسة أفراد من غابة الأحرار، وتوقف أمامهم ثم وبطريقة مسرحية تمامًا قال بصوت عالٍ:

- والآن، لنشهد جميعًا كتابة رواية جديدة من تألوفي ومرح بعنوان "الكلب اللاهث وراء العظمة".

ما الذي يقوله هذا المخبول؟ رواية ماذا تلك التي سأكتبها معه؟ وما هذا العنوان العجيب؟ استدار وأمر الحراس أن يأتوا بي إليه ففعلوا على الفور، وقف بجانبه أراقب نظرات الفرع على وجوه الخمسة وبالأخص الطفلين الصغيرين.

قال وابتسامته المستفزة لم تفارق ثغره:

- والآن يا مرح، من يقفون أمامك هم أكر سكان غابة الأحرار قسوة وجبنًا في الوقت نفسه، فذو الشعر الأبيض هناك تسبب في حرق العديد من الحراس على حدود المدينة، أما الرجل والمرأة فهما المتسببان الرئيسان في قتل نائب الحاكم السابق، بينما كان في

مدينة أخرى في العام الماضي. أما الطفلان، فلحق لم يفعل شيئًا، ولكنني اضطررت لأسرهما حتى تكتمل أحداث الرواية!

لا بدّ أنهم علموا بطريقة ما أنني سوف آتي، لا أدري كيف ولكنهم كانوا على أهبة الاستعداد لي؛ فجميعهم يقفون وينظرون لي وحدي. نظرت إلى "الكينمارو الأول" ويديا ترتعشان من الخوف؛ فعندما لاحظ هذا قال وهو ينظر إليهما:

- لِمَ الخوف يا مرح؟ ألم تأتِ إلى هنا بمحض إرادتك أم أجبرك أحدهم على القدوم؟

لا بدّ أنه يمازحني، إنهم من وضعوا أمامي خيارين لا ثالث لهما؛ إما أن يأتوا لي لقتل عائلتي أو آتي إليهم! تفاجأت بأن الجميع يلتفون حولي في مشهد مقبض يفزع القلوب، ووجوه أولئك الذين لا يرتدون الأقنعة مبتسمة ابتسامات مريبة، أما أولئك الذين يرتدون الأقنعة فكانت أعينهم يتطاير الشرر منها وكأنها نيران سوف تحرقني في أي لحظة.

سألت "الكينمارو الأول" وصوتي يخرج بصعوبة:

- لِمَ لماذا أنا هنا بالضبط؟

قهقه بصوت مكتوم، ثم اقترب مني بتؤدة وثبات حتى توقّف أمامي مباشرة فلم يعد يفصل بيننا سوى بضعة سنتيمترات. نظر لي بعينين زرقاوين مخيفتين بثّتا الهلع في نفسي لسبب أجهله، فلون عينيه لم يكن مثل سائر الكينمارو، بل شعرت لوهلة أنهما يتوهجان مثل أعين القطط. قال بصوته الرخيم:

- لأنك مختلفة عن بقية الفتيات اللاتي أتين إلى هنا من قبل.

اقتربه مني هكذا يبث الرعب في قلبي، لم أشعر بالارتياح أبدًا وهو ينظر لي بعينيه المخيفتين. سأله بصوت يرتعد هلعًا:

- مختلفة كيف يا سيدي؟ لست سوى فتاة حمقاء أتت إلى هنا بحثًا عن الأموال السريعة فقط، وانتهى دوري. لماذا ترغبون في قدومي إلى هنا؟ أنا لست ذات نفع لكم في نهاية المطاف.

صاح بطريقة تبدو عصبية ولكنها لم تكن كذلك، لا أدري كيف، ولكن هذا الرجل غريب متناقض، قال:

- أخبرتك منذ قليل، سنكتب معًا رواية عظيمة يخلد أحداثها التاريخ ويتهامس الجموع باسمها في الأزقة ليلاً.

صفق بيديه، ثم قال مبتسمًا وبكل ثقة:

- والآن، الفصل الأول يا مرح، وفيه البطلة يتم اغتصابها أمام زوجها وطفليها، ما رأيك؟

يا إلهي! إنه يتحدث عن المرأة فوق المنصة والتي تأكدت الآن أنها والدة الطفلين، لا أصدق ما سمعته لتوي، ما هذه القسوة يا رجل! لقد تخطى حدود الوقاحة بمراحل. سأله بصوت يرتجف من الغضب والقهر:

- وما المطلوب مني الآن؟

أجابني بحماس:

- أليس هذا هو السؤال الأهم هذه الليلة؟ نعم، ما المطلوب منك

الآن إن كنت قد قررت بنفسي مصير تلك المرأة؟

أشار إليها وهو يتحدث معي فأتسعت عينا المرأة دهشةً وهلعًا مما يُقال، ورأيث زوجها يتململ ويزوم في مكانه من أسفل المنديل الذي يكمم فمه تعبيرًا عن غضبه واستيائه مما يُقال. لا أظن أن الطفلين أدركا ما سوف يحدث لوالدتهما، ولكنهما يعرفان أن ما سيحدث ليس جيدًا على الإطلاق.

عندما لم أرد على سؤاله، اقترب مني أكثر وأمسك بشعري ثم ظل يشم رائحته بطريقة مقززة توحى بأن هذا الرجل غير متزن بل مضطرب عقليًا ونفسيًا. قال وحالة الانتشاء تبدو على وجهه:

- عندما أفرغ من هذه الرواية، سأستمتع معك كثيرًا.

أبعده عني ثم تراجعث إلى الخلف وقلبي ينفطر إلى نصفين على ما وضعت نفسي فيه. قال موجهًا كلامه لي:

- ماذا سوف نفعل يا مرح؟ هل نأمر أحد الرجال باغتصابها؟ أم لديك حل آخر؟

أجبته بغضب:

- ماذا عن تحريرهم أجمعين مقابل ربحي؟

تعالث أصوات ضحكات سائر الكينمارو في المكان، بينما هو وقف يراقب تعبيرات وجهي ولم يتحرك قيد أنملة، حتى وجهه لم يعبر عن أي شعور يدور بداخله، فكانت قراءة أفكاره صعبة للغاية. قال بعبات:

- سوف آخذ هذا في عين الاعتبار، أنت شجاعة، لقد شعرت بهذا

منذ الوهلة الأولى التي رأيته فيها. وصدقيني يا مرح، عندما أقول أنني لم أكن مخطئًا من قبل، ولكنني مع الأسف لا يمكنني أن أقبل باقتراحك، ليس الآن على الأقل، ربما حينما يحين موعد كتابة الفصل الرابع أو ما شابه، ولكنني الآن أرغب في معرفة رأيك في هذا الفصل، هل يتم اغتصاب المرأة أمام زوجها وأطفالها؟ أم لديك اقتراح آخر مشابه في لذته للمصير الذي رسمته لتلك المرأة؟

لقد اكتفيت حقًا من هذه السخافات ولم أعد أخشى شيئًا؛ لذا صحت بحنق وبصوت مخنوق من البكاء:

- ما الذي تهذي به أيها المخبول؟ أنت تضع أمامي خيارين، إما أن أوافق على اغتصاب المرأة أمامنا أجمعين، أو أختار مصيرًا آخرًا لا يقل وحشية عما سبقه! أي هراء هذا؟

ابتسم بنرجسية، ثم اقترب مني وقال:

- بإمكانني مساعدتك، فمثلًا إن كنت مكانك سوف أعرض على الجمهور ألا تُغتصب المرأة أمام الجميع، بل في غرفة منعزلة، هل فهمت الآن ما أريده منك؟ أريد منك بدائل وحلول أخرى مغايرة لاقتراحاتي؛ وقبل أن أنسى، هناك ساعة ضبطناها على دقيقة واحدة، وسوف نسمع التنبيه عند انتهائها، وإن لم تقترحي علينا بديلًا قبل انتهاء الدقيقة، إذن يُنفذ اقتراحي بلا تردد. هل هناك من هو أعدل مني في هذه المدينة يا مرح؟

جلست على إحدى المقاعد؛ لأن قوايا خارت تمامًا فلم تحتمل قدماي الوقوف أكثر من هذا. وضعت كلتا يدي على رأسي وأنا أفكر فيما سأختار وصوت عقارب الساعة يرن في عقلي. شعرت بتيبس

في مفاصلي فَشَلَّتْ حركتي، بينما الجميع ينظرون لي بانتظار اقتراحي.

قلك والدموع تناسب على وجنتي:

- حسنا، أعتقد أن اغتصابها في غرفة منعزلة بعيدا عن عائلتها أفضل من اقتراحك.

صاح بحماس في أحد حراسه:

- خذوها الآن في ذلك الركن البعيد من المسرح، وانقضوا عليها واحدا تلو الآخر.

صحح بعصبية وأنا أبكي:

- ماذا؟ هذا ليس ما عنيته أيها الكاذب الحقيق، لقد أخبرتك أن يحدث في غرفة أخرى، ليس هنا.

- مرح، مرح، مرح، عزيزتي مرح الباسلة، دعك من هذا؛ فأنا من اقترح الاختيارين منذ البداية، هل نسيت؟ بربك، ظننتك أفضل من هذا، ولكنك كالبقية. على كل حال، لنبدأ المرح الآن يا مرح!

كانت صرخات المرأة المكتومة وبكاء طفليها وغضب زوجها والرجل العجوز يبت الهلع والفرع في قلبي، فلم أعد أحتمل؛ غطيث أذني بكتلي يدي وأنا أنظر إلى الأرض من أسفلي حتى لا أصاب بالجنون.

قال "الكينمارو الأول" وهو يتلذذ بصوت الصراخ:

- والآن، لننتقل إلى الفصل الثاني، ماذا نفعل بالعجوز؟ هل نحرقه

حيًا؟ أم هناك اقتراح آخر لديك؟

لم أرد عليه، ولكنني انتبهت إلى صوت الساعة التي كانت عقاربها تتحرك وهو يمسك بها في يده؛ لم أتوقع أبدًا أن أصاب بالفزع والرغبة من صوت دقات الساعة قبل هذه اللحظة، ولكن سالتيورا لا يمكن توقعها أبدًا. فكّرت فيما يمكن أن يعادل بشاعة الحرق حيًا، ولكن عقلي تجمد فلم يستطع التفكير في أي شيء. انتهت الدقيقة فأعلنت الساعة عن هذا؛ لذا صاح الرجل المخبول في حماس:

- انتهى الوقت يا سادة، والآن يُحرق العجوز حيًا.

لم تهدأ صرخات المرأة وهي يُنتهك عرضها أمام مرأى ومسمع من الجميع، حتى وإن كان هذا يحدث خلف إحدى صفوف المقاعد ولم تكن الرؤية واضحة، ولكن الشعور بالفزع كان كالشمس في كبد السماء لا يختلف عليه اثنان!

أمر "الكينمارو الأول" أحد الحراس ليمسك بالرجل العجوز، وتوجهوا معه إلى مقعد خشبي أرغمواه على الجلوس عليه، وبأسفله لوح معدني ثم أشعلوا في جسده النيران. لا يوجد شعور في العالم يستطيع التعبير عما يشعر به الرجل وهو يحترق على قيد الحياة، والأسوأ هي الضحكات والتهليلات التي ارتفعت في القاعة لأشخاص لا يعرفون للرحمة طريقًا. كادت صرخات الطفلين تنتزع قلبي من مكانه وهما يشاهدان جدهما أو أيا كانت صلة القرابة بينهما وهو يحترق على قيد الحياة! فقد أحد الطفلين السيطرة على نفسه فبلل سرواله وهو يشاهد ما يحدث، صرخت في الرجل البغيض وقلت:

- ألا يوجد قلب أسفل ذلك الصدر؟

استدار لينظر لي وما زالت الابتسامة لم تفارق وجهه، ثم قال:

- لا تكوني شخصًا عبوسًا يا مرح، من أطلق عليك هذا الاسم بحق الإله؟ هل كانت والدتك؟ ذكريني أن أغرس وتدًا في قلبها عندما أراها.

إنه شخص مخبول حقًا، توقّف عن الكلام ثم تقدّم مني واستطرد:

- والآن، لماذا تصرين على أن تكوني شخصًا ظالمًا؟ تخيلي الآن أن من يجلس هناك لم يكن من السكان الأصليين، بل كان من الكينمارو، فماذا سوف يكون رأيك عما يحدث له؟ هل كنت ستعترضين على حرق واحد من الأعداء كما تعترضين الآن؟ أم لم تكن لنسمع صوتك الشنيع هذا؟

صحت بعصبية:

- إن كان من يجلس على ذلك المقعد ألد أعدائي فلن أتعامل معه بطريقةكم بل سأظهر بعض من الرحمة، على الأقل أمام الطفلين اللذين لا ذنب لهما فيما يحدث.

سألني سؤالًا لا علاقة له بما أقول:

- أخبريني يا مرح، هل أترك الطفلين إلى الفصل الأخير أم أنهي روايتنا بوالدهما؟

قطبت جبیني وأنا أتطلع في وجهه بحنق، ولكنني حاولت أن أتماسك لأنقذ الطفلين من برائته. هدأت الأصوات من حولنا حتى أنني لم أعد أسمع صراخ المرأة أو العجوز، نهضت من مكاني ووقفت

أمامه وجسدي ينتفض من الهلع، ثم قلت بصوتٍ مبحوحٍ بعد تفكيرٍ:

- عندي لك اقتراح آخر؛ اترك الطفلين وشأنهما ليرحلا معي من هنا مقابل أن يُطعن والدهما عشر طعناتٍ في أجزاءٍ متفرقة من جسده! ارتسمت على ثغره ابتسامة اندهاشٍ لم تخلُ من الإعجاب، قال وهو يقترب مني حتى لم يعد يفصل بين وجهينا سوى مسافةٍ قصيرة:

- سوف يرحل الطفلان ولكنك تظلين هنا؛ فأنا لم أنتهِ منك بعد.

- وكيف أضمن أن الطفلين سيخرجان من هنا سالمين؟

تقدّم من بابٍ لم ألحظ وجوده من قبل، ثم فتحه على مصراعيه لأتفاجأ أنه يخفي بداخله نفقًا طويلًا مظلمًا، ثم قال:

- ذلك النفق يا عزيزتي مرح، واحدٌ من أنفاق عديدة يتسلل منها سكان غابة الأحرار بين الحين والآخر، ولكن الأغبياء لا يعلمون أن هذا النفق بالذات يؤدي إلى سالتيور المظلمة، وإن أردتِ إثبات لكلامي فأليك هذا.

لم ينتظر ردًا مني، فتوجه على الفور إلى الطفلين ثم أنزل المنديل من على فم إحداهما وسأله:

- هل ذلك النفق يؤدي إلى غابة الأحرار يا ولد؟

أجابه الطفل بصوتٍ يهتز من الخوف:

- نعم؛ لقد أتينا منه بحثًا عن الدواء لشقيقتي، ولكننا لم نعرف أنه يؤدي إلى هنا.

احتشدت الدموع في مقلتيه وانسابت على وجنتيه في فزع،
نظر الرجل البغيض لي متسائلًا فأومأ له تعبيرًا عن موافقتي فأمر
واحدًا من الحراس أن يحرر الطفلين ففعل. بمجرد أن أغلق الحارس
الباب خلف الطفلين التفتت الرؤوس لي جميعًا، وكأنهم يعلمون
مسبقًا ما يجب أن يفعلوه.

- والآن، من أين نبدأ يا مرح؟ هل نبدأ من الذراع أم الساق؟ أم نبدأ
من البطن أم الظهر؟ أم نبدأ من الجانب الأيمن ثم الأيسر؟ لا تقولي
القلب رجاءً فهذا سيقضي عليه فورًا، كما أنه ممل وأنا أكره الميتة
السريعة كما تعلمين، فلا بد أن تكون ممتلئة بالإثارة.

أغمضت عيني وأنا أفكر في الرد المناسب. قلت:

- ابدؤوا بالذراع.

مرت الدقائق بطيئة للغاية وكأن الزمن توقّف أو ما شابه، بدؤوا
بذراعي الرجل المسكين وهو يصرخ صرخات الألم ثم واصلوا إلى
ساقيه، ثم بطنه وجانبيه الأيمن والأيسر، ثم ظهره، وبعدها عنقه
وانتهاءً بقلبه أخيرًا حتى لفظ البائس آخر أنفاسه. كانت كل قطرة
دماء تسقط منه تُشعّرني بوخزة في قلبي وكأن الخنجر يخترق
جسدي أنا لا الرجل المسكين. لا أدري كيف ساستمر في الحياة بعد
هذه المشاهد المروعة وأنا من حكمت على ذلك الرجل بهذه الميتة
البشعة، ولكن الإله يعلم أنني أردت تحرير الطفلين من قبضتهم
مقابل قتل والدهما بهذه الطريقة المؤلمة، وعلى الرغم من هذا فلا
أعتقد أنني سوف أسامح نفسي أبدًا.

سئمت البكاء والحزن والخوف؛ فكل المشاعر أصبحت ثقيلة على

قلبي وبلا معنى، سألت الرجل البغيض:

- هل انتهت روايتك يا سيدي؟

ابتسم ثم أجابني:

- عزيزتي مرح، لم تنتهِ الرواية بل بدأت للتوا!

صحت بغضب:

- ماذا تعني أنها بدأت للتوا؟ ألم تخبرني أنني سأكتب معك فصول الرواية من البداية حتى النهاية؟ ألم تكتفِ بقتل الرجل وزوجته وذلك العجوز؟

- ولكنك نسيت أننا لم ننتهِ منك؛ ماذا نفعل بك يا ثري؟

قلث له بتجهم:

- إن كان ذلك الباب يؤدي إلى غابة الأحرار فأنا على استعداد لأن أذهب إليها، وأعدكم أنني لن أرجع إلى سالتيوراً مرةً أخرى، ولن أتحدث مع أحدٍ عما رأيته هنا قط.

تعالَت نظرات الاستياء على وجهه، فقال:

- وهل نحن أغبياء يا مرح، لنفعل ما تخبرينا به؟ هل نفيك إلى غابة الأحرار سيمنع صوتك من الظهور أمام الأقلام العالمية وهم يكتبون الأخبار عن مدينتنا المظلمة؟

صمت قليلاً، ثم أردف:

- في الواقع يا عزيزتي مرح، لقد فكّرت كثيراً في المصير الذي

يليق بفتاة مملِك وتوصلت أخيرًا إلى الحل الأنسب لك. هل تتساءلين ما هو؟

ابتسمت بسخرية وسألته:

- القتل أم التعذيب حتى الموت؟

- ليس القتل هو الحل الوحيد يا عزيزتي، أنتن النساء آفاقن ضيقة للغاية.

توجه نحو باب آخر لم ألاحظه من قبل يختلف عن الباب المؤدي إلى النفق، ثم فتحه ببطء وهو يبتسم بحماس ونشوة الانتصار تغمره، ثم قال:

- لطالما أحببت هذه اللحظة؛ فتح أبواب الجحيم على مصراعيها ومشاهدة الفريسة وهي تسير في عرين الوحش.

لم أفهم ما يرمي إليه، فسألته:

- إلى أين يؤدي ذلك النفق بالضبط؟

ابتسم بمكر قبل أن يجيبني:

- يؤدي إلى سبعة أبواب، كل باب منهم يؤدي إلى منزل، وبداخل كل منزل منهم سترين ما لم يسبق لك رؤيته من قبل، وإن كنت تتساءلين عما سترينه هناك؟ فلا أستطيع أن أجيبك الآن، ولكنني سأعطيك نبذة؛ أيًا كان شعورك هنا وما رأيته فهو نقطة في بحر الأحوال التي سترينها في الأبواب السبع، فاختراري بعناية يا صديقتي، لأن هناك باب واحد فقط تستقر بداخله الحرية التي

تنشدينها والخلص الأبدي لك.

فرسان الرب

- لقد رأيث الملائكة!

قالتها مارية وهي تنظر إلى ميرال التي ما إن سمعت ما قالته الأولى حتى انكمشت على نفسها، واعتلت وجهها نظرات الهلع والخوف، أمسكت مارية بيديها وهي تتطلع بقلقي في وجهها المذعور. أحاطت مارية وجنتي الطفلة بيديها في حنان لم تشعر به ميرال منذ وفاة والدتها، ولكنها الآن تشعر أن هذه اللمسات الحانية تعيد ذكرى أمها الرقيقة التي لم يحن عليها أحدٌ مثلها من قبل.

قالت مارية وهي تبسم لتطمئن ميرال:

- لا تخافي يا حلوتي الصغيرة، لم يفعلوا لي شيئًا سيئًا.

ابتلعت ميرال ريقها، ثم قالت وهي تنظر بعين غائرة إلى الشرفة على يمينها:

- كيف رأيثهم؟

أجابتها مارية:

- رأيث أحدهم في الممر أمام غرفتي في بادئ الأمر، وكان يرتدي رداءً أحمر اللون قاتقًا، ثم رأيثه بعدها عدة مرات، وكانت المرة الأخيرة منذ قليل؛ كانت هناك رسومات نُقشت على باب في البهو توضح ملامحهم إلى حدٍّ ما. ماذا عنك يا ميرال؟ هل بإمكانك أن تصفينهم لي؟

لم ترد الطفلة عليها بل اكتفت بالبكاء الصامت حيث تتساقط

دموعها على وجنتيها وهي لا تنطق؛ فشعرت مارية بالإحباط واليأس، ولكنها حاولت ألا تظهر ضيقها فعادت تشجع الطفلة على الكلام. قالت ميرال بعد إلحاح شديد من مارية:

- الملائكة ليسوا كما يتظاهرون.

- كيف؟ هل تسببوا في أذيتك أو أذية أي شخص آخر؟

أجهشت ميرال بالبكاء حتى لم تعد تستطيع أن تتنفس؛ فشعرت مارية بالذعر فتوجهت على الفور إلى الباب ونادت على الخادمة التي ما إن رأت ميرال هكذا، قالت لمارية دون الاكتراث إلى كونها من الكينمارو وابنة الحاكم السابق:

- ما الذي فعلته في هذه المسكينة؟ إننا نبذل قصارى جهودنا حتى لا تصل إلى هذه المرحلة.

تجمدت مارية في مكانها ولم تجد الكلمات المناسبة لتقولها في مثل هذا الموقف، كانت الطفلة تبكي وتنوح تارةً وتصرخ بجنون تارةً أخرى، فوقفت مارية تشاهدها بذهول، ولكنها تحركت أخيرًا وخرجت من الغرفة بعدما طلبت منها الخادمة بحزم أن تغادر الغرفة وألا تقترب من ميرال مرةً أخرى.

توجهت مارية إلى البحيرة؛ فلم تجد الكثير من الحراس في أماكنهم كعادتهم فتعجبت وهي تبحث بعينيها عليهم وعلى راكان الذي لم يكن في مكانه مثلهم. لاحظت النيران المشتعلة على الضفة الأخرى؛ فقطبت جبينها وهي ترى مدينتها تحترق بلا رحمة، رأت أحد الحراس قادمًا من بوابة القلعة الرئيسة فاستغلت الفرصة

لسؤاله عما يحدث بالجوار، ولكنه أخبرها أن الأمور خرجت عن السيطرة وأنه لا وقت لديه للشرح، ثم تركها في دوامة من الأسئلة والحيرة وهي تنظر إلى النيران المشتعلة بعيدًا عنها.

سَرت قُشعريرة في جسدها بسبب الرياح الشديدة التي عصفت في المكان؛ فاستدارت لتعود إلى غرفتها الدافئة ولكنها تجمدت مكانها عندما رأت والدتها تقف في شرفتها تنظر إليها وخصلات شعرها تتطاير بفعل الرياح، وكانت ترتدي الرداء نفسه التي رأتها ترتديه في دار الشفاء. لم تفعل والدتها شيئًا سوى النظر إليها ومراقبتها، فتسَقَرت ماربة ولم تنطق بكلمة. تساءلت مارية في قرارة نفسها عن حقيقة ما تراه، هل والدتها تقف في الشرفة هناك حقًا؟ أم أن هذا عرضًا من أعراض المرض المنتشر؟

حاولت مارية أن تتجاهل ما تراه فتوجهت إلى القلعة بخطوات متسارعة، وبينما تنظر إلى شرفتها اصطدمت براكبان الذي أمسك بذراعيها لكي لا تقع إثر الاصطدام، سألها وعلى وجهه ارتسمت علامات القلق:

- هل أنت بخير؟

كانت على وشك أن تخبره بما رآته منذ قليل، ولكنها تراجعَت على الفور، سألته:

- أين ذهب الجميع؟

تنهَّد بوهن ثم أجابها:

- عثرنا على جثة أحد الحراس أمام بوابة القلعة منذ قليل، ولا

أحد يعلم من المتسبب في مقتله؛ فالمسكين لم يكن ممن يعادون الغير. كما أن الأمور في الضواحي أصبحت مأساويةً بسبب فرسان الرب وأتباعهم ممن يؤمنون بهم وبقضيتهم؛ المدينة تنهار بسبب ذلك المرض الغريب وتلك الفوضى التي تعم أرجاءها، ولكنني أخشى ما هو قادم أكثر مما يحدث الآن.

تعجبت مارية مما سمعته، ولكن أكثر ما أصابها بالغيظ والإحباط هي أنها آخر من يعلم بما يحدث في القلعة؛ فزادها هذا بالسخط على الجميع، فهي تشعر الآن أنها أسيرة في هذه القلعة، ولكن هذا لا يهم الآن، فلا يوجد مكان في سالتيوريسع لها سوى هذه القلعة؛ فالقصر من نصيب الحاكم الجديد، والكوخ الكئيب الذي ابتاعه والدها يقبع على ضفة النهر وحيداً في منطقة نائية. أما القلعة، فهي آمنة لها في الوقت الحالي وربما إلى الأبد، على الرغم مما يحدث لها بداخلها فإنها تعلم في قرارة نفسها أنه لا يوجد مكان لها سواها بعد الآن.

أخبرت راكان عما حدث لميرال عندما سألتها عن الملائكة، فقال وهو يقطب جبينه من الدهشة:

- هناك شيء محير فيما تقولينه، كيف لابنة أغنى أغنياء سالتيوريسع أن تخاف شيئاً كهذا؟ وماذا يفعل الملائكة حتى تخاف منهم بهذا الشكل؟

أخبرته مارية أنها رأت الرسومات المنقوشة على الباب الأسود، فقال لها:

- ما أخبرتني به لا يعني سوى أن الملائكة هؤلاء يأتون ليلاً إلى هنا وميرال تراههم، وليس هذا فقط، بل إنهم تسببوا في إثارة الهلع في

نفسها لسبب نجهله، وهذا يعني أنهم ليسوا أشخاصًا عاديين.

صمت قليلًا، ثم زفر بقوة وقال:

- سأفقد عقلي حقًا، إن أسوأ ما يشعر به المرء هو شعور الجهل؛
الجهل بالأمور، والجهل بالحقيقة، والجهل بالأسباب، كل هذا يدفع
المرء إلى حافة الجنون.

أوشكت مارية على أن تقول له شيئًا ما، ولكنها تسمرت مكانها بلا
حركة ولا كلمة عندما لاحظت أن هناك امرأة لم تتبين ملامح وجهها
تقف خلف إحدى النوافذ في الطابق الأرضي، تنظر إليها وتشير لها
لتأتي إليها؛ قطبت مارية جبينها وعندما لاحظ راكان نظر خلفه إلى
حيث تنظر، ولكنه لم يجد أحدًا هناك فسألها بقلبي:

- هل رأيت أحدًا ما؟

أنكرت كعادتها واستأذنته للرحيل تاركة إيّاه ينظر إليها والشك
يساوره، توجهت نحو باب القلعة وهي تراقب النافذة إيّاها فرأت
ستائرهما تتحرك من الداخل؛ وهذا يعني أن هناك من كان يقف خلفها
وغادر لتوه. أسرع الخُطى عندما أمطرت السماء فوقها بغزارة،
وعندما دخلت من باب القلعة وأغلقت انطفأت جميع المصابيح
وتعالت أصوات ضحكات قادمة من خلفها، ولكنها لم تجرؤ على
الاستدارة فتسمّرت مكانها وصدرها يعلو ويهبط من فرط الهلع.

إنها تشعر أنها ليست وحيدة، وأن هناك العشرات من الأرجل تسير
بجانبيها، كانت يداها ترتعشان وهي تتحسس طريقها إلى إحدى
المصابيح المعلقة بجانب الباب، وعندما عثرت عليه وأمسكته سقط

من يدها على الفور عندما سمعت الصرير المفزع لأحد الأبواب من خلفها. تجمدت مكانها ولم تتحرك، ولكن صوت الترانيم والرياح التي راحت تداعب شعرها أجبرها على الاستدارة، لترى الباب خلفها مفتوحاً وكأنه يدعوها للدخول إليه.

كانت الأضواء الزرقاء تأتي من الداخل، وكانت رائحة الموت لا تفارق أنفها، وعلى الرغم من هذا سارت بخطوات متعاقلة نحو الباب وقلبها يخفق بقوة في صدرها من الهلع. كلما اقتربت من الباب ارتفعت أصوات الترانيم المخيفة، واشتدت قوة الرياح الآتية منه.

وقفت مارية أمام الباب وهي تشاهد الضوء الأزرق المنبعث من النفق وعقلها يلعب بها كالذمية؛ فهي الآن تتخيل العديد من الاحتمالات التي من الممكن أن تحدث لها وهي بالداخل.

اختفت الأضواء من النفق؛ فوضعت أولى خطواتها في الظلام الدامس ورائحة الموت تحيطها من كل حدب وصوب، سارت بتؤدة وخصلات شعرها تتطاير بفعل الرياح التي راحت تشتد كلما توغلت في الظلام، ولم يكن هناك مصدرٌ للرؤية سوى الضوء الأزرق الذي كان ينبعث بين الحين والآخر من نهاية النفق.

كادت أن تتعثر عدة مرات؛ فالأرض الصخرية الزلقة والمبتلة بالمياه لم تجعل السير فوقها سهلاً، بل كانت مارية تبذل جهداً كبيراً حتى لا تقع في هذا البحر المظلم والمخيف.

استدارت عندما سمعت خطوات أقدام تقترب منها؛ فتوقفت عن الحركة وهي تسترق السمع ولكن الصوت توقف تماماً، فاستدارت وأكملت طريقها، ولكنها بين الحين والآخر كانت تشعر بخطوات

الأقدام نفسها وكأن هناك من يسير خلفها. كان النفق طويلًا للغاية وعلى الرغم من هذا فإن الضوء الأزرق أوحى لمارية أنه قريب منها، ولكنه لم يكن كذلك أبدًا.

سارت لدقائق قليلة ولم تصل إلى نهاية النفق بعد؛ فتوقفت لتستريح قليلًا وهي تلتقط أنفاسها، ولكنها توقفت عن التنفس تمامًا عندما لمحت شخصًا يرتدي الرداء الأحمر المميز للملائكة كما تطلق عليهم ميرال، دخل الشخص إلى إحدى الفتحات القريبة من مارية، فابتلعت ريقها وهي تسير نحو تلك الفتحة التي لم تلاحظ وجودها من قبل حتى وقفت أمامها وهي تشم رائحة الموت والعفن تزداد قوة كلما اقتربت منها.

قالت بوهن وصوتها المهزوز يتردد صداه في المكان:

- من هناك؟

لم يرد عليها أحد، فعادت تسأل من جديد بانتظار من يجيب عليها ولكنها استدارت لترى الشيء الذي مرّ من خلفها بسرعة عجيبة؛ فلمحت الرداء الأحمر ثانيةً ولكنه كان يتوجه نحو الضوء الأزرق هذه المرة، فتقدّمت في طريقها نحو الوهج وهي تتنفس بصعوبة.

سمعت أصوات شخص ما يضحك خلفها؛ فاستدارت ثانيةً وهي تحاول أن ترى من يقف هناك ولكن الرؤية ضعيفة للغاية، فقالت وهي تقترب من الشخص الواقف بلا حركة:

- من أنت؟ وماذا تريد مني بالضبط؟

لم ينطق الشخص الذي كان يرتدي الرداء الأحمر ويضع قناعًا

مخيفًا ليخفي ملامح وجهه، بل أشار إلى شيء ما خلفها فاستدارت مارية، لتتفاجأ بوالدتها تقف أمامها وهي تضحك ضحكات هستيرية لا تبعث على الخير أبدًا.

حاول آدم أن يحتضن ابنته الصغيرة ولكنها رفضت وأبعدته عنها؛ فشعر بغصة في قلبه تحرقه ألمًا وقهزًا على حالتها التي لم تتحسن قط منذ وفاة والدتها الرقيقة. عندما أخبرته الخادمة أن حالة ميرال ساءت كثيرًا بعدما تحدّثت معها مارية شعر بالغضب، وعزم على أن يتحدّث مع الأخيرة ليفهم السبب الذي جعلها تَحْزَن ابنته بهذا الشكل، ولكن خادمةً أخرى أتت إليه وأخبرته أن هناك من يرغب في التحدّث معه في الحال فترك ميرال، ثم توجه إلى الهاتف وأمسك بالسماعة قائلاً:

- ماذا؟

أخبره الطرف الآخر في الهاتف أن الأمور خرجت عن السيطرة في إحدى الأحياء، وأنه لا بدّ أن يأتي الآن ليتفاوض مع أحد الرجال ممن يطلقون على أنفسهم "فرسان الرب"؛ فقد كانت هذه الطائفة تحتجز شرطياً وعائلته في منزلهم، وطلب قائدهم مقابلة السيد آدم وحده دون وجود خراسه وإلا سوف ينحرون عنق الشرطي وأسرتة، فزفر آدم بغضبٍ ووضع سماعة الهاتف دون أن يخبر والده بأي شيء، ثم ارتدى معطفه الأسود وتوجه إلى راكان وأخبره بما حدث فقال له الأخير:

- لن أتركك وحدك سيدي.

أوما آدم له، فتوجه راكان نحو سائق العربة الخاصة بالعائلة وأمره بالاستعداد للذهاب إلى المكان المنشود، كان الطريق طويلاً إلى حد ما ولكن آدم لم يشعر بالمسافة؛ فعقله منشغل بما يحدث في المدينة وبالأخص حالة طفلة الغريبة والتي تزداد سوءاً مؤخراً، ولكن أكثر ما يعير غضبه هو عدم فهمه لما يحدث في الآونة الأخيرة من جرائم القتل، ورسائل التهديد غير المعروف مصدرها، والشغب المتمثل في طائفة فرسان الرب، وعدم قدرة الشرطة على القبض عليهم أو على الأقل منع أذاهم عن العامة.

عندما وصلت العربة إلى منزل الشرطي، أخرج راكان سلاحه الناري استعداداً لأي شيء قد يواجههما، بينما وقف آدم يراقب الضباط وهم يحاصرون المكان حاملين أسلحتهم وهم على أهبة الاستعداد. اقترب قائد الشرطة من آدم وقال:

- أعتذر منك سيدي، لأننا لم نتمكن من السيطرة على الأمر؛ لقد اقتحموا منزل الشرطي ثم أمسكوا بعائلته المسكينة وتحذثوا معنا عبر الهاتف لنأتي إلى هنا للتفاوض معهم، ولكن قائدهم يصر على التحدث معك وإلا لن يطلق سراحهم.

- سأدخل الآن مع السيد راكان، وإن سمعتم أصوات شجار تأتي من الداخل أو إطلاق للأسلحة النارية عندها فقط بإمكانكم أن تقتحموا المكان، وتقتلوا جميع أفراد الطائفة بلا رحمة، وإن لم تسمعوا أي صوت فلا تتدخلوا أبداً، هل كلامي واضح؟

أوما قائد الشرطة وأعطى تعليماته لرجاله، بينما أخبر آدم حارسه

أن يستعد للدخول معه إلى المنزل؛ فتقدّم الأخير نحو البوابة الكبيرة والتي كانت مفتوحةً على مصراعيها. وعندما دخل إلى الحديقة، ظلّ يلتفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن أي شخص قد يحمل سلاحه في يده، وعندما تأكد أن المنطقة خالية وآمنة تقدّم بحذرٍ إلى باب المنزل يتبعه آدم وهو يحمل سلاحه أيضًا.

طرق راكان على الباب عدة طرقاتٍ هادئة حتى أثاره الصوت من الداخل قائلاً بحزم:

- لا تقتربوا أكثر وإلا ذبحناهم.

تجمد الرجلان في مكانهما ولم يتحركا قيد أنملة، بينما فُتح الباب ثم أمرهما رجلٌ بالداخل أن يتركا سلاحهما في رواق المنزل، ثم يدخلوا بهدوءٍ ويغلقا الباب. نظر راكان إلى سيده فأوماً الأخير للأول بأن يفعل ما سمعه، وعندما انتهى الاثنان من ترك أسلحتهما في رواق المنزل دلفا إلى الداخل بحذرٍ، ثم أغلقا الباب.

كانت الصالة الواسعة تحمل على متنها العديد من الرجال الملتصمين، وكل رجلٍ فيهم يمسك بفردٍ من عائلة الشرطي وهم يضعون الخناجر على أعناقهم، وكان هناك رجلٌ يبدو أنه قائد الطائفة يرتدي معطفًا أسود اللون ويغطي ملامح وجهه بوشاحٍ أسود، يقف خلف الشرطي المكبل الذي يقف عاجزًا والسلاح الناري موجهًا إلى رأسه. أمر قائد فرسان الرب اثنين من رجاله بالتوجه إلى آدم وراكان لتفتيشهما، ففعلوا على الفور، وعندما لم يجدوا أية أسلحة بحوزتهما أخبرا قائدهما بهذا.

قال آدم وهو يبتسم:

- من الغريب أن أراكم جميعًا تحملون الأسلحة البيضاء، بينما القائد فقط هو من يحمل السلاح الناري، هل ذلك السلاح ملك للشرطي المسكين؟

أجابه القائد بصوت أجش:

- كف عن المثرثرة، فلا وقت لدينا هنا كما ترى.

سألهم آدم بوجه عابس:

- ماذا تريدون بالضبط؟

أجابه القائد بهدوء:

- نرغب في تبادل عادل للأسرى.

سأله آدم بحنق:

- لا أفهم، عن أي أسرى تتحدث يا هذا؟

أجابه الرجل بغضب:

- لا تتصنع الغباء وإلا قتلتهم أمامك الآن.

حاول آدم أن يبلع غضبه، فعاد يسأله بهدوء مصطنع:

- سيد...؟ لم يسبق لي الشرف لمعرفة اسمك.

قال الرجل على الفور:

- لتتفق على أن اسمي هو فارس، وإن فارس يرغب الآن في تحرير

الأسرى الذين يتعفنون الآن في سجونكم القذرة تحت الأرض!

لطالما سمع القاصي والداني عن الأهوال التي تحدث في سجون سالتيورا أسفل المدينة، فعلى عكس السجون المتعارف عليها في كل المدن المجاورة، كانت سجون سالتيورا يتم تشييدها أسفل المدينة لا فوقها، وإن من يدخلها لم يخرج منها أبدًا ليحكي ما عاشه بالداخل، حتى الأهوال التي تحدث في تلك السجون لم يكن السجناء هم من حكوها للأحرار في المدينة، بل الكينمارو أنفسهم هم من أثاروا الهلع في نفوس السكان الأصليين بوصفهم لتلك السجون. ابتسم آدم بسخرية وهو ينظر في عيني الرجل وكأنه يتحداه ولا يخشى شيئًا، قال:

- حسنا يا فارس، من ترغب في تحريرهم بالضبط؟

لم يرد عليه فارس على الفور، بينما أمر أحد رجاله بتسليم آدم ورقة مكتوبًا فيها مطالب الطائفة من تحرير الأسرى، وإرسال المعونات الطبية والغذائية إلى غابة الأحرار. فعل الرجل ما أمر به، وعندما فتح آدم الورقة وقرأ الأسماء التي بداخلها قال وهو يبتسم:

- أنت تعلم جيدًا أن طائفتكم أثارت الشغب والهلع مؤخرًا، ولن يكون تحرير الأسرى في صالح عامة الشعب؛ فأنتم لم تدخروا جهدًا إلا وبذلتموه في إيذاء السكان الأصليين والكينمارو على حد سواء، فلم تكن أفعالكم تفرق بين أحد، أليس كذلك؟

أجابه فارس بصرامة:

- لقد ظننتك أذكى مما أراه أمامي الآن، ألا تعرف حقًا الأسباب التي جعلتنا نقوم بما أسمىته أنت منذ قليل بأعمال الشغب في المدينة؟

ألم تخبركم كتب التاريخ أن أسلافكم سفكوا دماءنا فوق أرضنا يا سيد آدم؟ هل تريد مني أن أكمل أم أنك اكتفيت؟

- في الواقع، إن ما أراه وأسمعه الآن يعد سببًا قويًا لأسركم جميعًا دون تردد أو شفقة؛ فأنتم لستم كما تدعون. مبشرون بنهاية العالم؟ لا، الأمر ليس هكذا على الإطلاق، بل إنكم من معاوئي سكان غابة الأحرار الذين يرهبون مدينتنا بين الحين والآخر ظنًا منهم أنهم سوف يستعيدون ما لم يمتلكونه في المقام الأول.

لم يشعر راكان بالرضا عما يقوله سيده؛ فهو يراه شخصًا غير مسؤول لا يعرف كيفية التفاوض مع الآخرين، ولكن هذه المدينة ملك للسيد آدم وعائلته فلم يجرؤ راكان على فتح فمه، ولكنه علم في قرارة نفسه أن هذه المحادثة لن تنتهي على خير أبدًا.

أجابه آدم ببرود شخص لا يخشى الموت:

- عزيزي فارس، بإمكانني أن أحرر فردًا أو اثنين من طائفتك الحبيبة وهذا أقصى ما بإمكانني فعله ليس لأجلك، بل من أجل هؤلاء المساكين.

أشار آدم إلى عائلة الشرطي؛ فشعر فارس بالإهانة فقال بانفعال وهو يضغط بسلاحه الناري على جبين الشرطي:

- إما تحرير جميع الأسرى وإرسال المعونات الطبية والغذائية إلى غابة الأحرار، أو رأس الشرطي وعائلته، ليسوا وحدهم فقط، بل بإمكانك إضافة رأسك ورأس حارسك أيضًا إلى القائمة. ما رأيك أنت؟

خيم الصمت الثقيل على المكان؛ فلم ينطق آدم لأنه يعلم أنه في موقف عصيب لا يُحسد عليه، فهو يقف أعزل مع حارسه في مكانٍ يعجُّ بالأسلحة والعديد من الأبرياء يقفون بانتظار الموت أو الحياة، فالقرار له وحده، إنه يؤمن أن القرار المنتظر سيؤدي إلى وقوع الضحايا شاء أم أبى، ولكنه يخشى الرأي العام إن حدث شيئاً للشرطي أو لعائلته؛ لذا قال بعد تفكيرٍ عميق:

- سأفعل ما ترغبون به، ولكنني أتساءل: هل تنق بنا إلى هذه الدرجة التي تجعلك تظن أننا لن نقبض على الأسرى مرةً أخرى؟ والأسوأ هو أننا سنطاردكم جميعاً حتى تقعوا في قبضتنا أخيراً، ألا تظن هذا؟

يعلم قائد الطائفة أن آدم يتحدث بمنطقية ولكنه لا يكثر؛ فتحرير الأسرى وإرسال العلاج والغذاء إلى غابة الأحرار أولوية عنده حتى وإن تراجع الكينمارو عن اتفاقهم وقبضوا ثانيةً على من يطلقون عليهم لقب "خونة العهد"؛ لأنهم في نظر الكينمارو حنثوا بعدهم القديم معهم بأن يستسلموا ويظلوا حاملين للرايات البيضاء، وألا يغيروا الفتنة بين سكان المدينة، ولكنهم لم يفعلوا بالطبع فأصبحت المدينة منقسمةً إلى طوائف؛ فهناك من الكينمارو من يكره الحاكم وأعضاء مجلسه، وهناك من يكره السيد ليرون وعائلته، والكثير من سكان المدينة يكرهون بعضهم البعض، فلم يتمكن الكينمارو من العيش بسلام مع السكان الأصليين؛ فهم في نظرهم معتدون لصوص مغتصبون للأرض وللعرض مهما حاولوا أن يفعلوا.

قال القائد بمبات:

- إن بضعة دقائق من استنشاق عبير الحرية خير من التعفن في
غياهب السجون يا سيد آدم، ألا تتفق معي؟

اعتلت وجه آدم ابتسامة مخيفة بحث الهلع في نفس القائد؛ لكي
يُخفي ما يدور من صراعات نفسية بداخله.

ساد الصمت للمرة الثانية وهو يفكر في الخطوة التالية؛ فنظر إلى
راكب الذي كان ينتظر بدوره ما ستؤول إليه الأمور.

أجاب آدم على السؤال قائلاً:

- حسناً، يجب أن أتحدث في الهاتف مع والدي لأخبره بمطالبكم؛
حتى يطلب من نائب الحاكم الإفراج عن الأسرى.

قال القائد بحماس:

- ليس الإفراج عنهم فقط يا سيد آدم، بل وضمان خروجهم من
حدود مدينتنا الفاضلة وهم يحملون الموارد الطبية والغذائية دون
رميهم بالرصاص كعادتكم.

توجه آدم إلى الهاتف على يمينه ورفع السماعة، ثم أدار أرقام قلعة
تيلارين وطلب من الخادمة أن تخبر والده بأن الأمر عاجلاً.

عندما رفع السيد ليرون سماعة الهاتف، حكى له ابنه كل شيء
فابتلع ما سمعه على مضض وكاد قلبه يتوقف من الحسرة والغيب
على تصرفات ابنه المتهورة، ولكنه قال وهو يلهث من فرط الغضب:

- أخبرهم أننا سنفعل ما يرغبون به ولكنهم يجب أن يطلقوا سراح
الأطفال كبادرة حسن نية، وعندما أراك يا آدم، أقسم لك أن عقابي

سيكون عظيمًا.

لم يكتث آدم لما سمعه في الهاتف، أخبر القائد بما قاله والده فساد الصمت المكان. أشار قائد فرسان الرب لأحد رجاله بالتوجه نحو الباب لفتحه، وإخراج طفلة صغيرة في الرابعة من عمرها كانت تجلس على إحدى الأرائك؛ ففعل الرجل ما أمره به قائده وبمجرد ما أن خرجت من الباب وهي تبكي أغلق الباب خلفها.

رفع آدم سماعة الهاتف مرة أخرى وأخبر والده بما حدث؛ فطلب منه الأخير أن يقول له أسماء الأسرى للإفراج عنهم ففعل على الفور. وضع آدم سماعة الهاتف، ثم التفت إلى قائد فرسان الرب وقال:

- في خلال ساعة من الآن سيتم تنفيذ مطالبكم.

سأله القائد بعينين تقدحان بالشر:

- وكيف لنا أن نعرف أن الأسرى يقفون في غابة الأحرار سالمين معافين ويحملون معهم الدواء والغذاء؟

علم آدم أن هذا السؤال سيتم طرحه عاجلاً أو آجلاً، أجابه:

- ماذا تقترح؟

فكر القائد قليلاً، ثم قال:

- تحدّث مع رجالك بالخارج واطلب منهم إحضار خمس عربات ثم مغادرة السائقين لها لتصبح فارغة، واطلب من رجالك أن يرحلوا عن المنزل ليعودوا إلى بيوتهم.

أدرك آدم ما يحاول القائد أن يفعله؛ فهو يرغب في الصعود على

متن العربات هو ورجاله مع الرهائن ليذهبوا جميعًا إلى حدود المدينة ليشاهدوا مغادرة الأسرى بسلام. سأله آدم:

- وهل سوف ترحل طائفتك مع الأسرى؟ أم ستعودون مع الرهائن إلى هنا؟

ضيّق قائد فرسان الرب عينيه، ثم أجابه:

- لماذا خُذعت فيك يا سيد آدم؟ قالوا عنك أنك ذكي ولكنني أرى الآن ولدًا صغيرًا مدللًا لا يفقه شيئًا.

جرّ آدم على أسنانه وكوّر قبضتيه غيظًا، ولكنه اغتصب ابتسامة واهنة، ثم قال:

- لا علاقة للذكاء بالأمر يا سيد فارس، أرغب فقط في تقييم كل الخطوات التي نحن مقبلون عليها؛ لكي لا تسيل الدماء البريئة بلا هدف، ألا تتفق معي؟

- لنتفق يا سيد آدم، على أننا أشجار والمدينة الضبابية هي التربة التي ترتوي جذورنا من مياهها، وإن تركناها سنذبل لا محالة، هذا هو ردي على سؤالك.

لم يعلق آدم على كلامه فتوجه إلى الهاتف وأخبر والده بما قاله القائد، ثم توجه إلى الباب وأخبر قائد الشرطة بما يجب أن يفعلوه فتفرقوا جميعًا وذهبوا مبتعدين عن محيط المنزل، بينما ظل من بالداخل في انتظار العربات التي استغرقت نحو النصف ساعة حتى وصلت. وما إن نزل سائقي العربات وابتعدوا عن المنزل، خرج رجال الطائفة مع الرهائن وهم يستخدمونهم كدروع مضادة لرصاص

الأسلحة النارية، ثم صعدوا جميعًا على متن العربات يصحبهم آدم وراكان وتوجهوا إلى حدود المدينة.

كان الأسرى بانتظار رجال الطائفة على حدود المدينة، وبجانبيهم رجال الشرطة وفرسان الجيش على أهبة الاستعداد. توقفت العربات قرب الحدود؛ فأمر قائد الطائفة أن ينزل آدم ويأمر الشرطة والجيش بأن يسمحوا للأسرى بالعبور خارج أسوار المدينة، ففعل آدم كل ما طلبه منه القائد، فشهد الجميع واحدًا من الكينمارو للمرة الأولى وهو منكس الرأس يرضخ لأوامر السكان الأصليين. خرجت العربات وهي تحمل على متنها الأسرى واللوازم الطبية والغذائية كما نصّ الاتفاق، وعندما تأكّد قائد فرسان الرب أن الأسرى عبروا الحدود بسلام أخرج سلاحه الناري، ثم أطلق النار على آدم وهو يقف بجانب البوابة!

أصابت الطلقة النارية ظهره فخارت قواه وسقط على الأرض وهو ينزف الدماء، بينما اشتعلت الحدود بين الكينمارو والسكان الأصليين وغابة الأحرار.

عندما فُتحت البوابة، حاول بعض من سكان غابة الأحرار الذين كانوا يختبئون بين الأشجار أن يدخلوا إلى سالتيور، ولكن الكينمارو تمكّنوا من ردعهم وقتل الكثير منهم ولكن الثمن كان باهظًا؛ فالجثث المتساقطة من الفريقين تكومت أمام البوابة حتى تمكّن الكينمارو من غلقها أخيرًا.

عندما أطلق قائد الطائفة النار على آدم لم يقف راكان مكانه، بل أسرع نحو القائد الذي لاذ بالفرار بعيدًا عن الحدود، ولكن راكان كان

أسرع منه فأمسك به ولكم وجهه فسقط القائد على الأرض وهو يتأوه من الألم، بينما قال راكان:

- لماذا أطلقتكم النيران على ظهره؟ لقد كان بيننا اتفاقاً.

أجابه قائد الفرسان وهو يبتسم، بينما الدماء تتساقط من فمه:

- لا يوجد اتفاق بيننا وبين مغتصبي الأرض أيها الكلب الخائن.

لكمه راكان مرةً أخرى حتى فقد الوعي، تركه وتوجه نحو سيده وساعده على النهوض، ثم استطاع أن يصعد على عربة من العربات الخمس وساعد سيده في الدخول، ثم أمسك باللجام لتعود الأحصنة إلى قلعة تيلارين.

بمجرد أن علم السيد ليرون أن نجله الوحيد تصرف بغبائه المعهود، وذهب إلى قائد الطائفة مع السيد راكان فقط دون الاستعداد لهذه المقابلة الانتحارية، بل ودون علمه، جلس على مقعده المريح في مكتبه وهو يفكر في الخطوة التالية التي ستحدد مصير ابنه المتهور.

فتح درج المكتب الذي يحتوي على هاتف أسود خاص بالسيد ليرون فقط، ولا أحد يعرف من يتحدث معه من خلاله، ولكنهم يعلمون أنه الوحيد الذي يستخدمه، ثم رفع السماعة وطلب الرقم المراد الاتصال به، ثم أخبر الطرف الآخر أن الأمور خرجت عن السيطرة وأن ابنه لن يرتاح إلا عندما يتسبب في هلاكه أو هلاك المدينة بأسرها، ثم انتظر لدقيقة كان الطرف الآخر يتحدث فيها، فأوماً السيد ليرون على مضيض ثم أغلق الهاتف.

نظر السيد ليرون إلى الصندوق الأسود الذي أتى إليه منذ قليل، ثم تردد كثيرًا في فتحه؛ فهو لم يحب التغيير أبدًا لقد كان من أنصار الاستقرار، وعلى الرغم من أن الحاكم الأخير كان يثير حنقه كثيرًا فإنه حافظ على سالتيور من ضربات سكان غابة الأحرار لسنوات طويلة، ولكن المرض الغريب جعلهم جميعًا يفقدون السيطرة على أشياء كثيرة، وقد كان هذا هو العذر الوحيد للحاكم السابق.

أما الآن، فهو ينظر إلى هذا الصندوق الذي تصل أوامر أسياده إليه عبره مترددًا في فتحه، فإن المرشحين لمنصب الحاكم لم يكونوا على وفاق معه وبالأخص والد قائد حرسه السيد راكان، ولكنه مجبرٌ على فتح الصندوق لمعرفة اسم الحاكم القادم.

قبل أن يفتح الصندوق، دخلت غزل إلى المكتب دون أن تطرق على الباب، فلم يتمكن السيد ليرون من إخفاء الصندوق مما أصابه بالغضب. وقفت غزل تتفحص الصندوق الأسود بعينيها الرماديتين ثم جلست أمام المكتب، ونظرت إلى عمها وهي تسأله:

- ماذا يوجد في هذا الصندوق؟

- يوجد به شيء لا يخصك يا عزيزتي!

ابتسمت بسماجة، ثم قالت:

- لماذا كانت الأسرار في هذا المكان حكرًا على الرجال فقط؟ ماذا رأيتم منا -نحن النساء- حتى تخشوا مشاركة أسراركم معنا؟

لم يكن السيد ليرون على استعدادٍ لجدالٍ آخر مع غزل، التي لم تدخر جهدًا طوال سنوات حياتها في خوض أفزع النقاشات وأشدّها

حدةً معه أو مع ابنه. إنه يحمل هموم الكون بأسره فوق ظهره، بينما هي الآن تجلس أمامه لتتحدث عن الأسرار وعدم مشاركتها بها، هكذا فكّر في قرارة نفسه.

قال:

- غزل، لقد ذهب آدم لمقابلة قائد فرسان الرب الذي يحتجز عائلة شرطي مكونة من أطفالٍ عديدة ونساء وعجائز، وأنتِ الآن تجلسين هنا لتسألني عما يحويه هذا الصندوق، بل وتحدثين عن مشاركة الأسرار. حسناً، إن لم تصمتِ الآن أقسم أنني لن أعتز بوصية والدتك لي بعد الآن ولنسوف ألقى بك في شوارع المدينة!

قال جملته الأخيرة بعصبية جعلت غزل تنظر إليه بحقدٍ وكراهيةٍ لطالما أضمرتهما في قلبها نحو عائلتها، وبالأخص رجال العائلة؛ فهُم المسيطرون على كل شيء، لهم نفوذٌ لم تكن ولن تكون لها أو لشقيقتها التي غر عليها منتحرةً في فراشها بعدما قطعت شرايينها. نهضت من فوق المقعد، ثم وقفت أمام المكتب وقالت بتجهيم:

- لقد التزمث الصمت يا سيد ليرون، طوال أعوامٍ، وما رأيته في هذه القلعة يشتعل له الرأس شيئاً، ولهذا السبب لا أنصحك بتهديدي ثانية، فأنت تعرف أنني لست كسائر نساء العائلة، وما حدث لهن في الماضي لا يمكن أن يحدث معي، وأنت تعرف هذا.

لم يعلق على كلامها، بل وضع الصندوق الأسود في الدرج ثم أغلقه بالمفتاح وهو ينظر إليها شذراً، اقترب منها وقال بنبرةٍ لم تخلُ من التهديد:

- القيل والقال في الآونة الأخيرة لم يعد يهمنا، السؤال الذي تعتبرينه ورقة ضغط علينا لم يعد يُطرح كثيرًا، هل تعلمين السبب في توقف الكثيرين عن قول "لماذا تموت النساء في عائلتك يا سيد ليرون ويعيش الرجال فقط؟"

صمت لبرهة وهو ينظر في عينيها، ثم أردف:

- لأن المدينة تشتعل يا عزيزتي، ولم يعد أحد يهتم بك أو بنساء عائلتي، وإن كنت مكانك لعثرت لنفسي على مكانٍ لأختبئ فيه من الآن فصاعدًا.

ابتلعت ريقها وهي تنظر إليه بخوف ومشهد والدتها وهي تُقتل بدم بارد لا يفارق عقلها، غادرت المكتب ثم أغلقت الباب بعنف خلفها ولكنها تجمدت مكانها عندما سمعت أصواتًا تنادي عليها تأتي من خارج النافذة التي ترى الأضواء الزرقاء من خلالها دومًا، اقتربت من النافذة وهي تتنفس بقوة من فرط الخوف، ثم وقفت تراقب الأضواء الزرقاء الآتية من البحر.

اختفت جميع الأنوار من المكان؛ ففرقت في ظلام حالك جعلها تستدير لتبحث بجنونٍ عن المشكاة لتأخذ منها المصباح، ولكنها لم تعثر على شيء، وقفت في منتصف البهو وهي ترتعش من البرد والخوف معًا، فإن الأصوات الهامسة تحولت إلى ضحكاتٍ تصدر من شخص مجنون يقف بجانبها!

كان الشخص ذو القناع المخيف والرداء الأحمر القاتم يضحك كالمجانين وهو يدور حولها، ثم يختفي ثم يعاود الظهور مرةً أخرى في مشهد جعلها تبكي من فرط الهلع.

أمسكت فتاة صغيرة بساقها وهي تنظر إليها بعينين بيضاوين لا بؤبؤ لهما، وكانت الفتاة تنتحب والشخص الغامض يدور حولها وهو يضحك، بينما وقفت غزل في المنتصف وهي تضع يديها على أذنيها حتى لا تسمع هذه الضحكات الهستيرية، ولكنها لم تنجح أبدًا؛ فأصواتهم العالية والمفزعة كانت تؤذيها بشدة.

اختفى الشخص الغامض من أمامها، ولكنه ظهر مرة أخرى وهو يقف بجانب الجدار ليكتب عليه عبارات جعلتها تصرخ من الألم؛ بسبب صوت أظافره الطويلة التي راحت تحدث صوتًا مزعجًا بينما خطت الكلمات عليه.

كتب الشخص الغامض على الجدار "هل أنت مستعدة للمحاكمة؟" بأظافره الطويلة المخيفة، فقالت غزل وهي تبكي:
- أي محاكمة؟ أنا لم أفعل شيئًا، لقد كان بيننا اتفاق.

توقفت الأصوات فجأة واختفى كل شيء، ولكن المصباح لم تشتعل مرة أخرى، انتفض جسد غزل فزعًا وهلعًا وهي تقف في منتصف البهو بحثًا عن الشخص المخيف والذي عاود الظهور مرة أخرى ثم اختفى؛ فكلما توهجت الأضواء الزرقاء ظهر الشخص المخيف معها، وكلما خفت اختفى بدوره. كادت غزل أن تفقد عقلها فصرخت بأعلى صوت عندما شاهدت أمها وجميع نساء عائلتها وهن يقفن بجانب بعضهن البعض في مشهد مرعب؛ تراجعت بضعة خطوات إلى الخلف وهي تبكي متوسلة إياهن لكي لا يقتربن منها.

أشعلت الخادمة المصباح واقتربت من غزل وسألتها:

- هل أنت بخير سيدتي؟

دفعتها غزل إلى الخلف فوقعت الخادمة المسكينة على إحدى المناضد الزجاجية؛ فهشمتها جمجمتها التي راحت تنزف الدماء على الفور بسبب الزجاج المنتشر فيها! ماتت الخادمة البائسة بينما وقفت غزل تنظر إليها وهي تتنفس بصعوبة، وعندما أتى السيد ليرون وشاهد ما حدث نظر إلى غزل، ثم قال ببرود:

- أشعر بالامتنان كثيرًا لأنها ليست من الكينمارو، وإلا كانت الفضيحة تدوي في سماء سالتيور. سأتولى أمرها، اصعدي إلى غرفتك ولا تخرجي منها رجاءً.

نظر السيد ليرون إلى الباب الذي ظهر فجأة في الجدار أمامه، ثم تنهد وأغمض عينيه قليلًا ليهدأ الألم برأسه ولكنه لم يفعل، حمل الخادمة ثم توجه إلى الباب الذي فُتح من تلقاء نفسه فدخل إليه وهو يحمل جثة المسكينة لينغلق الباب خلفه ويختفي تمامًا.

مرح

وقفت أمام الباب أنظر إلى الظلام الدامس المنبعث من داخل النفق، ارتعشت يداي وخارت قواي كثيرًا فلم أعد أحتمل الوقوف أو السير، ولكنني أسندت يدي على الباب ثم جدار النفق؛ حتى أتمكن من السير بداخله دون الوقوع على الأرض.

نظرت خلفي فرأيت الكينمارو الأول وهو يتسم لي ابتسامته المرعبة ويودعني بيده اليمنى، لطالما كرهت حركة الوداع باليد وها هو ذا يفعلها وكأنه وحش خرج من أسوأ كوابيسي على الإطلاق. صفع الباب خلفي فانتفضت في مكاني في هلع وأنا أستمع إلى صوت الظلام من حولي!

كانت أصوات كثيرة متداخلة تحيط بي ولكنني لم أعرف مصدرها؛ كانت تشبه صرير الباب المزعج تارةً، وأحيانًا تشبه أصوات خربشات الأظافر على الأرض تارةً أخرى، ولكنها كانت مرعبةً في كلتا الحالتين.

سرت في بحر من الظلام لا أرى شيئًا فيه حتى بعد اعتياد عيني عليه، فلم أتمكن من رؤية شيء، ولكنني سمعت صوتًا يأتي من بعيد. سرت بخطوات متعاقلة حذرة للغاية نحو الصوت حتى اصطدمت عيناي بضوء يأتي من مصباح معلق على الجدار أمامي، ولكن المفاجأة كانت تقبع أمامي مباشرةً حيث وصلت إلى سبعة ممرات بداخل النفق وعلى ما يبدو يتحتم عليّ اختيار ممر منهم!

كطفل تائه وقفت أتطلع في المشهد المفزع أمامي لا أدري أي درب

أسلكه، وإلى أين يؤدي الطريق الذي سوف أسير فيه؟! ولكن هذا لم يبت الرعب في نفسي بالقدر نفسه الذي بمتته فكرة التوجه نحو المجهول دون معرفة ما قد يواجهني على الجانب الآخر من الباب المختار.

لا أدري كم دقيقة وقفت مكاني أنظر إلى السبع ممرات مشتتة التفكير خائفة أشعر بالوحدة كما لم أشعر بها من قبل، رأيت لافتة على اليمين لم أرها من قبل فأسرعت نحوها لأرى ما كُتب عليها.

"سبعة أبواب، وراء كل باب قصة لها أصحاب، سبعة أبواب، بين كل باب وباب عقاب".

قرأت ما كُتب على اللافتة وعلى وجهي ارتسمت أمارات التعجب مما قرأت، ولكنني انتبهت إلى صرخات طفلة صغيرة تخرج أصواتها المفزعة من إحدى الممرات، لم أحتمل الصوت على الإطلاق فبكيث بحرقية على ما أمر به وما مررت به من قبل، كلما تخيلت ما تعانيه الطفلة ويجعلها تصرخ بهذا الشكل شعرت بغصة في قلبي الذي أكمده الغم والحزن.

لا بد أن أختار الممر الذي سوف أسلكه ولكنني حائرة لا أعرف أيهم أختار، ليس ذلك الذي يأتي منه صراخ الطفلة على ما يبدو، أسرعت نحو الممر الأول الذي لم أسمع شيئاً يأتي منه وسرت فيه لبضعة ثوانٍ حتى وصلت إلى باب خشبي أسود اللون، فوقفت أمامه أتأمل النقوش عليه؛ لم تشبه أي شيء رأيته سابقاً فهي رسومات لأشخاص يرتدون رداءات غريبة، وفوق رؤوسهم استقرت هالات تشبه حلقات القمر. تصاعدت من خلف الباب أصوات لأشخاص يترنمون على

أنغام مخيفة؛ فأثارت أصواتهم الهلع في نفسي؛ لذا استدرت وعدت إلى حيث كنت فوقفت أنظر إلى السبع ممرات وأنا ألث من الجري والتعب. أغمضت عيني وحاولت أن أستمع إلى أي شيء ولكن المكان كان هادئًا بشكل مريب، فتحت عيني وعزمت على السير في الممر الرابع، وما إن وصلت حتى رأيت الباب الأسود أمامي بكل تفاصيله وهو يشبه الباب الذي تصاعدت الترانيم المخيفة من داخله، ولكن هذا الباب أمامي لا تأتي من خلفه أصوات؛ فالصمت هو سيد المشهد، فتحت الباب بيد مرتعشة وقلبي يقفز في صدري هلعًا.

كان المكان مظلمًا إلى حد ما عندما دخلت من الباب، يبدو أنني أقف في قبو لمنزل ما؛ لا بد أنها إحدى المنازل التي رأيتها وأنا قادمة إلى هنا.

رأيت مصباحًا فوق المنضدة التي استقرت في إحدى أركان الغرفة، فتوجهت إليه وأمسكت به لينير لي المكان. لم يكن القبو مكتظًا بالأشياء القديمة غير المستعملة كما هو الحال في الأقباء الطبيعية، ولكنه كان فارغًا باستثناء المنضدة التي كان المصباح فوقها، لاحظت الدرج المؤدي إلى الأعلى فتوجهت إليه وصعدت، ثم توقفت أمام الباب فاسترقت السمع لأطمئن، ولكنني لم أسمع شيئًا.

فتحت الباب بيد مرتعشة وخرجت منه لأتفاجأ أن إحدى الغرف المغلقة على يميني يأتي صوت مكتوم منها، لم يكن الممر الذي أقف فيه منيرًا بل كان المنزل غارقًا في الظلام مثل القبو، توجهت إلى الغرفة المغلقة وفتحت بابها.

اتسعت عيناى دهشة مما رأيته؛ كانت أجساد أطفال صغار ممددة

على الأرض، والكثير من الأشخاص ذوي الرداءات السوداء يقفون حولهم وهم يقولون أشياء غير مفهومة بالنسبة لي، ولكن هذا لم يدهشني على الإطلاق بل التجويف الفارغ في أعين الأطفال والكثير من أطرافهم المقطوعة هو ما أصابني بالهلع والفرع على حد سواء. لسبب أجهله لم ينتبه أحدًا لوجودي؛ فانتهزت الفرصة وخرجت من الغرفة المشؤومة ثم عدت إلى القبو مرة أخرى ومنه إلى النفق المظلم.

ما إن وقفت في النفق؛ أسندت ظهري إلى الحائط وأنا أحاول أن أتنفس بصورة طبيعية بعد اللهاث الشديد بعد الركض، احتشدت الدموع في مقلتي ولكنني يجب أن أخرج من هذا النفق بأي شكل من الأشكال؛ فحرיתי وخلصني هنا كما ادعى الكينمارو الأول.

أمسكت بالمصباح وسرث نحو الممر الخامس، فلم أجد أبوابًا بل نهايةً مسدودة ولكنني تسقّرت مكاني عندما ضغطت قدمي على شيء حاد جعلني أصرخ بكل ما أوتيته من قوة بسبب الألم الشديد؛ نظرت إلى الأرض فرأيت نصلًا حادًا لامعًا صغيرًا غرس في الأرض وأنا أقف عليه الآن وقدمي تعانقه.

رأيت دمائي تروي الأرض الزلقة من أسفلي فأنارت الدماء الأرض بلون أحمر يشع النور منه في مشهد لن أنساه أبدًا، ثم رأيت الباب يظهر أمامي وكأنه لا يُظهر نفسه إلا عندما ترتوي الأرض بدماء الشخص الذي يبحث عنه!

حاولت أن أتخلص من النصل الحاد؛ فرفعت قدمي وأنا أبكي وأصرخ بشدة من الألم، وعندما نجحت أخيرًا من الفرار أسرع نحو

الباب ثم فتحته دون تفكير. كان الحال نفسه كما حدث في الباب الآخر؛ فالقبو فارغ إلا من المنضدة والمصباح، وهناك الدرج المؤدي إلى الأعلى ينتظرني كالوحش السرمدى.

صعدت ودمائي تتساقط على الأرض بلا توقف فتترك أثرًا مربعًا خلفي، فتحت الباب وخرجت منه أبحث عن الغرفة المغلقة لعل الخلاص يكمن بداخلها، ولكن الغرفة التي فتحتها جعلتني أغلق بابها بسرعة من هول ما رأيته؛ هناك مجموعة من الرجال يغتصبون أطفالًا صغارًا مكبلين بسلاسل لا حول لهم ولا قوة يصرخون لينجدهم أحد ولكن هذا أملٌ بعيد للغاية. للمرة الثانية ألاحظ أن وجودي غير ملحوظ على الإطلاق وكأنني شبح يتجول بينهم، ولكنني حمدت الإله على هذا، فإن رأيت أحدهم لكنت جنة هامة منذ وقتٍ بعيد.

عدت مرةً أخرى إلى النفق ومشهد الأطفال المكبلين على الأرض يأبى أن يختفي من عقلي، فجلست على الأرض لألتقط أنفاسي وأستجمع قواي التي خارت كثيرًا. بكيت وأنا أتذكر ما حدث وما رأيته منذ أن وافقت على النزول إلى سالتايورا المظلمة، وكل هذا بسبب الرواية الغبية التي أردت أن أجد المال الكافي لنشرها. يا لحماقتي! لطمث وجهي ثم لطمته ثانية وظللت هكذا أطم وجنتي حسرةً على ما فعلته في حق نفسي، تمنيت كثيرًا لو أن الإله لم يمنحني هبة الكتابة التي تحولت إلى لعنتي الأبدية.

عندما استجمعت شتات نفسي، نهضت وتحسست الطريق إلى الممر السادس لعل الخلاص يكمن في نهايته.

قبل أن أصل إلى نهاية الممر المسدودة كما توقعث نظرت أسفلي؛ لكي لا تغرس قدمي في إحدى النصول، ولكنني لم أفلت من العقاب على ما يبدو؛ فهناك شيء طار بجانبني لم أشعر به ولم أَرَهُ ولكنني شعرت بأثره على ذراعي الذي راح ينزف وأنا أنظر إليه بلا صوت من المفاجأة، فعلت دمائي ما فعلته من قبل، فظهر الباب أمامي بعدما توهجت الدماء باللون الأحمر المستفز فأسرعت إلى الباب ودخلت ثم صعدت إلى الأعلى.

كانت الغرفة المنشودة تختلف كثيرًا عن الغرفتين السابقتين؛ فهي فارغة تمامًا وكأن بحر الفراغ والظلام اجتمعًا بداخلها.

دلفث إلى الداخل، وكلما مشيت فوق الظلام رأيت الأضواء من أسفلي تلمع وهناك أشخاص يتحركون وكأنني أسير فوق سطح زجاجي يسمح لي برؤية كل ما يحدث في الطابق السفلي، إلا أنه لم يكن طابقًا أو شيئًا من هذا القبيل بل إن الأمر أشبه بفضاء شاسع أطيّر فوقه وأحلق كالطيور. هناك بالأسفل رأيت سالتيورا تحترق والدماء تلتخ كل شبر فيها، الرجال يقتلون بعضهم البعض والنساء يصرخن والأطفال يهربون هلعًا وخشية مما يحدث.

لم يعد قلبي يحتمل الأهوال التي رأيثها في هذه الليلة المشؤومة التي لن أنساها ما حييت، عدت إلى النفق مرة أخرى وتوجهت على الفور إلى الممر السابع، ثم توقفت أمام النهاية المسدودة بانتظار العقاب الذي أشارت اللافتة إليه سابقًا، ولكن لم يحدث شيء، ربما نزيف قدمي وذراعي كانا كفيلين بإظهار الباب الذي رأيثه يتجلى من الأسفل في مشهد عجيب لم يسبق لي رؤيته من قبل.

فتحت الباب وأسرعث إلى الداخل وأنا أتنفس بصعوبة، فتفاجأت
برياح شديدة ورذاذ لمياه البحر ورائحته المميزة. كنت أقف في
فضاء شاسع يحيط الظلام بي من كل حدب وصوب، ولكن في ركن
بعيد من الغرفة أو الفضاء الذي أقف فيه رأيت منضدة مستديرة
كبيرة للغاية، يقف حولها رجال يرتدون رداءات حمراء اللون
ويخفون وجوههم بغطاء الرأس؛ فلم أتمكن من رؤيتهم. اقتربت
بحذر منهم وأنا أشعر بالاطمئنان؛ لأنهم لن يروني كما حدث في
الغرف السابقة، ثم وقفت على مقربة منهم وأنا أتطلع في الرسومات
التي حُفرت في المنضدة؛ إن كانت عيناى تعملان بكفاءة فأنا الآن
أرى منازل، وأزقة، وطرقا، وغابات لمدينة يبدو أنها سالتيورا على
ما أظن أو إحدى المدن الأخرى، وكانت معالمها محفورة في المنضدة
والأشخاص المخيفون يقفون حولها.

أمسك كل واحد منهم في يده اليمنى بصندوق أسود صغير للغاية،
فقد كان في حجم كف اليد أو أصغر قليلاً، أما اليد اليسرى فاستقرت
بها بطاقات معدنية سوداء. أصابتني رؤية الصناديق الصغيرة بكآبة
لم أشعر بمثلها من قبل ولسبب أجهله، وبعدها تفاجأت عندما ترك
الأشخاص الغامضون تلك الصناديق لتطفو في الهواء فوق رؤوسهم!
تراجعت بضعة خطوات إلى الخلف لأغادر هذا المكان الكئيب
والمخيف، ولكنني اصطدمت بجسد ما يقف خلفي فالتفتت الرؤوس
جميعاً نحوي لأؤكد وبلا شك أنهم الآن يروني، وأني لم أعد شبحاً
بالنسبة إليهم!

دق قلبي في صدري الذي راح يعلو ويهبط من فرط الهلع، حاولت

أن ألتقط أنفاسي ولكن الهواء يأبى أن يطاوعني؛ فأصبح التنفس مستحيلًا وأنا أقف أمام أشخاص لست على يقين من أنهم بشر في المقام الأول! استدرت ببطء لأرى من يقف خلفي، ولكنني وعلى حين غرة رأيت ضوءًا أبيض أعمى عيني لبضع ثوانٍ، ولكنني تفاجأت عندما فتحت عيني ثانية؛ كنت أقف في دار الشفاء المهجورة وكأنني استيقظت للتو من كابوس مزعج للغاية، ولكن ذراعي وقدمي النازفين أكدّا لي أن ما رأيته كان حقيقيًا ولا جدال في هذا.

عندما عدت إلى حي المصانع، تفاجأت بمجموعة من السكان الأصليين يقفون أمام منزل السيد يوسف؛ احتجاجًا على اختفاء الفتيات والأطفال وجرائم القتل التي زادت أعدادها مؤخرًا، فاللافتات أوضحت لي كل شيء فلم أكن بحاجة إلى أي تفسير من أي شخص يقف في هذه الوقفة الاحتجاجية.

سرت بين الحشود ودمائي تتساقط على الأرض، ولكن المثير للدهشة أنه لم يلحظ وجودي أحد، كنت أسير بينهم وكأنني شبح غير مرئي! وصلت إلى منزلي، فطرق الباب لتفتح لي أمي التي ظهرت على وجهها علامات الاندهاش والفرحة في الوقت نفسه. ارتمي في حضنها وأنا أبكي، بينما ظلت هي واقفة ولم تحتضني بل قادتني إلى الداخل وشفعتني لأول مرة في حياتها. أنا لا ألومها في الواقع فإن كنت مكانها لفعلت الأسوأ بالطبع، ولكن أمي رحيمة بي على الرغم مما فعلته وما سببته لها من قلق وحزن على اختفائي هكذا دون إنذار.

أخبرتني الكثير من الكلام الذي يدمي القلوب من حديثه، ولكنني

لم أعلق والتزمت الصمت. ذهبت إلى دار الشفاء لتضميد جراحي، وعندما سألني الطبيب عن سببها كذبت بالطبع فليس عندي ما أقوله سوى الكذب!

مرت الأيام وأنا أجلس في غرفتي لا أتحدث مع أحد ولا أخرج منها على الإطلاق، وتوقفت عن الذهاب إلى العمل بالطبع، حتى الشرفة التي كانت نافذتي على العالم الخارجي لم أعد أحتمل الاقتراب منها. كنت أجلس وحيدة لأيام بداخل غرفتي وأنا أتذكر ما رأيته في سالتيور المظلمة وما شعرت به هناك فكاد عقلي يجن. حتى أتى ذلك اليوم العجيب الذي استيقظت فيه من نومي على صوت غريب يأتي من الشرفة، كان الظلام الحالك يغلف المكان بداخل منزلنا وخارجه، يبدو أن المصابيح منطفئة لسبب أجهله.

كان الصوت الغريب يشبه الترانيم المخيفة التي سمعتها وأنا في النفق المظلم، تقدّمت ببطء من الشرفة وأنا أرتجف من الهلع، هناك أسفل شرفتي كانت المنضدة المستديرة يقف حولها الأشخاص ذوو الرداءات الحمراء، ويرتدون أقنعتهم المخيفة كما رأيتهم في الغرفة المخيفة من قبل.

لم ينظروا لي في البداية؛ فقد كانوا مشغولين بوضع أشياء لم أتبينها في الصناديق السوداء الصغيرة، ولكنهم تركوها فجأة والتفتوا لي جميعًا ثم قالوا أشياء بلغة لم أفهمها بصوت مرعب وهم يشيرون لي بأصابعهم الطويلة ذات الأظافر المخيفة.

استيقظت من الكابوس المفزع على صوت ريما وهي تخبرني أن والدتي مريضة للغاية، وأننا لا بد أن نذهب الآن معها إلى دار الشفاء.

ارتديت ملابسى بسرعة، وذهبت مع والدتي التي كانت تتنفس بصعوبة وذهبنا إلى دار الشفاء. رأيت شقيقتي وهي تفتح ضرة العملات الذهبية التي أعطيها لها من قبل ودفعت كل ما فيها من أجل علاج أمي المسكينة والتي كانت تعاني بحق من شدة الألم. أخبرنا الطبيب أنها مريضة للغاية وأنها فقط مسألة وقت حتى يتوقف قلبها عن العمل تمامًا، وأنه من الأفضل لو مكثت في دار الشفاء من الآن فصاعدًا لعل صحتها الجسدية والنفسية تتحسن.

عدت إلى المنزل بقلبي مفطور ينزف قهزًا وحزنًا، ثم جلست على الفراش أفكر فيما يجب أن أفعله لكي أعطي تكاليف العلاج التي كانت تفوق طاقتنا المادية. لم تكن وظيفة ريماء لتغطي كل هذه التكاليف، فكرت مليًا حتى أدركت أن أمامي خيارين لا ثالث لهما؛ إما أن أذهب إلى سالتورا المظلمة لأحصل على صرة أخرى، أو أتحدث مع أرسلان لعله يساعدني.

بمجرد ما أن عبرت فكرة العودة إلى سالتورا المظلمة في عقلي اضطربت معدتي فتأجج شعور الغثيان بداخلي؛ لذا توجهت إلى كابينة الهاتف في الميدان الكبير وأنا أحمل الورقة التي أعطاها أرسلان لي، ثم طلبت رقم الهاتف في قصره فجاءني صوت إحدى الخادמות لتسألني عما أريده، أخبرتها فطلبت مني أن أنتظر لدقائق حتى يأتي السيد أرسلان.

ما إن سمع صوتي صمت قليلًا، فسمعت صوته وهو يتنفس بقوة في الهاتف وكأنه لم يتوقع اتصالي أو لم يرغب فيه -لا أدري- ولكنني متأكدة أنه مستاء؛ لأنني لم آت إليه في دار الشفاء في الموعد

المحدد كما طلب مني حينها، وأنا لن ألومه فهو محق فيما يشعر
بالطبع.

قلت بصوت واهن:

- لك مطلق الحرية أن تغلق الهاتف الآن وألا تقبل أن تتواصل
معي ثانية، ولكن أُمي يا سيد أرسالن، تتأرجح روحها بين الحياة
والموت، وأنا بحاجة ماسة إلى المال وأظن أنه لا أحد سواك بإمكانه
مساعدي.

لم يعلق على كلامي على الفور بل التزم الصمت لبضع ثوانٍ قبل أن
يقول:

- حسناً، سوف تأتي عربة إليك بعد ساعة من الآن، أتمنى أن يجده
السائق أمام كابينة الهاتف وألا تفعل معي كما فعلت معي من قبل.

أغلق سماعة الهاتف، ففعلت بدوري وعدت إلى المنزل لأتفاجأ بريما
وهي تبكي بحرقة، جلست بجانبها وبكى وأنا أحتضنها حتى كاد
قلبي ينخلع من شدة الألم. أخبرتها أنني ذاهبة إلى قصر أرسالن لكي
أعمل فيه لتوفير المال؛ فأصابها كلامي بالغضب ولكنني تمكنت من
تهديتها في نهاية الأمر.

وقفت أمام الكابينة بانتظار العربة، والكثير من الرجال ينظرون
لي نظرات ليست بريئة لا تبعث على الخير أبداً، لا بد أنهم يظنونني
واحدة من فتيات الليل، فمن المألوف أن ثرى إحداهن تقف هكذا
معلما أفعل الآن في هذا الوقت المتأخر. أتت العربة أخيراً، فصعدت
على متنها لتسير بي في دروب سالتيور المظلمة حتى توقفت

أمام قصرٍ ضخمٍ تتميز ألوان جدرانها باللون الأبيض، يبدو عليه القدم قليلاً ولكنه كان فخماً للغاية، ويحتوي بداخله على العديد من الطوابق والغرف.

عندما دخلت قصر السيد أرسلان، أصابتنى حالة من الانبهار وأنا أرى الأناقة والفخامة في كل شيء؛ بدايةً من الأثاث وانتهاءً بالأشخاص الذين يعيشون فيه. ساعدني السيد أرسلان بالفعل في العمل كخادمة في القصر الكبير، وليس هذا فحسب بل تحمّل تكاليف علاج أمي التي كانت صحتها تتحسن بالفعل، حتى أن الطبيب سمح لها بالخروج بعد أسبوعين من الصراع مع المرض.

ومرت الأيام وأنا أعمل في القصر لخدمة أرسلان وعائلته الثرية ذات النفوذ، إن السيئة الوحيدة لعملي في القصر هي عدم ذهابي إلى عائلتي كثيراً ومنع زيارتهم لي؛ فلم يكن الاختياران من السهل تنفيذهما، ولكنني اعتدت الأمر ولم أتذمر بل شعرت بالراحة لأنني اختفيت عن الأنظار، ولم يعد لي أثرٌ في نظر سالتيور المظلمة.

كانت العلاقة بيني وبين السيد أرسلان علاقةً عجيبة؛ فهو بارد في كثيرٍ من الأوقات، يتحدث معي بجفاء، وفي أوقاتٍ أخرى لا يوجد من يحنو على قلبي التعيس مثله! وعدني ذات يوم أنه سوف يساعدني في نشر روايتي، وأنه لا بد أن أكتب مرةً أخرى؛ فشعرت بسعادةٍ لم أشعر بمثلها من قبل ووعده أن أكتب ثانيةً وأسلمه الرواية فور الانتهاء منها.

كنتُ أجلس بمفردي في البهو ذات يومٍ، عندما سافرت عائلة السيد أرسلان إلى مدينةٍ أخرى فتركونا ورحلوا؛ فانتهزت الفرصة لأتصل

بشقيقتي لتأتي إليّ ولكنها لم توافق.

قالت بعصبية:

- أنتِ بأي حقٍ تتحدّثين معنا الآن؟

تفاجأت بردها فسألها:

- ماذا تقولين يا ريماء؟ ولماذا تتحدّثين بهذه الطريقة؟ هل أسأتُ إليك أو ما شابه؟

- هل حقًا تتظاهرين بالغباء الآن؟ أنا لا أصدقكِ يا مرح!

انهمرت دموعي وأنا أستمع إلى كلامها دون فهم، سألتها:

- أتوسل إليك أن توضح لي ما تقصدين بكلامكِ.

صاحت في الهاتف قائلة:

- هل تحاولين إثارة غضبي الآن أم ماذا؟ ألم تذهبي إلى ذلك المكان الذي يفعل فيه الكينمارو كل ما هو محرم وغير قانوني يا مرح؟ هل تنكرين الآن أنك ذهبتِ إلى ذلك المكان الذي يتهامس به الناس أجمعين منذ سنوات؟ بل هل تنكرين أنك لم تذهبي للعمل في ذلك القصر كما تظاهرتِ بل لأسبابٍ أخرى وحده الإله من يعلمها؟

شعرت بضيق في التنفس وأنا أستمع إلى كلامها، تساءلت في قرارة نفسي عن أخبرها عن سالتيور المظلمة، ولكن عقلي لم يفكر سوى في شخصٍ وضع حقير واحد فقط. سألتها بصوتٍ مختنق من البكاء:

- ماذا قال الكلب يوسف بالضبط؟

ضحكت بطريقة جعلتني أرغب في إلقاء سماعة الهاتف نحو
الجدار من الغضب، قالت:

- تقولين عنه كلبًا لأنه أخبر والدتك بكل شيء؟ على الأقل كان
السيد يوسف محترمًا كفايةً ليقنع أصحاب المكان سيء السمعة
ليصفحوا عنك ويتركوك وشأنك!

صحت بغضب:

- وهل حقًا صدقت كلامه أيتها الغبية؟

- أنت شخص مثير للشفقة حقًا، أتدريين لماذا؟ لأن والدتك لا
تستطيع أن تخرج خارج المنزل لثري وجهها للجيران الذين أصبحوا
وأمسوا وهم يكون فضيحتك كالعلكة في أفواههم!

ساد الصمت بيننا ثقیلاً مُهلكًا، أردفت قائلةً:

- إن ماتت أمك يا مرح، فأنت من تسبب في موتها.

جلست على الأرض وأنا أبكي بحرقّة وصوت نحبي يملأ المكان،
حتى أن بعض الخادِمات اجتمعن حولي وهن يتساءلن عما يحدث
لي. قلت لريما وقلبي المقهور يحترق من الألم:

- أنت لا تفهمين شيئًا.. أتوسل إليك ألا تصدقي كلام ذلك الكلب،
إنه كاذب يا ريما، أخبري أمي بهذا أتوسل إليك، قلب المسكينة لن
يحتمل.

صاحت بغضب:

- اصمتي! لا يحق للعاهرات أمثالك أن يدافعن عن أنفسهن. هل

تعرفين كيف أخبرنا يوسف؟ لقد وقف أمام منزلنا وهو ينادي بأعلى صوت له ليحكي حكاية مرح التي باعت جسدها ومبادئها إلى الكينمارو مقابل المال. هل تعرفين ماذا حدث لأملك المسكينة؟ لن أخبرك لأنك لا تستحقين حتى أن أكمل هذه المكالمة.

أغلقت سماعة الهاتف بعنف فانقطع الاتصال وثركت وحدي في صحراء الحزن وحيدة بلا زاد ولا ماء، نهضت وتوجهت إلى غرفة الخدم، فجلست على الفراش وأنا أبكي حتى طلع الفجر، ثم أضاءت الشمس المكان وما زلت كما أنا أسيرة في غياهب الحزن والخزي والعار.

عندما عاد السيد أرسلان وسألني عن الرواية، ابتسمت بمرارة وأخبرته أنني سأنتهيها يومًا ما ولكنني لم أفعل. كان مصير موهبتي دائمًا هو التمزيق، فكانت حروفي تتوه ومشاعري تهرب مني كلما نظرت إلى الأوراق بداخل الكومود بجانب فراشي.

جلست في اليوم التالي على الأريكة في حديقة القصر بعد انتهاء عملي، وأظن أننا تخطينا منتصف الليل منذ قليل. أعادت ذاكرتي ما قالته شقيقتي في الهاتف، فانسابت الدموع على وجنتي وأنا أفكر في حالة أُمي المسكينة وهي تخشى النظر في أعينهم؛ ظنًا منها أنني جلبت لها العار. سمعت صوت خطوات أقدام أحد ما؛ فنهضت بسرعة ومسحت دموعي وعندما استدرت اصطدمت بالسيد أرسلان الذي أمسك بي لكي لا أسقط.

لا أدري لماذا خفق قلبي بهذه القوة وهو يمسك بي؛ فهذه هي المرة الأولى التي يقترب مني فيها رجل فأشعر بنبضات قلبه العائرة في

صدره، ولكن كلام شقيقتي لاح في الأفق فابتعدت عنه بسرعة كمن لدغه ثعبانٌ ما. مسح السيد أرسلان دمعته تجاهلثها منذ قليل ونسيت أنها ما تزال على وجنتي، ثم قال وهو يقطب جبينه:

- لماذا تبكين؟ هل الحق أحدهم الأذى بك؟

انكمشت على نفسي ويدي ترتعش من الخوف ثم أجهشت بالبكاء، فأخرج السيد أرسلان منديلاً من جيب سرواله ليمسح دموعي وهو يتطلع في وجهي بقلق، أجبته:

- الزوج السابق لشقيقتي ووالد ابنتها حكى لامي كل شيء، ولكن الحقير لم يكتف بهذا بل ألصق الافتراءات بي وادعى أنني هربت معك وأنتي بعثت جسدي للرزيلة يا سيدي! هل حقاً هناك أشخاص سيئون إلى هذه الدرجة يعيشون بيننا وكأنه أمر عادي؟ لماذا يعجز العالم بأعمال ذلك الخسيس؟ لماذا لا يميتهم الإله؟

ابتسم ابتسامة حزينة بعض الشيء، ثم أجابني:

- أنت شخص بريء للغاية يا مرح، وإن مشكلتك الأبدية هي سذاجتك وثقتك العمياء فيمن حولك. من قال أن الأشخاص السيئين لا بد أن يموتوا؟ بل من قال أن هذه الحياة عادلة؟ إن رغبت في العيش بسلام في هذه الحياة، فأتوسل إليك أن تخلعي عنك عباءة السذاجة والبراءة فهي لا تناسب هذا الزمان ولا هذا المكان، وألا تمقي بأحد على الإطلاق حتى نفسك!

لم أقنع بكلامه؛ فكيف له أن يقف أمامي ويعطيني دروساً في التعامل في الحياة التي هو وأسلافه من كانوا سبباً في قسوتها؟

صحت فيه بغضبٍ متناسيةً أنني أقف أمام واحد من أثرياء
سالتيورا، وليس هذا فقط، بل إنه واحد من المحتلين الذين اغتصبوا
حقوقنا وأرضنا هم وأسلافهم اللصوص:

- هل نسييت أنك وأسلافك تسببتم في فقرٍ دائمٍ لنا؟ هل نسيتم
أننا نعيش ضيوفاً في وطننا؟ هل تجاهلت حقيقة كونكم لصوص؟
لا، لستم لصوصاً فقط بل أنتم مستبدون أتيتم إلى مدينتي لسرقتها
واغتصاب حقوقنا غنوةً وقسراً وقهراً.

عبس وجهه أثناء حديثي معه؛ فهو لم يتوقع أن أقول ما قلته منذ
قليل، ولكنه فاجأني عندما تركني أفضض بما يتقل كاهلي دون أن
يقاطعني أو يعترض على كلامي، بل على العكس تمامًا تركني أطلق
بسهامٍ مسمومة في وجهه دون عتابٍ أو تذمر.

أردفت والغضب يشتعل في صدري:

- قوانينكم الغبية التي لا تسمح لنا بامتلاك المنازل في موطننا يا
سيد أرسلان، ولا تسمح لنا بشغل المناصب العليا في المدينة، ولا
تسمح لنا بتذوق القوة، ولا تسمح لنا بتنفس الرفاهية التي حرمتنا
منها، فكل هذه القوانين الظالمة هي من جعلت فتاة غبية مثلي
تذهب إلى سالتيورا المظلمة؛ لتنقب عن العملات الذهبية في عتمة
الذل والقهر!

ساد الصمت بيننا للحظاتٍ، ولكنني استطرذت:

- هل تعرف حقًا ما يحدث في ذلك المكان الموحش؟ هل تعرف
أنهم يستخدمون الأطفال الصغار في إشباع شهواتهم؟ هل تدري

أنني رأيت واحدًا من ذوي السلطة هناك وهو يتحرش بطفل صغير ليلاً، بينما يصعد نهارًا على منصة الصحافة ليعطي السكان الأصليين دروسًا في القيم والأخلاق التي يجب عليهم أن يظهرونها إلى الكينمارو، فهم أشقاء الوطن، أليس كذلك؟ ذلك المكان هو جنة الوحوش يا سيد أرسلان، وأنت تقف الآن أمامي لتعطيني نصائح ذهبية لكي لا أكون ساذجة أو بريئة في المرة القادمة التي يضع فيها الكينمارو نصل خنجرهم على عنقي! ما هذا التبجح بحق الإله؟

سرت نحو باب القصر لأعود إلى الغرفة، ولكنني استدرت وقلث له قبل أن أرحل:

- سأرحل غدًا يا سيد أرسلان، أشكرك على ما فعلته من أجلي حتى الآن، ولكنني مستعدة لتقبل المصير الذي ينتظرني في سالتيور المظلمة، فعلى كل حال أن أموت ميتة شريفة أفضل من أن أعيش حياة الخائنين. فكما ترى لقد حُثّ سكان غابة الأحرار عندما اقترب من شمس الكينمارو.

قال قبل أن أتحرك نحو القصر:

- مرح.. لتزوج.

ظننته يمزح معي، فابتسمت وقلث:

- بالطبع سيدي، لتزوج، ولم لا؟

أدرك أنني لا أصدقه وأنني أجاريه في المزاح إن كان يقصده في المقام الأول، ولكنه لم يعنيه قط، فعاد يقول لي بصوت يملؤه الحيرة والتردد:

- أنا.. أحبك.

في هذه اللحظة فقط، انفجرت في الضحك ولم أتمكن من السيطرة على نفسي إلا عندما رأيت الجدية على وجهه، ابتسمت بحزن وقلت بمرارة:

- أمثالنا لم يُخلقوا للحب، بل لأغراض أخرى.

اقترب مني وأمسك بيدي، ثم قال متوسلاً:

- مرح.. لنهرب، لنهرب من سالتيورنا ونعيش في مدينة أخرى، لم يخفق قلبي عشقاً من قبل إلا لك. انظري في عيني وأخبريني أنني أتوهم حبك المتبادل لي.

دفعته إلى الخلف بغضب، وقلت وأنا أبكي:

- أنا.. لا.. أحبك!

عانقني أو عانق آلامي، لا أدري، ولكنني شعرت بالأمان والراحة للمرة الأولى في حياتي! وهكذا، لم أغادر القصر لأن مشاعرنا تطورت فأصبحنا لا نفترق أبداً. وعدني أن يزور أمي ليحكي لها كل شيء ويوضح لها الحقيقة، ثم يطلب يدي منها فهام قلبي به عشقاً وتعلقت به روي كثيرًا، وإن تعلق الأرواح ببعضها البعض أمر لا يمكن مجابته أبداً.

مضت أيام أخرى، وبدأ عقلي ينسى ما رأيته هناك في أركان سالتيورنا المظلمة، فتصالح قلبي مع الحياة قليلاً، وبالأخص عندما وعدني إرسال أن ترى كلمات روايتي الأولى نور الحرية أخيراً.

استأذنت أرسالن لأتصل بأمي فقبل على الفور، تركني في الغرفة وحدي ليمنحني الخصوصية. اتصلت بجارتنا الوحيدة التي كانت تمتلك الهاتف في ذلك الحي اللعين، ولكنني كذبت عليها عندما أخبرتها أنني صديقة لأمي فأحضرتها لمحادثتي. قالت أمي وهي تلهت:

- من يتحدث؟

لم أرد على الفور، بل استغرق مني الأمر عدة ثوانٍ حتى أستطيع أن أقول بتردد:

- أمي.

لم أسمع سوى صوت تنفسها في سماعة الهاتف، فمن الواضح أن قلب المسكينة يعاني حقًا، قلت ثانيةً بصوتٍ على وشك أن ينفجر من البكاء:

- أمي.. إنها أنا، مرح.. ابنتك.

- لقد ماتت ابنتي مرح!

قالتها بصرامةٍ ثم وضعت السماعة، فانقطع الخط وانقطعت آمالي في الحياة. دخل أرسالن الغرفة مسرعًا عندما أجهشت بالبكاء فلا بد أنه سمع صوت نحيبي، ثم احتضنني بقوةٍ وأخبرني أنه سيتولى الأمر وأنها سترغب في لقائي قريبًا.

حذرتني أمي دائمًا من لمس الرجال الأغراب لي، فلا يحق لأحدهم أن يضع يده على جسدي إلا بعد الزواج، ولكن أرسالن ليس مثل سائر الرجال، إنه شخص طيب القلب حقًا، لن يؤذيني أبدًا ولن يفعل

بي شيئًا يضر بسمعتي، فإن من يتحمل من أجلي كل هذا العناء لن يضر الشر لي في قلبه. كنت أشعر وأنا في حضنه أنني ملكة العالم بأسره وأنه لا ملاذ آمن لي سوى هنا حيث القلب النابض بحبي. وعلى الرغم من هذا، فلم أسلم جسدي له، ولم يطلبه أرسلان مني، ولكنني كنت أرتمي في حضنه كلما ضاقت بي الحياة، وكانت يده الدافئة تنير الأمل بداخلي، فكيف لشخص مثله وعدني بالزواج أن يتخلى عني وهو من أخبرني أن الكلمة وعدٌ وميثاق غليظ؟

كنت أكتب فصلًا جديدًا في روايتي التي سوف ترى نور الحرية قريبًا وأنا أجلس في بهو القصر وحدي، فالجميع نائم، ولأنني حبيبة أرسلان فلا يحق لأحد أن يتحدث معي بطريقة لا أقبلها حتى عائلته، تغيرت معاملتهم معي إلى الأفضل عندما أخبرهم أرسلان بنيته في الزواج مني.

توقفت عن الكتابة عندما سمعت أصوات أشياء تتحطم تأتي من الباب المؤدي إلى القبو؛ فشعرت بالخوف لوهلة، ثم وقفت لأسير ببطء نحوه حتى أتمكن من معرفة ما يحدث. رأيت إحدى الخادמות وهي تتسائل عما أفعله في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، فأخبرتها أن تدعني وشأني وألا تتدخل فيما لا يعنيها، ولكنها عادت تحذرنني بعدم الذهاب إلى القبو؛ لأن سيدها أمرها بعدم اقتراب أي شخص من ذلك الباب.

بدأت شهوة الفضول تتأجج بداخلي، فأصابني الحنق لعدم معرفتي بما يحدث في القصر الذي أعيش فيه فصعدت إلى غرفتي

لأنام، ولكن الشعور السيء لم يفارقني أبدًا.

تعالّت أصوات غريبة تأتي من خارج الغرفة، تبدو أنها ترانيم لمجموعة من الأشخاص يترنمون بطريقةٍ مرعبة جعلتني أتعرق من الخوف؛ فاعتدلت في جلستي وأنا أحاول أن أنصت جيدًا لأتبين ما يُقال.

نهضت من الفراش بصعوبةٍ وسرّث نحو باب الغرفة، فرأيت الممر غارقًا في الظلام فسرت قُشعريرة في جسدي من الهلع، فلطالما خشيت الظلام، ولكن هذا ليس السبب الوحيد، بل إن الظلام دائمًا يذكرني بما عانيتُه في سالتيورَا المظلمة. تخيلت مكان المشكاة في عقلي فتحسست طريقي إليها حتى عثرت على المصباح بداخلها، أمسكت به وأشعلته لتنطلق مني أعلى صرخاتٍ أطلقتها على الإطلاق؛ هناك شخص يقف أمامي يرتدي رداءً أحمر ويغطي وجهه بغطاء الرأس فلم أتبين ملامحه، ظل ينظر لي للحظاتٍ مرت وكأنهم سنوات، ثم استدار وسار بتؤدةٍ نحو الدّرج.

مارية

- من أنت؟ وماذا تريد مني بالضبط؟

لم ينطق الشخص الذي كان يرتدي الرداء الأحمر ويضع القناع المخيف ليخفي ملامح وجهه، بل أشار إلى شيء ما خلفي فاستدرت لأتفاجأ بوالدتي تقف أمامي وهي تضحك ضحكات مخيفة لا تبعث على الخير أبدًا.

تراجعت إلى الخلف ولكنني توقفت عندما أدركت أنه لا مفر من هذا المأزق، فأمامي تقف والدتي وهي تضحك ضحكات مجنونة، وخلفي أحد الملائكة ينتظر مني أن أستدير.

- أمي، كيف خرجت من العزل الصحي؟

سألتها بصوت متردد ولكنها لم ترد، بل أطبقت يديها على عنقي وراحت تخنقني بكل ما أوتيت من قوة، فكدت أن أفقد الوعي من قلة الهواء. حاولت أن أمسك بيديها لأبعدها عني ولدهشتي نجحت بالفعل فدفعتها عني إلى الخلف وأسرعته نحو الضوء الأزرق في نهاية النفق.

نظرت خلفي بين الحين والآخر لأرى إن كانا يتبعاني أم لا؛ ولكنني أظن أنني ابتعدت عنهما كثيرًا فلم يعد لهما أثر ولم يعد للبواب الذي دخلت منه وجود، فقط ظلام دامس كئيب.

كان الضوء الأزرق يقترب مني للغاية، وعندما وصلت إلى نهاية النفق تسمرت مكاني وأنا أرى مصدر الضوء؛ كانت بلورة عملاقة زرقاء اللون تتوهج بين الحين والآخر وهي تستقر في ساحة واسعة

لـلـغاية، وفي إحدى أركانها استقر دَرَج يؤدي إلى الأعلى وكانت الترانيم المخيفة تأتي منه.

أعتقد أنني قريبة من البحر؛ فرائحته المميزة تملأ صدري الآن، صعّدت الدّرج وأنا أنظر بانبهارٍ إلى كل شبرٍ من حولي، يبدو أن من بنى هذا المكان شخصٌ بارع بحق؛ فالدرج كان حلزونيًا وبأسفله استقرت البلورة العملاقة في مشهدٍ مهيب لا تعتاده عيناى.

ظللتُ أصعد إلى الأعلى حتى وصلتُ إلى القمة؛ فتفاجأتُ أنني أقف في منارةٍ عملاقة يبدو عليها القدم لا يوجد بها أحد، وكانت هناك مرايا في المنتصف وتعكس الضوء الأزرق القادم من البلورة في الأسفل، تذكّرتُ ما قاله راكان عن رؤية البحارة والعديد من الناس لضوءٍ أزرق يأتي من البحر، ولكنني لا أتذكرُ أنني سمعتُ عن هذه المنارة من قبل؛ فهناك منارة بالفعل يعيش فيها أشخاصٌ لإنارة الطريق إلى السفن، ولكن هذه ليست هي.

اختبأ القمر خلف إحدى السحب وكأنه يخشى ما سوف يحدث هنا، فأصبح الظلام مفرغًا حقًا ولولا الضوء المنعكس من المرايا ومصدره البلورة لم أكن أنجح في رؤية ما حولي. تطايرت خصلات شعري عندما اشتدت الرياح الآتية من البحر الهائج بالأسفل والذي كان رذاذ أمواجه يعانق وجهي، نظرتُ من سور المنارة إلى الأسفل فتمكّنتُ من رؤية الصخرة التي جلستُ عليها من قبل بعد هروبي من الميزان العملاق.

هل هذا يعني أن ما رأيته سابقًا لم يكن بسبب المرض؟ اندلعت الكثير من الأسئلة بداخل عقلي المسكين ولم تكن هناك إجابة

واضحة، ولكنني على يقين الآن أنني لست مصابةً بأية أمراض، ومن الممكن أن يكون المرض المنتشر ليس بمرض في المقام الأول، ولكنني لم أجد تفسيرًا له حتى الآن. سمعتُ صوت أقدام تقترب مني؛ فبحثت عن مكانٍ لأختبئ بداخله ولكنني لم أجد سوى بابٍ على يساري يبعد عني بضعة أمتارٍ، فأسرعتُ إليه وفتحتُه ثم دخلتُ لأجد غرفةً واسعةً لم أرَ ما فيها جيدًا بسبب الظلام بداخلها. استدرتُ ثم نظرتُ من الفتحة الصغيرة التي تركها الباب الموارب لي، وانشغلتُ بمراقبة الشخص الذي يرتدي الرداء الأحمر والقناع المخيف والذي وقف أمام سور المنارة وهو ينظر إلى الأسفل وكأنه يبحث عن شيءٍ ما.

ظل يلتفت حوله حتى استقرت أنظاره على الباب الموارب والذي كنتُ أنظر من خلاله فهو ي قلبي هلعًا وفزعًا، أغلقتُ الباب بسرعةٍ على أملٍ ألا يفتحه ولكن هيهات! لم يكن هناك قفل أو مفتاح ليمنع دخول أحدٍ غيري، ولكن هناك شيءٌ غريبٌ لاحظته عندما نظرتُ إلى الأسفل، شيءٌ جعلني أصرخ بأعلى صوت.

لم يكن بأسفلي شيءٌ سوى السماء والنجوم اللامعة! الغريب في الأمر أنني لم أسقط، والأغرب أن الشخص ذا القناع المخيف لم يفتح باب الغرفة، استدرتُ لأرى المكان من حولي فرأيتُ منضدةً مستديرةً كبيرةً جدًا وفوقها صناديق صغيرة للغاية تطفو في الهواء!

اقتربتُ بحذرٍ منها، ثم أمسكتُ بإحداها لأتأملها ففتحتُها ولكنني لم أجد بها شيئًا ولا أعلم فيما تُستخدم في المقام الأول، ولكنها عادت إلى مكانها عندما أغلقتها. لفتت المنضدة أنظارني عندما

اقترب منها فرأيت بعض الطرق حُفرت فيها وكأنها تشبه الخرائط؛ فتعجبت كثيرًا من هذا المكان.

كان المكان هادئًا للغاية وهذا يتنافى مع فكرة وجود شخص ما خارج هذه الغرفة العجيبة، لم أحتمل المشهد أسفل قدمي؛ فأسرعت نحو الباب وفتحته بحذرٍ ولكنني لم أجد أحدًا بالخارج، تنفسْتُ الصعداء ثم خرجت من الغرفة وعدت إلى الدّرج. وعندما وصلت إلى البلورة العملاقة، تسقّرت مكاني عندما سمعت أصواتًا غريبة وكأن هناك أحجارًا كثيرة تحتك ببعضها البعض وكان الصوت يأتي من أسفلي!

لم أنتو البقاء لاكتشاف مصدر الصوت، بل جريت نحو النفق حتى أصل إلى الباب، فلاحظت أن أمي والشخص ذا القناع المخيف قد اختفيا فحمدت الإله على هذا.

أكملت طريقي نحو الباب، وبينما أجري بسرعةٍ إليه كنت أرى فتحاتٍ أخرى لا أدري إلى أين تؤدي، وللحق لا أَرغب في معرفة هذا. وصلت أخيرًا إلى الباب الأسود، وما إن خرجت منه أغلق الباب نفسه وكأنه كائن حي وليس جمادًا ثم اختفى وكأنه لم يكن!

صعدت إلى غرفتي، وجلسْتُ على الفراش لالتقط أنفاسي ولكنني نهضت ثانيةً عندما سمعت جلبةً وضجيجًا بخارج الغرفة كان من بينهم صوت خادمة تقول بخوف:

- إن الدماء تسيل في أرجاء البهو، المشهد مقبض حقًا.

هل قتلت أمي أحدًا في القلعة؟ نهضت من فراشي كمن لدغه

عقرب، وما إن خرجت من الغرفة رأيث بعض الخادمت يقفن ليتسامرن أمام غرفتي، ولكنهم أفسحوا لي الطريق على الفور. سألتهن عما يحدث فأجابت إحداهن أن السيد آدم ينزف الدماء بغزارة؛ أسرعته إلى الدرج وعندما وقفت في البهو تسمرت مكاني وأنا أرى آدم فاقداً للوعي بسبب طلقة نارية أطلقها شخص ما على ظهره.

كان المشهد مروّعاً بحق والدماء تسيل منه، وقفت مكاني بلا حركة بينما جاءت غزل وهي تبكي؛ فجلست بجانب آدم الذي كان جسده ساكناً ثم قبّلت جبينه وما إن رأت راكان اندفعت نحوه لتحتضنه بقوة، ثم وعلى حين غرة منا جميعاً لثمت ثغره بشوق كبير فتجمدت مكاني من الصدمة وأنا أراهما هكذا، ولكنني أشحت وجهي بعيداً عنهما لأن قلبي المشتعل لم يتحمل.

جاء الطبيب أخيراً ليرحميني من هذا المشهد المقزز، ثم أمرنا جميعاً بأن نرحل ففعلنا تاركين إيّاه وحده مع المصاب.

لا أعرف أين ذهبت أمي أو كيف هربت من العزل في المقام الأول، وبينما كنت أجلس في غرفتي بانتظار انتهاء الطبيب من تضميد جراح آدم، سمعت طرقات على الباب فنهضت لأفتحه لاُتفاجأ بغزل وهي تنظر لي بعينين تقدحان بالشرر. سألتها عما تريده؛ فدفعت بي إلى الخلف ثم دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفها.

قالت بتجهم وهي تقترب مني:

- لقد بدأ كل شيء منذ اللحظة الأولى التي وضعت فيها قدمك في هذه القلعة، أنت وأملك العاهرة السبب في كل ما يحدث!

كنت على وشك الاعتراض على ما سمعته من كلمات مهينة لي ولأمي، ولكنها اقتربت مني للغاية ثم صفعتني بكل ما أوتيت من قوة وهي تقول بعصبية:

- قاتلة حقيرة.

لم يصدق عقلي ما يحدث، فتوقّف عن التفكير تمامًا، لم تكتفِ المجنونة بصفعي بل اقتربت مني أكثر ودفعتنني إلى الخلف فارتطمت رأسي بالجدار ثم أظلمت الحياة بأسرها. رأيت المنارة المهجورة تقف بشموخ والضوء الأزرق يتوهج من البلورة بالأسفل، ولكن هناك أشباحا وخيالات غريبة تطاردني، بينما شخص ما ينظر لي في ريبة، من هذا الشخص الغريب ومن أين أتى؟ لم أره من قبل ولكنه يتطلع في وجهي بعبات، إنه يخبرني بأشياء مهمة على ما يبدو ولكن صوته ضعيف غير واضح أبدًا. وكانت الرسومات والنقوش على جدران المعبد تتحرك وتحارب بعضها البعض، بينما تسيل الحمم البركانية من جبل مرتفع، إنني خائفة ولا أعرف إلى أين أذهب، ولكن صوت راكان يأتي من بعيد وهو ينادي باسمي فأراه أمامي عندما أفتح عيني.

ابتسم عندما تأكد أنني على قيد الحياة، ثم سألني وهو يساعدني في الاعتدال في جلستي:

- لقد جن جنون الجميع يا آنسة، كانت السيدة غزل على وشك أن ترسلك إلى قبرك ولكنني كنت أرغب في سؤالك عن شيء فبحثت عنك ولكنني لم أجده بالأسفل، وعندما صعدت إلى هنا رأيته وهي تدفعك إلى الخلف.

ساعدني على النهوض، ثم الجلوس على الفراش ولكنني شعرت بالدوار فوضعت يدي على رأسي فرأيت الدماء. ذهب مسرعًا إلى الكومود وأخرج منه منديلًا ثم وضعه على الجرح النازف في رأسي، وجلس بجانبني وهو ينظر في عيني.

قال:

- لا تقلقي يا آنسة مارية، الجرح ليس غائرًا، إنه سطحي على ما أظن، ولأطمئن أرسلت إلى الخادمة لتحضر الطبيب إلى هنا، المسكين لم يخرج من محيط القلعة بعد.

- ماذا تريد أن تعرف؟

سألته بنبرة قاسية قليلًا؛ فمشهد تقبيل غزل له وعدم رفضه لها لم يفارق عقلي، على الرغم من أنه أنقذني للتو إلا أن الغيرة أعمت قلبي حقًا، أجابني بتردد:

- هل رأيت والدتك؟

لم أتوقع هذا السؤال، فأجبته بسؤال آخر:

- لماذا؟ هل رآها أحد؟

تنهد ثم قال:

- الوضع سيء للغاية للأسفل يا آنسة، لقد شوهدت والدتك هذا المساء وهي تحوم حول القصر ولقد تأكدنا الآن أنها من قتلت الحارس المسكين، فمن غيرها سيفعل هذا؟ لقد رأيته بعيني وهي تحاول أن تقتلك في دار الشفاء، ولكن هذا لم يكن الشيء الوحيد

الذي فعلته بل حاولت أن تقتل غزل منذ قليل ولكنها تمكنت من الهرب من قبضتها، وعندما علمنا بما حدث بحثنا عنها في كل مكان ولكننا لم نجدها.

- ألهذا السبب تسألني إن كنت رأيتها أم لا؟ هل تظن أنني أعرف مكانها ولا أبوح لكم أو شيء من هذا القبيل؟

سألته بعصبية وأنا أحاول النهوض، ولكن الغرفة دارت بي وكنت على وشك أن أسقط ولكنه أمسك بي لكي لا أقع، تبادلتا النظرات فخالجتني مشاعر مختلطة غضب وعشق يتصارعان بداخلي، ولا أدري من يفوز في هذه اللحظة، ولكنني رأيت في عينيه عيذاً من الكلمات غير المنطوقة، لم أفهم راكان أبداً وأظن أنني لن أفعل.

ابتعدت عنه وأسندت ظهري إلى الجدار من خلفي حتى لا أقع، ثم قلت:

- سيد راكان، لا أعرف مكان والدتي، ولأجيب عن سؤالك، نعم.. رأيتها منذ ساعات مضت كما أنني رأيت شخصاً ذا قناع مخيف يقف خلفها، وكل هذا حدث في النفق بداخل الباب الغريب الذي رأيته مؤخراً من قبل.

اندهش وتعجب مما أقول، ولكنني لم أصمت فأخبرته بكل ما حدث لي في المنارة المهجورة وما رأيته هناك؛ فضيق عينيه وهو يستمع لي ثم غادر دون أن ينطق بحرف قبل أن يدخل الطبيب ليضمّد جرح رأسي.

أخبرنا السيد ليرون في صباح اليوم التالي أن آدم تعرض لإطلاق النار على حدود المدينة، وأن الليلة الماضية كانت دموية بحق. وعندما سمعتُ ما أخبرنا به اندلعت في عقلي العديد من الأسئلة التي لم أجد لها إجابات أبدًا، ولكنني شعرتُ بالتيه بسبب ما فعله فرسان الرب هؤلاء وهم من السكان الأصليين على ما أظن، فخالجني شعور الندم لأنني أشفقْتُ عليهم من قبل.

كانت ميرال تجلس بجانب أبيها على فراشه وهي تنظر إلى اللا شيء وكانت صامتة لم تهمس بكلمة، بينما وقفت غزل التي حدتني بنظراتٍ نارية بجانب الأريكة مع خالها وهما يستمعان إلى ما حدث في الليلة الماضية. استأذنتهم للرحيل وغادرت، فتوجهتُ إلى البحيرة لأتحدث مع راكان. بمجرد ما أن رأيته اقترب مني وقال: - يجب أن نتحدث الليلة؛ أظن أنني اكتشفتُ أشياء تخص ما رأيته في المنارة المهجورة!

قطبتُ جبينني وسألته عما يقصده، ولكنه لم يشرح لي شيئًا، ثم طلب مني أن أقابله في ساحة الميتم بعد منتصف الليل ولكن مشهد القُبلة تراقص أمامي فشعرتُ بالغضب يتأجج بداخلي، ولكنني غير محقة في هذا الشعور فهو شخصٌ ناضج ويحلو له فعل ما يشاء، وإن الأمر ليس من المفترض أن يعينني في شيء حتى وإن كان قلبي ينزف دمًا من الحسرة، أومأ ثم غادرتُ لأذهب إلى العمل في الميتم.

كان اليوم مخصصًا لتاريخ الكينمارو، وما أثار حنقي حقًا هو عدم إضافة فصلٍ يخص تاريخ السكان الأصليين وكأن الكينمارو أرادوا

بهذا أن يطمسوا هويتهم، ولكن هذا ليس شيئًا غريبًا بالنسبة لي؛ فالكينمارو من أسوأ الكائنات التي خلقها الإله على الإطلاق! كم وددت أن أخلع ثوب هويتي وألقي بها في أقرب سلة مهملات، ولكن الامتيازات التي تمنحني إياها هذه الهوية اللعينة تجعلني في كل مرة مكتوفة الأيدي بلا حول ولا قوة.

بعد انتهاء اليوم الدراسي، وقفت في الساحة أنظر إلى راكان وهو يدرب حراسه على الحركات القتالية، فاشتعل العشق في قلبي المكلوم كلما نظر لي نظراته التي لن أفهمها أبدًا. شعرت بأنامل صغيرة تمسك بيدي فالتفتت أنظاري إلى يساري لأشاهد ليلي ذات الضفائر وهي تقف بجانبها ودموعها تنساب على وجنتيها.

انحنيت ثم مسح دموعها وسألها عن سبب بكائها، ولكنها أعطتني ورقة ثم رحلت. فتحت الورقة فرأيت رسومات غريبة لكائنات تشبه الطيور، ولكن أعينها زرقاء تطير في السماء وبالأسفل نيرانٌ مشتعلة في أشخاص يصرخون! إن هذه الطفلة بارعة حقًا في الرسم؛ فإن الورقة تكاد تنبض بالحياة من براعة تصويرها للرسومات، ولكن ماذا تعني بالضبط؟ وكيف لطفلة صغيرة أن تتخيل مثل هذه الأشياء؟

بحثت عنها في كل مكان ولكنها اختفت كعادتها؛ فتوقفت عن البحث وعدت إلى القلعة. جلست على فراشي وأنا أفكر فيما حدث لأمي، كنت أتساءل عن مكانها المحتمل ولكن عقلي لا يستطيع أن يفكر؛ فالأسئلة العديدة التي دارت في عقلي بلا إجابة أصابتني بالهم حاد في الرأس. نزلت إلى غرفة الخدم وجلست على المنضدة

بانتظار، القهوة عندما سمعت إحداهن تتهامس مع رفيقتها بأن
تستعد ليوم الغد.

سألها عما تقصده، فشعرت المسكينة بالذعر عندما اكتشفت أنني
سمعتها، تلعثم وهي تقول:

- يوم الغد.. سيدتي.. الغد يوم.. حافل.. تنصيب.. الحاكم الجديد.

عبس وجهي وأنا أتذكر والدي الذي محته ذاكرتي تمامًا، حتى
وإن كان مستبدًا ظالمًا لا يُقهر إلا أنه والدي في نهاية المطاف، وإن
مشاعر الحزن والغضب والغيرة تأججت بداخلي فهربت دمعة من
سجن عيني وتحررت، ولكن معاناتي لم تتحرر أبدًا. نهضت لأصعد
إلى غرفتي ولكنني تذكرت أمرًا فاستدرت وسألها:

- هل تعرفين من هو الحاكم الجديد؟

عادت الخادمة المتعلمة تقول:

- إنه.. لقد.. سمعت السيد ليرون.. يشير إلى والد السيد.. راكان.

لم أنطق بل صعدت إلى الأعلى، وارتميت في فراشي وأنا أبكي
بحرقة وكأنه رثاء متأخر للغاية لوالدي الراحل. كانت الورقة في يدي
حتى هذه اللحظة وهو الأمر الذي تعجبت بسببه كثيرًا، فإن يدي
احتضنت الورقة طوال الوقت وكأنها جزء لا يتجزأ مني. نظرت إليها
ثانية وتمعنث في النظر فأتسعت عيناها دهشة عندما لاحظت شيئًا
لم ألاحظه من قبل؛ كانت هناك بقعة صغيرة في إحدى جوانب الورقة
تشير إلى جبل ضخم يتور منه بركان وهو ما يتسبب في حرق
الأشخاص في الورقة!

عندما فقدت الوعي بسبب غزل، رأيت أشياء غريبة وكان البركان واحدًا من تلك الأشياء التي تراقصت أمامي في العتمة، وأظنني أتذكر أيضًا شخصًا كان يتحدث معي بلغة غريبة لم أفهمها حتى أنني لا أستطيع تذكر هيئته لسوء الحظ، ولكنني سأجن حقًا إن لم أجد تفسيرات منطقية لكل هذه الأمور العجيبة.

دقت الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل، فأسرعت إلى المعطف الأسود ووضعتُه فوق جسدي ثم خرجت إلى خارج القلعة لأذهب إلى ساحة الميتم وأنتظر راكان. ما زلت أمسك بالورقة في يدي لأريها إليه عندما يأتي، وبينما كنت أتفقدُها للمرة الثالثة شعرت بأن هناك خطوات أقدام ولكنها لم تأت من الساحة بل من داخل الميتم. طويث الورقة ووضعتها في جيب المعطف حتى لا يراها أحد، وانتظرت الشخص القادم ليظهر نفسه ولكنني كنت مخطئة فلم يكن هناك أحد.

لا بد أن عقلي يتلاعب بي كعادته فزفرت بقوة وأنا أنظر حولي؛ لأبحث عن راكان الذي لم يكن موجودًا في أي مكان. هل يعبت معي ذلك الرجل؟ كاد الألم في رأسي أن يفتك بي، ولكن الألم اختفى وكل الأصوات من حولي هدأت، حتى تنفسي توقفت عندما رأيت الشخص ذا القناع المخيف والرداء الأحمر القاتم يقف في نهاية الممر المؤدي إلى غرف الميتم وهو ينظر لي بلا حركة، ولكن قلبي كاد أن يتوقف عن العمل عندما رأيت طفلة صغيرة تمسك بيده، يا إلهي! إنها ليلي ذات الصفائر.

كانت الطفلة تنظر لي نظرات كثيفة كتلك التي اعتدت أن أراها

على وجه ميرال. سار الشخص المخيف وهو يصحب الطفلة البائسة معه، ولكنني لن أنسى أبدًا توسلاتها وهي تسير معه غنوة. حاولت المسكينة أن تصرخ ولكنها بمجرد ما أن فتحت فمها تساقطت الدماء منه لتسيل على ذقنها الصغير مروزًا بملابسها التي تلطخت في مشهد مقبض أثار الهلع في نفسي.

جريت نحو نهاية الممر لأتمكن من اللحاق بهما، ولكنهما اختفيا تمامًا كما توقعت، وقفت في ممر آخر يفصل بين غرف الميتم العديدة، ولكن هناك غرفة واحدة فُتح بابها ليصدر صريرًا مرعبًا جعلني أترجع بضعة خطوات إلى الخلف، ثم اندفعت إليه عندما شعر قلبي أنني سأجد الطفلة هناك.

توقفت أمام الباب، فرأيت العتمة تنبعث منه كالوحش السرمدي فاستجمعت شجاعتي ودخلت في محاولة بائسة لإنقاذ الطفلة المسكينة. بمجرد ما إن دخلت إلى الغرفة، انغلق الباب دون أن ألمسه، ولكنني لم أتفاجأ، لقد اعتدت على هذا!

رأيت بابًا صغيرًا على الأرض كان مفتوحًا إلى الأعلى، وبداخله فتحة مظلمة تخبيء درجًا حلزوني الشكل كذلك الذي في المنارة، ويبدو أن الدرج يؤدي إلى مكان عميق أسفل الأرض. ابتلعت ريقًا وأنا أتخيل ما يمكن أن يحدث لي بالأسفل، ولكنني تخيلت مشهد الطفلة البريئة وهي تقف عاجزة هناك فأخذت نفسًا عميقًا ثم نزلت إلى الدرج.

كان المكان مخيفًا بحق؛ فالظلام يحيط بي من كل حدب وصوب وكلما اقتربت من نهاية الدرج شعرت ببرودة تسري في جسدي،

ولكنني توقفت قليلاً عندما شممت رائحة البحر الذي لم يبعد كثيراً عن الميتم، بمجرد أن انتهت درجات الدّرج، اكتشفت أنني أقف في مكان يشبه النفق الذي دخلت إليه من قبل عن طريق الباب الذي يختفي ويظهر كما يحلو له في بهو القلعة! سرّث بداخل النفق ثم توقفت عندما رأيت سبع فتحات متفرعة من النفق الرئيس، وكانت هناك لافتة كتب عليها كلام عجيب:

"سبعة أبواب، وراء كل باب قصة لها أصحاب، سبعة أبواب، بين كل باب وباب عقاب".

ما هذا الهراء بالضبط؟ نظرت إلى ما كتب باشمئزاز؛ فأنا أكره الألغاز حقاً ولكنني حائرة، أي طريق أسلك؟ سمعت صرخات طفلة تأتي من الممر الرابع فأسرعت إليه، وكدت أن أصطدم بباب أسود اللون غريب الشكل فتوقفت لأفتحه ثم دلفت إلى الداخل، فلاحظت أن هناك درجاً يؤدي إلى الأعلى.

وعندما صعدت وفتحت الباب ثم خرجت تسمرت مكاني؛ عندما أدركت أنني أقف في أحد المنازل، استمعت إلى الصرخات مرة أخرى فأسرعت إلى الباب وأمسكت بالمقبض لأفتحه والدماء تغلي في رأسي، ولكن يدًا قوية أمسكت بي قبل أن أفعل شيئاً.

مرح

سرت بهدوء نحو الدّرج، فرأيت طرفًا لرداء أحمر قاتم يختفي في الظلام، فنزلت إلى الأسفل بحذر حتى لا تحدث خطوات أقدامي صوتًا. استدرت يمينًا فتوقفت مكاني عندما رأيت باب إحدى الغرف مواربًا؛ فأسرعت إليه وفتحته برفق ولكنه أصدر صريرًا مرعبًا كما خشيت، ولحسن الحظ أنه لم يسمعي أحد. دخلت إلى الغرفة المظلمة، فاكشفت أن هناك بابًا خشبيًا في الأرض وكان مفتوحًا إلى الأعلى، فتوجهت إليه ونظرت بداخله لأتفاجأ بدرج يؤدي إلى ظلام حالك لا قاع له.

نزلت الدّرج الحلزوني لفترة طويلة حتى ظننت لوهلة أنني سأستمر في النزول إلى أن يأتي يوم البعث! وصلت أخيرًا إلى القاع فاكشفت أنني أقف في مكان واسع مظلم يشبه النفق، ولكن رائحة البحر تملأ المكان؛ فهو قريب من القصر، ولكن رائحته قوية هنا. سرت قليلًا في هذا النفق وقلبي يخفق بشدة، فإن شعورًا غريبًا يتأجج بداخلي، وكانت الصدمة هي أنني أسفل سالتيور المظلمة!

ارتعشت أوصالي هلعًا وخشية وتساقطت دموعي وأنا أنظر إلى الأنفاق السبعة أمامي، بينما تعالت أصوات الصراخ والتي كانت تأتي من نهاية النفق السابع على ما أظن؛ لا بد أن أفهم لماذا يوجد بابًا يؤدي إلى المظلمة وبه حديف. إلقه إليه. محرم على الجميع دخوله بأمر من السيد أرسلان وعائلته؛ لا بد أن أفهم لأنني حقًا على وشك أن أفقد عقلي إلى الأبد.

سرت نحو النفق السابع، ثم دخلت فيه وسرت ثانية حتى وصلت

إلى نهايته فوقفت أمام الباب الذي تجلى من الأسفل مثل المرة السابقة. وقفت أمام الباب وجسدي يرتعش من الخوف ودموعي تسيل أنهارًا على وجنتي، خلف هذا الباب يوجد أشخاص مرعبين يفعلون أشياء مخيفة مفرعة، ولكنني لا بد أن أكتشف السر خلف كل هذا، حتى وإن كنت سأدفع روحي ثمناً لمعرفة الحقيقة.

انبعثت أصوات الترانيم المخيفة من خلف الباب، ولكن أصوات الصرخات كانت أعلى منها، وكأن من بالداخل يرى الموت بعينه وهو يمتدح الباب بقوة ولكنني تسمرت مكانى عندها رأيت

فتاة في العقد الثاني من عمرها تجلس على ركبتها وعلى يمينها ويسارها مجموعة من الأشخاص الذين يرتدون رداءات حمراء قاتمة، ويخفون ملامح وجوههم بغطاء الرأس، يقفون بمواجهة الباب وكأنهم جميعًا بانتظاري. دفعتني قوة عجيبة للدخول إلى المكان الغريب الذي تواجدت فيه من قبل، فنظرت للأسفل لأرى السماء التي أسير فوقها، أم أنني أتخيل؟ أنا لم أعد أعرف شيئًا.

كانت المسكينة تبكي وتصرخ وتتوسل إليهم أن يتركوها وشأنها، ولكنهم لم ينظروا لأحد سواي. نزع الأشخاص الواقفون أمامي غطاء الرأس لأتفاجأ أنني أقف أمام الكينمارو الأول وكل أفراد عائلة أرسلان، وأخيرًا أرسلان نفسه.

تقدم مني الكينمارو الأول وهو يبتسم ابتسامته البشعة والمخيفة، ثم فتح ذراعيه ليحتضنني ولكنني تراجعته إلى الخلف، فقال معاتبًا: إياي:

- ماذا هناك يا مرح؟ هل انتويت أن تتوبي عن ذنب احتضان

الرجال الآن أم ماذا؟

نظرتُ إلى أرسلان والدموع تتساقط مني دون أن أنطق أو يعبس وجهي. التفت الكينمارو الأول لينظر إلى أرسلان، ثم ابتسم وقال:

- لم تتعلمي الدرس إذن يا مرح، لقد نصحك أرسلان ألا تتعاملتي بسذاجة مع الآخرين وألا تثقي بهم ولكنك لم تفعلي، بل وثقت به وارتفعت في أحضانه في تلك الأوقات التعيسة، ألم تفعلي؟

فعل الكينمارو الأول ما لم أتوقع أن أراه أبدًا في حياتي؛ تحركت يداه في الهواء فتشكّلت خيالات وأطيافًا لم أتبينها في بادئ الأمر ولكنها كانت المفاجأة القاتلة! ارتعدت أوصالي هلعًا وأنا أراني أحتضن أرسلان وأسير معه ممسكةً بيديه في مشهد عجيب لم أفهمه؛ إن الكينمارو الأول لم يكن كذلك، لم يستحضر المشهد، التي حدثت في الماضي ويعيدها مرةً أخرى في صورة ظلال وأطياف باهتة بعض الشيء، ولكنها توضح شكل أصحابها بدقة.

سألته وقلبي يخفق بهلع:

- أي سحر هذا؟!

ضحك ثم قال:

- لا نسميه سحرًا يا عزيزتي مرح، بل نطلق عليه اسم "العلم المحرم".

ساد الصمت المكان، فإن عيني تراقبان الصور التي تجسدت أمامي، والجميع ينظر لي حتى الفتاة المقيدة على الأرض توقفت عن الصراخ وهي تراقب المشهد أمامها، قال الكينمارو الأول مبتسمًا:

- انظري إلى القديسة مرح التي طلبت من شقيقتها ألا تصدق ما يُقال عنها من افتراءاتٍ وادعاءاتٍ. هل ترينها ؟ هل تأكدتِ الآن أن أمكِ المسكينة كانت محقةً عندما نصحتكِ ألا تمقي في الرجال وألا تدعيهم يلمسوا جسدكِ قبل الزواج؟

لم يبذ على أرسلان أنه منزعج مما يحدث، بل على العكس تمامًا فإن نظرات الشماتة التمعت في عينيه وكأنني ألد أعدائه! خارت قواي فلم تحتمل قدماي الوقوف فركعتُ على الأرض ذليلةً أشعر بالانكسار والحسرة، فكنتُ كالجندي الجريح الذي خسر لتوه المعركة. سألت الكينمارو الأول بصوتٍ مبحوح:

- أنا لا أفهم، لماذا أنا؟ لِمَ كل هذا العناء؟ لقد اتفقتوا على الانتقام مني وهذا أمرٌ فهمته، ولكنني لم أفهم حتى الآن لماذا لم تقتلوني؟ لِمَ عناء الانتقام؟ لماذا أتى لي أرسلان وساعدني وأوهمني بأنه يحبني ويرغب في الزواج مني؟

تنفست بقوة حتى أتمكن من التحدث، أردفتُ:

- كان من الممكن أن تقتلوني منذ الوهلة الأولى، ولكنكم لم تفعلوا بل فعلتم أشياءً أخرى غير منطقية على الإطلاق.

تقدّم مني بهدوءٍ، ثم قال:

- مثل ما فعله أرسلان عندما رآكِ للمرة الأولى وأنتِ تدفعين بعربة الطعام؟ هل تقصدين عندما أمسك بيدكِ وأخبركِ كم أنتِ جميلة؟

إنن، كان الرجل بجانب الصندوق هو أرسلان منذ البداية. يا لحماقتي! وقعتُ في حب الرجل الذي عذّب الثلاثة أشقاء أمامي

والذي أصاب قلبي بالهلع في ذلك اليوم، والمثير للضحك أنني حتى لم أتعرف على صوته أبدًا! إن كانت الحياة تعاقبني فأنا أستحق حتمًا.

قال الكينمارو الأول وهو يبتسم:

- هناك أسئلة كثيرة تدور بعقلك ومن حقك أن تعرفي إجابتها، ولكن يظل هناك سؤال واحد لن أتمكن من إجابته أبدًا، وإن من سوف يجيب عنه هو سيدي.

انفجرت فيه قائلة:

- ماذا تقول أنت أيها الغبي؟ سيدك من؟! وإجابات ماذا؟ ومن أنتم في المقام الأول وما الذي تريدونه مني؟

اقترب مني ثم انحنى ليساعدني على النهوض، لقد فشلنا واستسلمنا لهم، لقد انتهت اللعبة على كل حال. وقفنا وهو يمسك بذراعي، قال:

- عندما أجيبك عن كل الأسئلة وعندما تقابلين سيدي ربما تشكريني لاحقًا. لماذا لا تجلسين هناك على إحدى المقاعد المريحة؟ لنجلس جميعًا حول المنضدة ونجيب عن جميع الأسئلة.

اصطحبني إلى المقعد الذي تحدت عنه فجلست عليه ثم جلسوا جميعًا حول المنضدة المستديرة، فرأيت الدروب والقلاع والقصور والمنازل محفورة فيها. كانت الفتاة تصرخ بين الحين والآخر ولكنهم لم يكثرثوا؛ فجميعهم ينظرون لي نظرات مخيفة بينما جلست أمامهم كالفريسة في عرين الوحش.

قال الكينمارو الأول:

- لقد بدأت الحكاية بأسطورة تهامس بها السكان الأصليون في
أحياء سالتيور، ولكنهم لم يعلموا كم هي حقيقية!

قاطعه بغضب:

- أسطورة ماذا؟ وما علاقة تلك الأسطورة بي؟

قال ببروده المستفز:

- هل تتذكرين الشمس التي غابت عن سالتيور لعلاثة أيام
متتالية؟

ما الذي يقوله هذا الأبله؟ لم أرد عليه، فنهض من مكانه ثم
استخدم يديه في تجسيد المشاهد التي يتحدث عنها فرأيث
سالتيور في الماضي والسكان الأصليين يقفون في الميادين
والأحياء وهم ينظرون إلى الشمس وهي تختفي، كان السكان
يخافون من عدم ظهور الشمس مرة أخرى، والأكثر رعبًا بالنسبة
إليهم هو الجليد الذي راح يتكوّن بسرعة غير منطقية فكادوا
يتجمدون من البرد إلا أن هناك ثلاثة رجال يرتدون الرداء الأحمر،
وقفوا في منتصف المدينة والناس أجمعين حولهم ثم أعادوا النور
إلى الشمس التي سطعت بأشعتها الذهبية وملأت الأرض بنورها
ودفئها.

أردف ويدها تجسد كلامه:

- أنا وشقيقاي عانينا من الذل والقهر في المدينة البيضاء التي لم
تنل حظًا من اسمها؛ فلقد كانت سوداء حالكة الظلام والظلم معًا،

استعبدنا الأسياد فيها وعشنا سنوات ونحن ننحني للحمقى الذين لم يفهموا شيئًا في حكم المدينة؛ فهربنا نحن الثلاثة ذات يوم ولكن السفينة غرقت في مياه البحر الغادرة، أنقذنا سيدي لنجد ثلاثتنا على جزيرة صغيرة وبالأعلى انتصبت منارة العلوم المحرمة بانتظارنا لنتروي منها.

تجسدت أمامنا منارة يبدو عليها القدم وبأسفلها جزيرة صغيرة، وهناك ثلاثة رجال يحاولون الدخول إلى المنارة تاركين السفينة الغارقة خلفهم وركابها يصرخون للمساعدة، ولكن الثلاثة رجال يتجاهلونهم.

أردف الكينمارو الأول:

- عندما دخلنا المنارة، كنا نشعر بالعطش الشديد، فظلنا هكذا لمدة ثلاثة أيام بلا ماء أو طعام حتى عثر علينا سيدي وأمرنا أن يطلب كل واحد منا شيئًا، فطلب شقيقي الأول الطعام والشراب، فكان له طلبه، ارتويينا وأكلنا في نهم، ثم طلب الثاني النيران، فكانت لنا المدفئة التي انبثقت من العدم، أما أنا فكان طلبي مختلفًا عنهما؛ سألت سيدي أن يُسلحني بالعلوم التي تجعلني الأقوى والأذكى على الإطلاق فكان لي ما طلبت، وأصبح الكينمارو الأول.

توقّف عن الكلام، ثم وقف خلف الفتاة المكمة فانبثق من العدم خنجر لامع أمسكه على الفور ونحر عنق المسكينة، فانسعت عيناها هلعًا وأنا أرى بركة الدماء التي تساقطت إلى العدم من أسفلنا.

استطرد قائلاً وهو يمسح الدماء بطرف رداءه الأحمر:

- ولكن القوة المطلقة تأتي مقابل ثمن باهظ يا عزيزتي مرح، أليس كذلك؟

عادت يده تجسدان الأحداث وهو يقول:

- أوضح سيدي مطالبه لي فسحرت أعين السكان الأصليين وأوهمتهم أن الشمس اختفت وأن البرد ينخر في عظامهم، ثم ظهرت في هيئة المخلص مع شقيقي وأعدت النور إلى المدينة ليتبدد الظلام وينبثق فجر الكينمارو، سافرت إلى المدينة البيضاء وعدت بالسكان الذين احترقوا بنيران العبودية لسنوات لنعيش معًا في سالتيور؛ لكي نؤسس عالمنا الخاص تحت قوانين سيدي، ولكن شهوة السلطة تمكنت مني يا مرح، فانضم لي حكام المدن المجاورة عندما تعلموا مني بعض العلوم المحرمة؛ وبهذا أصبحت سالتيور أقوى المدن في العالم تحت حكمي أنا وسيدي.

قاطع كلامه:

- وهل كان ثمن هذه العلوم المحرمة هو سالتيور المظلمة؟

ابتسم ثم أجابني وهو يتقدم نحوي:

- لهذا السبب يا مرح، رأيت فيك ما لم أراه في الآخرين. نعم، يا مرح، إن سالتيور المظلمة بما يحدث فيها من فاحشة وظلم وسفك للدماء البريئة، كل تلك الأهوال هي الثمن الذي طلبه سيدي.

سأله بغیظ:

- ألن ننال الشرف لمعرفة من هو سيدك؟

وقف خلفي وهمس:

- إنه الملاك الأعلى يا مرح، ولقد تم اختيارك لتكوني من الملائكة!

صاح أرسالن بغضب:

- ماذا؟ ألم نتفق على أن أكون أنا من الملائكة؟

نظر إليه الكينمارو الأول نظرة مخيفة جعلت أرسالن ينكمش على نفسه كالجرو الخائف؛ فشاهدت الرجل الذي لم يُشعرني أحد مثله بالأمان من قبل وهو ينكس رأسه في هزيمة عند إدراكه الخطيئة التي فعلها لتوه.

قال أرسالن بخوف:

- أعتذر منك سيدي، لن يتكرر الأمر ثانية.

نظر إليه الكينمارو الأول شذراً ثم تجاهله وأكمل مخاطباً إياي:

- إن الملائكة هي طائفتنا المبجلة؛ فنحن أتباع الملاك الأعلى، وهو من أطلق علينا هذا اللقب المعظم، والملائكة هم من يحكمون العالم يا عزيزتي مرح، ألا ترغبين في أن تحكمي العالم معهم؟

انفجرت في الضحك لسبب لا أعلمه، ثم قلت:

- هل أرغب في أن أكون من طائفة الملائكة الذين يحكمون العالم؟ سيدي الفاضل، أنا لم أرغب في شيء سوى أن ترى روايتي السخيفة النور، ويا ليتني ما كتبت كلمة واحدة، فلولاها ما كنت أجلس في هذا المكان المخيف في هذا الوقت وأنا لا أفهم حتى ما أواجهه!

أنهيت جملتي الأخيرة والغضب يعتزم بداخلي، بينما تحرك

الكينمارو الأول من خلفي وعلى ثغره ارتسمت ابتسامته المستفزة كالعادة؛ توجه نحو مقعده ثم جلس وعيناه لم تفارقاني.

سألته السؤال الذي توجب عليّ أن أسأله بمجرد ما أن فتحت الباب منذ قليل:

- أين نحن بالضبط؟

- أظن أن مكاننا لا يهم الآن يا مرح، ومع ذلك سأرضي فضولك؛ إن سالتيوراً مدينة العجائب حقاً، حاباها الإله بكنوز كثيرة أسفلها وفوقها، مثل الأشجار الكثيرة والبحر والنهر والمناجم حيث يوجد الفحم، ومثل منارة العلوم المحرمة حيث يعيش سيدي. وأيضاً مثل شبكة الأنفاق الطبيعية التي رأيتها بنفسك أسفلها؛ فهي ليست من صنع البشر بل إن وحده الإله من فعل ذلك.

قاطعه مستنكرة:

- الإله؟ هل تتظاهر بالتدين الآن؟

انفجروا جميعاً في الضحك بينما جلست أمامهم لا أفهم سبب ضحكاتهم المزعجة. قال الكينمارو الأول وهو يشير نحوي:

- هل سمعتم ما قالت؟ إنها تظن أننا نعبد إلههم! لا يا عزيزتي مرح، نعبد الملاك الأعلى، إنه الإله الأول والآخر.

- كفاك سخفاً يا هذا! لا يوجد في هذا الكون بأسره إله غير الذي خلقتك وخلقني وخلقنا جميعاً. هل أنتم مجانين أم ماذا؟

تكلمت بحنق وأنا أعبر عن الغضب العارم بداخلي، ولكنني توقفت

لوهلة للتفكير في الأمر بينما تطلعوا جميعًا في وجهي وهم
يبتسمون بسخرية، قلت:

- أعتقد أنكم تستخفون بالأمر بؤمته، أليس كذلك؟ الخطأ ليس
خطاكم في المقام الأول، بل إنه خطئي لأنني أتحدث مع أشخاص
هم والأموات شيء واحد لا فارق بينهم. أنتم بلا عقول أو مشاعر،
ولا أدري لماذا ظننت أنني سأغير من تفكيركم العقيم هذا إن حاولت
إقناعكم بأن من تظنونهم إلهكم الأول والآخر لا يتعدى كونه دجالًا أو
ساحرًا أو ما شابه.

عبست وجوههم وهم ينظرون لي، نهض الكينمارو الأول من مقعده
ثم تقدّم نحوي وقال:

- هل هناك أسئلة أخرى يا عزيزتي مرح؟

لم يفصل بيننا سوى مسافة قليلة فتمكّنت من رؤية عينيه
الزرقاوين والمخيفتين بوضوح شديد؛ فارتعدت أوصالي خشيةً.
سألته وأنا أرتعش:

- ماذا تريدون مني بالضبط؟

همس في أذني:

- نحن لا نريد منك شيئًا يا عزيزتي مرح، بل إن سيدي يرغب أن
يتحدث معك، بإمكانك أن تسأليه عما يريد منك.

- وأين هو سيدك؟

ابتسم ثم أجابني وهو يهمس كفحيح الثعابين:

- سوف يجدرُ في الوقت المناسب.

توجه نحو أرسلان، ثم توقّف خلف مقعده وقال:

- والآن يا مرح، ألن تتساءلين عن سبب عرض أرسلان الزواج منك؟

لم أرد على سؤاله ولكنني تراجعْتُ إلى الخلف بدهشة عندما أمسك بعنق أرسلان، ثم قال بغضبٍ وهو يذبّحه:

- لأن هذا المغفل خالف أوامري وكاد أن يتسبب في رحيلك إلى الأبد، وكنا سنضطر لإعادة كل شيء من البداية!

بعدما انتهى مسح خنجره اللامع في طرف رداثه الذي لم أعد أعرف هل هو أحمر اللون منذ البداية؟ أم أن الدماء هي من أعطته هذا اللون المخيف؟! كادت والدّة أرسلان أن تتحدّث ولكن زوجها وضع يده على فمها ليخرسها، ولكنها كانت تقاوم لتصرخ وهي ترى ابنها العزيز سابحاً في دماثه، تجاهلها الكينمارو الأول وقال وهو يتقدّم مني:

- إن المشكلة الأبدية للكينمارو هي العيون التي تراقبنا في جميع أنحاء العالم، إنهم يعرفون عنا أشياء كثيرة، ويقتفون آثارنا حيثما ذهبنا، وأمام المحكمة العالمية نقف جميعاً بالأدلة والبراهين لنثبت أن سالتيوراً من حقنا أباً عن جدٍ ولكن المستنيرين يقفون أمامنا بحججٍ وبراهين أخرى ليثبتوا عكس كلامنا. إنها معركة شرسة يا مرح، أخوضها منذ مئات الأعوام، ولكي أتفادى أعين الصقور المحلقة فوق سمائنا اخترتُ الدروب الصعبة دائماً للوصول إلى العاملين

في سالتيور المظلمة، فمشينا في تلك الدروب المظلمة بحذر حتى لا يُفتضح أمرنا كلما قتلنا من يزعجنا أو عذبنا من يخالف أوامرنا، ولهذا السبب قتلك لم يكن مطروحاً على الطاولة عندما رأيت أحد رجال المجلس الحاكم وهو يلمس الطفل الصغيرة بشهوة كادت أن تفتضح أمره وأمرنا جميعاً، ولأنني أخبرت أولئك الحمقى أن يغلقوا الأبواب دائماً إلا أنهم تغافلوا عن ذلك الأمر في تلك الليلة الكثيبة فتعرضنا جميعاً للخطر، وبات مستقبل سالتيور المظلمة بين شفتي فتاة حمقاء من حي المصانع، ولكن سيدي غير رأيه، فبدلاً من قتلك أو دفعك إلى الانتحار أو فقدانك لعقلك كسائر الفتيات الأخريات، أعد لك سيدي خططا أخرى ستمنحك الشرف الأعظم!

صحث فيه بغضبٍ بينما تحتشد الدموع في مقلتي:

- ماذا تريدون مني بالضبط؟

- لا نريد منك شيئاً الآن، حتى سيدي لا يريد منك شيئاً يا مرح، إنه فقط يريدك أن ترين الحقيقة، والحقيقة تكمن في إيمانك بسيدي، وأنه وحده من يمكنه مساعدتك في الانتقام ممن تسببوا لك في الأذى، وعندما تحتاجين إليه اهمسي باسم الملاك الأعلى وسيدي سوف يستمع إلى همساتك في دُجى الليل ليأتيك بالخلاص يا مرح. أما الآن، فأنت حرة حتى أنك تستطيعين الهرب إن رغبت.

لم أصدق ما قال، نهضت على الفور وجريث مسرعةً نحو الباب ثم أغلقته بقوة خلفي، وتوجهت نحو النفق الرئيس وجريث بأسرع ما يمكن حتى خرجت من الباب في القبو، وبعدها من القصر إلى حي المصانع فرأيت العديد من الجيران أمام منزل السيد يوسف

وهم يصيحون فيه ليخرج إليهم. سرث بين الحشود حتى وصلت إلى منزلي ففتحت شقيقتي الباب ولكنها أغلقته بعنف في وجهي، طرقت الباب عدة مرات أخرى ولكنها لم تفتح أبدًا.

قلك وأنا أبكي بحرقة:

- أتوسل إليك أن تفتحي لي؛ ليس الأمر كما تظنين أنا لست كما تظنين يا ريماء، أتوسل إليك أن تتركيني أحضن أمي للمرة الأخيرة.

سمعت بكاء لانا -ابنة شقيقتي- وهي تتوسل والدتها لتفتح لي الباب، ولكن شقيقتي صفعتها على وجهها على ما يبدو لتصمت، ولكنها انفجرت في البكاء أكثر من ذي قبل.

- لماذا تفعلين هذا أيتها الحمقاء؟ إنني مهددة بالموت في أي لحظة من الآن، ولن ترين وجهي مرة أخرى. أتوسل إليك افتحي الباب لأقبل جبين أمي للمرة الأخيرة.

كاد قلبي ينخلع من الألم، ولكنني كنت أحدث جمادًا لا قلب ولا شعور له، وهذا يتنافى تمامًا مع طبيعتها ولا أدري حقًا لماذا تغيرت هكذا وأصبحت بهذه القسوة. لا بد أنها قرأت أفكاري لأنها قالت بغضب مكتوم:

- أنت من تسبب في معاناتنا يا مرح؛ إنك لا تعرفين ماذا فعلوا بنا طوال الأيام الماضية، لقد قالوا أشياء مؤلمة لأهلك، وكادت المرأة أن تفقد حياتها بسببك، أنا لا أستطيع أن أخرج من باب المنزل لأريهم

وجهي.

- لنرحل إذن، لنرحل إلى مدينة أخرى.

قلّتها متوسلةً إيّاها، ولكن هناك من ألقى بشيء ما على ظهري فاستدرت لأتفاجأ بأن هناك حشدًا من سكان حي المصانع يتقدّمهم السيد يوسف يقفون أمامي وهم ينظرون لي بتوعدٍ.

سألّتهم بعدم فهم:

- ماذا؟

صاحت واحدة منهم:

- أنت من تسببت في قتل بناتنا، أنت من دفعتهم إلى الذهاب لتلك الأماكن المحرمة، إن بناتنا يتعفن الآن في الجحيم بسببك.

سالت الدموع على وجنتي وأنا أستمع إلى الافتراءات التي لم أفعلها، لم أفهم حتى ما تقوله المرأة. تلعنمت وأنا أسألها:

- م.. ماذا تقولين؟ أنا.. لم أقتل أحدًا ولم..

لم أكمل جملتي؛ لأن المرأة اندفعت نحوي ثم أمسكت رأسي بغلٍ شديد وراحت تضربها في باب منزلنا من خلفي ولكنني قاومتها، فأمسكت بيديها ودفعتها عني إلى الخلف بينما دارت المدينة من حولي، تقدّمت امرأة أخرى ثم صفعت وجهي وهي تقول:

- هذه الصفعة من أجل ابني الصغير.

تقدّمت امرأة أخرى وأمسكت بشعري، ثم جرّتني إلى منتصف الحي والحشد يقفون حولي في دائرة كئث أنا في مركزها والأعين تقتلني بنظراتها. قال رجل وهو يركل ساقي:

- وهذه من أجل شقيقتي.

صرخت من الألم ولكن الصفعات والركلات انهالت على جسدي
الضعيف الواهن حتى سقطت على الأرض وأنا أنظر إلى الأعلى،
فرايت أمي وهي تصرخ وتلطم على وجهها وهي تشاهدهم يضربون
ابنتها المرتمية كالجمرة الهامدة بلا حولٍ منها ولا قوة. أغلقت عيني
وفقدت الوعي عندما لكمني أحدًا ما على وجهي لكمّةً قويةً للغاية
فأظلمت الحياة لمدة من الزمن، حتى تسلل النور إلى عيني ثانيةً
لأجد نفسي جالسةً في غرفةٍ صغيرة جدًا لا شيء بها سوى دلوٍ
قريب مني وهناك بالأعلى نافذة مربعة الشكل صغيرة للغاية.

شعرت بضيق في التنفس؛ فلطالما كانت الأماكن الضيقة تشعرني
بالدوار والفزع. نهضت بصعوبة وأنا أستند على الجدار حتى أتمكن
من الوصول إلى الباب، طرقت عليه وأنا أنادي على أي شخص
بإمكانه مساعدتي. سمعت خطوات أقدام تقترب مني، فقال صاحب
الصوت:

- ترغب أمك في رؤيتك يا عزيزتي مرح، لم يرغب الناس أن أظهر
الرحمة لك فأنت من تسببت في عنائهم في نهاية المطاف، ولكن كما
أخبرتك سابقًا، سأفعل هذا من أجل الأيام الخوالي.

ما إن أنهى جملته، فتح الباب فاندفع نحوه وأنا أحاول أن أخنقه
بيدي، أتى حارسان وأمسكا بي ولكنني صحت فيه بغضب:

- سأقتلك أيها الكلب الحقير، سأقتلك ثم سأبصق على جثتك
العفنة.

ضحك بطريقة المستفزة ليثير غضبي أكثر، ولكن الحراس
أخذوني بالقوة لأذهب إلى شرفة منزل ما لم أره من قبل، يبدو أنه

ملك لذلك الكلب الخائن، وكانت أمي بالأسفل تنتظرني ويبدو عليها
أمارات المرض الشديد. وقفت أمام المنزل تلتقط أنفاسها بصعوبة،
وبمجرد أن رأتني، نادتنني ثم قالت بصوتٍ مخنوق من البكاء:

- مرح.. ابنتي مرح.. أتوسل إليكم أن تدعوها وشأنها، أتوسل إليكم
فأنا لست بخير وأشعر أن وقتي أوشك على الانتهاء.

لم أصدق في بادئ الأمر أن أمي هي من تقف بالأسفل، فإن
المكالمة الأخيرة لها تراقصت أمام عيني فلم أستوعب أنها أمي في
البداية، ولكن توسلاتها ودموعها أكدوا لي أنها أمي حقًا، وأنني لا
أتوهم رؤيتها. نظرت إلى أحد الحراس فراحت تتوسل إليه وهي
تضع يدها على صدرها من الألم، لم أحتمل المشهد فانهرت من البكاء
وأنا أرى توسلاتها ونواحيها بصوتٍ مبحوح ولا أحد يهتم بها.

- دعوها تصعد إليّ أيها الحمقى.

صرخت من الشرفة وأنا أخاطب الحراس بجانبني، ولكنهم لم
يتزحزحوا من أماكنهم قيد أنملة! شعرت أنني على وشك الجنون إن
لم ألمس حضن أمي الدافئ الذي اشتقت إليه كثيرًا بعد سجنٍ دام
لشهرين كاملين دون أن تراني المسكينة وأنا أعمل في قصر أرسلان.
رفعت أمي رأسها ونظرت لي وهي تبكي، ثم قالت:

- لماذا يا مرح؟ لماذا يا ابنتي الصغيرة؟ هل أنت سعيدة الآن؟ أريد
فقط أن ألمسك قبل أن أموت.

عادت تتوسل الحراس وهي تبكي بحرقة ولكنهم لم يهتموا بما
تقوله وكأنها شبح؛ فتصاعدت الدماء في رأسي فصرخت في

وجوههم:

- هل أنتم بلا رحمة حقًا؟ إن المرأة تعاني أمامكم وأنتم هنا تنظرون إليها بدم بارد وكأن من تقف بالأسفل ليست سيدة مريضة تُحتضرها ما الذي أصابكم؟ هل ذلك الصدر يخبئ بداخله قلبًا أم شرًا وظلامًا؟

إن كنت أتحدث مع ضم لسمعوني وسمعوا توسلاتها الباكية ولكن هيهات! لا أحد يكثر لي أو لها أو لأحد في المقام الأول. أخرج أحد الحراس علكةً راح يلوکها وهو يبتسم لي وكأن رؤية سيدة مريضة تتألم من المرض أمامهم شيء عادي يحدث كل يوم. في هذه اللحظة، كرهت حياتي ولكنني كرهت نفسي أكثر وأكثر، فإلى متى تظل خياراتي هي العدو الذي يلقي بي في النيران التي لا تحرق أحدًا سواي؟

صفعت أحد الحراس ليفتح الباب لها، ولكنه لم يتحرك من مكانه وتجاهلني هو وزميله. استسلمت إلى اليأس فنظرت إلى أمي التي كانت جالسة على الأرض وهي تبكي وتنظر إلى الأعلى.

قالت:

- أسامحك يا مرح، أسامحك على كل ما اقترفته في حقي، أسامحك يا ابنتي، لا تنسي شقيقتك البائسة فهي مريضة للغاية ولا يوجد علاج لمرضها.

نزل كلامها كالصاعقة على مسامعي؛ ففقدت التوازن وسقطت على الأرض ليتمكن عقلي من استيعاب ما قالته أمي. أنا لم أظلم أسرتي

فقط بل ظلمت نفسي كثيرًا عندما ارتضيت بسيطرة أرسلان على قلبي، فكيف انصعث لأوامره وتركث عائلتي غنوةً دون أي مقاومة؟

من أنا؟ لقد دفنت الفتاة البريئة التي كانت تخشى خيالها في الماضي وأصبحت مسخًا لا أنتمي لأحد؛ فأنا لسث من الكينمارو ولم أعد من السكان الأصليين! سمعت أمي تتكلم وتقول أشياء كثيرة ولكنني لم أرغب في سماعها؛ فحقيقتي ألجمت لساني العاجز فلم أستطع أن أنطق بكلمة. ماذا أقول لشخص يُحتضر يقف أسفل الشرفة وينوح متوسلاً إليّ وإياهم ليحتضنني للمرة الأخيرة؟

تحدث أخيرًا ولكن صوتي كان واهنًا أقرب إلى الهمس، فأخبرتها وأنا أبكي:

- أنا آسفة يا أمي، فلم أقصد أن أفعل بك ما فعلته. لا تصدقيهم يا أمي فأنا لم أبع جسدي لأحد، ولم أتسبب في موت أحد، لقد خدعوني يا أمي، وأخبروني أنهم سيمنحون المال لي لأحقق حلمي السخيف؛ كنت فقط أرغب في النجاح والهرب من هذه المدينة الظالمة لأعيش معك في مكان أفضل، ولكن هذه المدينة تكرهنا يا أمي، هذه المدينة لم تحب علينا أبدًا. إن قتلوني يا أمي، فلا تحزني لفراقني؛ فأنا أستحق الموت لأنني لهمت خلف الحلم السخيف ونسيث نفسي فظلمتها وظلمت عائلتي. لقد نسيث يا أمي، أنه لا مكان لأحلامنا في المدينة الضبابية، تعالي إلى قبري يا أمي، ولا تتركيني وحدي في غياهب الظلمات، أنسي وحدتي وآمني روعتي وأنا في قبري أحاسب على ما اقترفت يداي.

أنهيت كلامي فساد الصمت ولم أعد أسمع توسلاتها فظننتها

رحلت، نهضت من على أرضية الشرفة لأشاهدها وهي ترحل فربما لن أراها ثانية. كنت على وشك أن أخبرها كم أحبها، ولكنني تجمدت مكاني ولم أنطق عندما رأيت جسدها على الأرض بلا حركة أو حياة، لقد سكنت أُمي إلى الأبد!

مرت الأيام وأنا أجلس في مكاني في الغرفة المظلمة أنظر إلى الجدار المقابل لي بعينين غائرتين لا حياة فيهما، فقط دموعٌ تحتشد بداخلهما ثم تتساقط باستمرارٍ دون توقف. كان الكلب يوسف يجبرني على مشاهدة جمّة أُمي كل يومٍ والغربان تأكلها، بينما المسكينة تنظر إلى الأعلى وهي تتمنى رؤيتي ولكنها لا تستطيع أن تتحدّث؛ فلقد فات الأوان على كل شيء. لم يعلم أحدٌ خارج حدود المنزل الكبير الذي أحتجز فيه بما يحدث بالداخل، ولا بدّ أن شقيقتي فقدت عقلها من البحث عن أمها دون جدوى.

امتنعتُ عن الأكل والشراب فأصبح جسدي هزيلًا وخارت قواي كثيرًا، كان يوسف يجبرني على رؤية أُمي كل يومٍ والغربان تنهش في جثتها الهامدة ولكنني لم أتمكن في ذلك اليوم من النهوض فلم تعد بي قوة على الوقوف ومواجهته، ولكن الحقيّر لم ييأس مني فطلب من حراسه أن يحملوني لأراها عن قرب. نظرتُ إلى جثتها دون أن أنطق، وعندما يأس يوسف من ذرفي للدموع التي جفت وانتهت من كمرّة البكاء، أمر بإعادتي إلى الداخل. استلقيتُ على ظهري أنظر إلى السقف والانتقام يتراقص أمام عيني، ولكنني لا أعرف كيف أحققه وأنا هزيلة ضعيفة لا قوة لي هكذا.

سمعت أحد الحراس يقول لصاحبه:

- هل رأيته الآن؟ إنها تجلس كالملائكة لا تفعل شيئًا سيئًا لأي شخص، فقط جمة تتنفس، ولكن نهايتها تقترب.

رأيته الحارس ينظر لي من خلال النافذة الصغيرة وهو يبتسم؛ فترددت كلمة الملائكة في عقلي والتمعت الفكرة التي ظننت أنني نسيثها.

همست بيأس وصوتي يكاد لا يخرج من فمي:

- الملاك الأعلى.

سطع النور من فوقني فأغمضت عيني لأنهما لم يحتملا الضوء المهيّب؛ فاستمعت إلى أصوات الرعد بالخارج فكاد قلبي ينخلع من صدري من هول الموقف. اختفى الضوء ففتحت عيني لأجدني غارقة في ظلام دامس، حتى المصابيح بالخارج لا بد أنها انطفأت.

قال صوت دافئ مريح يبعث على الراحة:

- انهضي.

قلت بصوت مبحوح:

- لا قوة لديّ لكي أنهض.

ساعدتني قوة خفية لأنهم دون إرادة مني، ثم دفعتني نحو شخص طويل للغاية، عريض المنكبين، يرتدي الرداء الأبيض، له بشرة ناصعة البياض وسيم للغاية، ولوهلة ظننت أنني رأيته فوق رأسه هالة تشبه حلقات القمر الدائرية ولكنها سرعان ما اختفت.

قال:

- ماذا تريدان؟

أجبته بوهن:

- لا أعرف.

قال بصوت رخيم:

- ماذا تريدان؟

أجبته مرة أخرى والغرفة تدور بي:

- لا.. لا أعرف.

عاد يسألني ثانية:

- ماذا تريدان؟

تجسّد من حولي مشهد أُمي والغربان تأكل جسدها، ثم رأيت
سكان حي المصانع وهم يضربونني أمام منزلي، ثم شاهدت إرسال
وهو يحتضنني بينما يبتسم بمكرٍ لخداعي فسمعتُ وعده بالزواج
مني وعلى وجهه ابتسامات خبيثة، ثم رأيت الكينمارو الأول وهو
يعذب سكان غابة الأحرار في سالتيور المظلمة، وسمعتُ صرخات
المرأة والرجال يغتصبونها واحدًا تلو الآخر، ثم رأيت الكلب يوسف
وهو يضحك ويقهقه بينما أشاهد جسد أُمي الميتة بالأسفل.

عاد يسألني مرة أخرى:

- ماذا تريدان؟

أجبثه وأنا أنظر في عينيه:
- الانتقام.

مارية

استمعتُ إلى الصرخات مرةً أخرى فأسرعتُ إلى الباب وأمسكتُ بالمقبض لأفّتحه والدماء تغلي في رأسي، ولكن يدًا قوية أمسكت بي قبل أن أفعل شيئًا. هناك من يضع يده على فمي لكي لا أصرخ، كان راكان ينظر لي وهو يضع سبابته على فمه في إشارة واضحةٍ منه لكي أصمت، اتسعت عيناى دهشةً وهو يقف خلفي محاولاً أن يبعدني عن الباب وذراعه تلتف حول عنقي.

همس في أذني:

- سنعود إلى الميتم بهدوءٍ، سأوضح لك كل شيء.

ابتعد عني أخيرًا ثم قادني إلى الباب الذي جئنا من خلاله ثم ذلك الباب في الميتم، بمجرد ما إن خرجنا من الباب أغلقه راكان فاستدار ليتحدّث معي، ولكنني دفعته إلى الخلف وصحّث فيه:

- ما الذي فعلته بحق الإله؟ إن الفتاة بالداخل تنزف الدماء، ألم تسمع صراخها؟

- أتوسل إليك ألا تصرخي، من الممكن أن يسمعنا أحد.

صحّث فيه بغضبٍ:

- ليسمع من يسمع، أنا لا أهتم، ما يهمني الآن هو تلك الفتاة التي على وشك أن تلقي حتفها بسبب شخص جبان مملوك!

يبدو أن كلامي جرح كبرياءه؛ لأنه اقترب مني ولكنني تراجعته إلى الخلف خوفًا من غضبه حتى أسندت ظهري على الحائط، ولكنه ظل

يقترّب حتّى لم يفصل بيننا إلا مسافة قليلة للغاية.

قال بعبوس وهو يتطلع في وجهي:

- أنت لا تعرفين شيئًا عني يا آنسة مارية.

- إذن، أخبرني.

تبادلنا النظرات دون أن ينطق أحدهما بكلمة، عينه تقول الكثير ولكنه يلتزم الصمت لا يقول شيئًا. دفعته إلى الخلف مرة أخرى وقلث وأنا أحاول أن أخفي الدموع التي تجمعت في مقلتي:

- لماذا نقف هنا الآن بينما تلك الفتاة بالأسفل تعاني من الموت؟
أخبرني حبًا في الإله يا سيد راكان!

- حتّى وإن عدنا الآن فلن نتمكن من إنقاذها، إن ما يقع خلف ذلك الباب أكبر منك ومني، إنه الشر بعينه، ونحن لسنا مؤهلين لمواجهته بعد، كما أنني أظن أن تلك الفتاة لم تعد على قيد الحياة.

تراجعت إلى الخلف ويدي ترتعش من الخوف. قلث له ودموعي تهرب من عيني:

- ما هذا الكابوس الذي نعيشه؟! ماذا يكون ذلك الباب وما هي تلك الأنفاق؟

وقف أمامي ثم مسح دموعي وأجابني برفق:

- عندما أخبرتني عن المنارة وعمّا رأيته وأنت فاقدة للوعي، تذكرت حكاية اعتادت والدتي أن تقصها عليّ وأنا صغير؛ إنها حكاية لا يعرفها الكثير من الكينمارو، لأنها تخص تراث السكان الأصليين.

أردف قائلاً:

- تلك القصة عن ثلاثة رجال أتوا إلى مدينة سالتورا وسحروا أعين السكان جميعًا فأقنعوهم أن الشمس اختفت وأن الظلام سيرافقهم إلى الأبد، إلا إذا وافق السكان الأصليون أن يعيش الرجال الثلاثة معهم، فرحب السكان المساكين وعادت الشمس مرةً أخرى، ولكن الرجال الثلاثة خدعوهم عندما ادّعوا أنهم يعرفون العلاج للعديد من الأمراض وأنهم يحملون من العلم ما لم يصل إليه بشر من قبل، فصدقهم السكان الأصليون واثّبعوا تعليماتهم وكان المقابل دائمًا هو أن يتخلى الشخص منهم عن منزله مقابل خدمة ما من الثلاثة رجال، ولأن السكان الأصليين مساكين يصدقون كل ما يُقال فكانوا يفعلون مقابل تحقيق رغباتهم واحتياجاتهم، ولكن الثلاثة رجال استدعوا عشيرتهم ليأتوا إلى سالتورا حتى يعيشوا فيها، ثم تحوّلت سالتورا تدريجيًا إلى موطن آمن لعشيرة الرجال الثلاثة والذين أطلقوا على أنفسهم اسم الكينمارو واتخذوا من الشمس شعارًا لهم، ثم جاءت الحرب بين عصابة الأحرار والكينمارو، فانتهت بعد أنهار الدماء بانتصار الكينمارو وطرد عصابة الأحرار إلى الغابات خارج المدينة، مع بقاء البعض من السكان الأصليين الذين ارتضوا بفتات حقوق لا تغني ولا تسمن من جوع.

سكت قليلًا وهو يلتفت حوله؛ ليرى إن كان هناك أحد يراقبنا أم لا ثم نظر إلَيَّ واستطرد:

- ما لا يعرفه الكثير من الكينمارو أن الثلاثة رجال والذين أسسوا هذه الجماعة كانوا يسمون بالكينمارو الأول والثاني والثالث، ظل

الكينمارو الأول هنا في سالتورا بينما سافر الكينمارو الثاني والثالث إلى المدن الأخرى.

- لماذا سافرا الاثنان ولم يبقيا هنا؟

- لأنهما أرادا أن يؤسسا نظاما للحكم في جميع المدن، كما أن سيدهم أراد أن ينشر أفكاره وقوانينه في كل بلاد العالم ليسيطر على الجميع.

قاطعته قائلة:

- لحظة واحدة، لقد ذكرت كلمة "سيدهم"، هل الكينمارو لهم سيد؟ أنا لا أفهم.

راقب المكان من حوله مرة أخرى قبل أن يجيبني:

- الملائكة التي تحدثت عنهم ميرال، لا أظنها تتخيل وجودهم، إنهم حقيقيون يا آنسة مارية، وإن سيد طائفة الملائكة هو الملاك الأعلى، هل تتذكرين ذلك الشخص الذي رأيته عندما تسببت غزل في فقدانك الوعي؟

أومأت بالإيجاب فأكمل:

- أعتقد أنه الملاك الأعلى، وتلك الرؤية لها دلالة علينا أن نكتشفها عاجلاً قبل فوات الأوان.

قطبت جبينني فسألته:

- لا أفهم. قبل فوات أوان ماذا بالضبط؟

لا أدري لماذا يراقب المكان هكذا من حوله، إنني لا أسمع خطوات

أقدام ولكن أنظاره تتحرك في كل مكان؛ مما أصابني بالتوتر والخوف. أجابني:

- هل تعلمين أن فرسان الرب لم يخطئوا حينما قالوا أن نهاية العالم اقتربت؟ إن النهاية تقترب بالفعل يا آنسة، حدثني أُمي عن نبوءة تحدثت عن المخلص الذي سوف ينهي الصراع الدائم بين الكينمارو والسكان الأصليين، وإن هذه النبوءة والحكايات الأخرى يتناقضها جيلٌ بعد جيل؛ ولهذا السبب أعرف كل هذه المعلومات.

قلت بتوتر شديد:

- أنا حقًا تائهة الآن، معلومات كثيرة، وخيوط عديدة وأنا لا أفهم ما علاقة كل هذا بما أراه وبما يحدث في تلك الأنفاق.

نظر إليّ، ثم قال:

- تلك الأنفاق هي الجحيم بعينه يا آنسة، لم يكن والدك كما تظنينه، لقد كان هو وأثرياء سالتيورا وذوو السلطة يستخدمون ذلك المكان لتعذيب سكان غابة الأحرار بأبشع الطرق، ولكنهم استخدموها أيضًا في أشياء أبشع بكثير من مجرد التعذيب والقتل، فبإمكانك تخيل جميع الممارسات الشاذة التي من الممكن أن تخطر على بالك، ولكنها ستكون نقطة في بحر القذارة التي يسبحون فيها كل ليلة!

توقّف قلبي وانقطعت أنفاسي وأنا أحاول أن أستوعب ما يقول، سأله بتجهم:

- هل كنت تعلم كل هذا طوال تلك المدة ولم تُبلغ عنهم؟ هل تركت أولئك الأشخاص يعانون هكذا دون أن تنقذ واحدًا منهم؟

- أنا رجل واحد أمام عشيرة من الرجال يا مارية، وأنت تعرفين جيدًا أن الكينمارو يخشون دار العدالة العالمية؛ فهم بمطابة الكابوس الذي يداعبهم في كل ليلة، ولهذا السبب تربتهم يخفون كل الأدلة التي تدينهم، ويتسببون في اختفاء كل من رآهم، أو يكتمون أفواه من يتوعد بفضح أمرهم، فهم يحافظون على صورتهم البريئة أمام العالم، ولا أعتقد أنني كنت الشخص الأمثل لفضح أمرهم أو إيقافهم. اضطربت معدتي وأنا أحاول أن أهضم كلامه، تذكرت ليلي وهي تنزف فسألته بعبوس:

- أتوسل إليك ألا تقول أن أطفال الميتم يتم استخدامهم في ذلك المكان الموحش.

- الأمر الوحيد الذي أنا متأكد منه هو أن أطفال الميتم لا دخل لهم بأي شيء، بل على العكس إنهم يأتون من غابة الأحرار، فكلما كان هناك عائلة يتم تعذيبها من السكان الأصليين، كان الكينمارو يحضرون أطفال الأسرى إلى هنا ليتم استخدامهم لصالحهم عندما يكبرون.

- إنهم يتعاملون معهم وكأنهم حيوانات.

قلتها ودموعي تنساب على وجنتي من هول ما أسمعته. استطرد راکان:

- كانت أُمي واحدة من الأطفال الذين عاشوا طوال حياتهم في الميتم، ولكنها تعرفت على والدي ووقعت في حبه فتبدل حالها إلى حال أفضل ولكنها لم تنس ما أخبرتها به أمها، والذي أخبرني به

بدورها عندما حان الوقت.

كنت كمن ألقى أحدهم بدلو ممتلئ بمكعبات الثلج فوق رأسه فتجمدت مكاني وأنا أستمع إلى أشياء أعرفها للمرة الأولى. سأله:

- هل تعرف من هم الملائكة؟

- لسوء الحظ تنتهي معلوماتي عند هذا الحد، يجب أن نتحدث مع ميرال لنفهم منها من هم الملائكة وماذا يفعلون بالضبط؟

- وما هي تلك الأنفاق بالضبط؟

ظننت أنني سمعت شيئًا ما من خلفي، فاستدرت لأتفقد المكان ولكنني لم أجد شيئًا؛ فطلب مني راكان ألا أتحرك ثم تحسس سلاحه الناري استعدادًا لأي شيء، ولكن المكان أصبح هادئًا مرة أخرى فقال راكان وهو يشعر بالتوتر:

- إنها شبكة من الأنفاق أسفل سالتيورأ بأسرها، ويأمكن الكينمارو وبعض السكان الأصليين الوصول إليها من خلال أبواب في قبو المكان الذي يتواجدون فيه، والأنفاق تحتوي على مدينة سالتيورأ المظلمة التي يشيع فيها الفاحشة وكل أشكال الفجور والوحشية، وإن ذلك المكان كالمقب الأسود يبتلع الفتيات اللاتي يذهبن إليه، ولهذا السبب يُقال عن مدينتنا أنها بؤرة الجرائم في العالم أجمع، وذلك المكان يجني الكثير من الأموال، وهو السبب في أن سالتيورأ من أغنى المدن في العالم، وهو أيضًا السبب في اختفاء العديد من الفتيات والأطفال الصغار، بل إنه السبب في ارتفاع عدد جرائم القتل في سالتيورأ، ولأن الباب الرئيس للدخول إليه يقع في حي المصانع

حيث يعيش السكان الأصليون، فهذا السبب تلك المنطقة تبدو دائمًا وكأنها فوق صفيح ساخن!

- وما الذي يجب أن نفعله الآن؟

تنهّد ثم أجابني:

- يجب أن نكتشف ما يوجد بداخل المنارة، ونفهم ما هي تلك البلورة ومن هم الملائكة؛ حتى نتمكن من معرفة الحقيقة الكاملة لنقرر معًا ما سوف نفعله لإنقاذ هذه المدينة من الهلاك.

ساد الصمت بيننا للحظات، قلث له أخيرًا:

- لماذا لم تخبرني بكل هذه الحقائق من قبل؟

لم يعلق على الفور، ولكنه قال أخيرًا:

- هناك بعض الأمور التي يعجز المرء عن مشاركتها مع الآخرين، حتى أولئك الذين يعنون الكثير له.

- وهل أنا ممن يعنون الكثير لك؟

لم يرد واكتفى بالتطلع في وجهي وعيني بنظرات حزينة لا معنى لها بالنسبة لي، ولكنه قال أخيرًا:

- أحيانًا تجبرنا الحياة على سلك دروب وعرة، ولكنها تكافئنا بأزهار جميلة يفوح عبيرها على طول الطريق لتشفى الجراح التي تصيبنا من قساوة ذلك الدرب، وأنتِ هي الزهرة الجميلة في دربي الوعر.

- ماذا يعني هذا الكلام الآن؟

سألته وقلبي يؤلمني بشدة، فأجابني:

- لا أستطيع أن أخبرك؛ هناك أشياء من الأفضل أن تكون في طبي الكتمان.

أنهى كلامه وطلب مني أن أعود إلى القلعة؛ لأستعد للذهاب إلى المنارة ففعلت ما طلبه مني. دخلت القلعة وصعدت إلى غرفتي واستبدلت ملابسي بأخرى تناسب السير لمسافات طويلة، ثم نزلت إلى البهو مرة أخرى فرأيت راكان بانتظاري.

- كيف سندخل إلى تلك الأنفاق؟ إن الباب يظهر ويختفي كما يحلو له.

أخرج من جيب سرواله بطاقة معدنية زرقاء اللون شمكها رقيق للغاية، ثم ألصقها بالجدار فظهر الباب على الفور. اتسعت عيناى دهشة وأنا أشاهد الباب الذي لم يكن موجودًا من قبل وهو يظهر فجأة أمامنا؛ فنظرث إلى راكان بخوف وسألته عن تلك البطاقة فأجابني:

- سرقتها من والدي؛ إنها تفتح هذه الأبواب.

- مهلاً، هل والدك والسيد ليرون وآدم وجميع الأثرياء في سالتيورام يمتلكون هذه البطاقات العجيبة؟ وهل هذا يعني أن من كان يفتح الباب في السابق هو آدم أو السيد ليرون أو.. أنت؟!

أمعن النظر في وجهي، ثم قال:

- إن كنت تظنين أنني القاتل، أو أنني واحد من أولئك الوحوش، فالإجابة هي لا يا آنسة، أنا مملك أريد العدالة ولا أقبل بالظلم.

لوهلة شعرت بالخوف منه، ولكن هناك جزءًا صغيرًا في قلبي أرادني أن أتبعه ففعلت بالفعل، لينغلق الباب من خلفنا على الفور. سرنا لفترة في ظلام الأنفاق ونحن نترقب كل الأشياء السيئة التي من الممكن أن تحدث، ولكننا وصلنا أخيرًا إلى الساحة حيث توجد البلورة الزرقاء والتي كان لونها داكنًا للغاية أكثر من المرة السابقة، نظر راكان إليها بعبوس ثم صعد إلى الدّرج في الركن البعيد فتبعته على الفور. أوقفني راكان وهو يسألني إن كنت أسمع الترانيم المخيفة أم لا فأومأ بالإيجاب وأخبرته أنني سمعتها في المرة السابقة.

وصلنا إلى أعلى المنارة، ووقفنا ننظر إلى المرايا التي راحت تعكس ضوء البلورة ثم توقفنا أمام الباب المغلق. وضع راكان يده على المقبض ثم أداره بحذر وهو يضع يده الأخرى على سلاحه الناري، فُتح الباب ودخلنا معًا ولكننا وجدنا الغرفة فارغة إلا من المنضدة المستديرة والمقاعد، ولكن الصناديق الصغيرة لم تكن كثيرة مثل المرة السابقة، أظن أن عددًا منها اختفى أو وقع بالأسفل كما المرة السابقة. نظرت أسفلي فاضطربت نبضات قلبي؛ لأنني حقًا أخشى المرتفعات، تعلق بذرار راكان دون إرادة مني فنظر لي وقال:

- لا تخافي، أنا هنا.

توجهنا إلى الصناديق الصغيرة، أمسك راكان بواحدة منها بينما ابتعدت عنه عندما شعرت بالهرج الشديد عندما تعلق بذراره هكذا فحاولت ألا أنظر بالأسفل حتى لا أفقد السيطرة على خوفي. تفحص راكان الصندوق ففتحه لآتفاجأ أن هناك خصلة شعر سوداء بداخله،

ثم أمسك بصندوق آخر وفتحه ليخرج خصلة شعرٍ أخرى ولكن لونها مختلف هذه المرة. قال وهو يتأملهما:

- هذه خصلات شعر لبشرٍ حقيقيين، واحدة للكينمارو وواحدة للسكان الأصليين.. ما معنى هذا؟

سقط واحد من الصناديق إلى الأسفل فلمعت في عقلي فكرة لم تتطرق إليه من قبل؛ أجبت راکان:

- هذا يعني أن صاحب خصلة الشعر سوف يموت!

- هل تقصدين أن هذه الخصلات سحرٌ من نوعٍ ما لقتل الأشخاص؟

فتحت صندوقًا آخر وأخرجت خصلة الشعر التي بداخله، ثم قلت وأنا أتأملها:

- فكّر معي جيدًا، خصلات شعرٍ لأشخاصٍ مختلفين، منهم الكينمارو ومنهم السكان الأصليين، وجميع الخصلات محفوظة في صناديق، لا، ليست صناديق.. إنها توابيت، توابيت لقتل أولئك الأشخاص بطريقةٍ غير تقليدية، طريقة تجعل من يراها يحتار ويكاد يفقد عقله من التفكير؛ فربما يرى من توضع خصلة شعره في هذا الصندوق الصغير أشباحًا غير حقيقية أو أشياءً منافية للمنطق، ثم ينتج عن هذه الهلوسات جريمة قتل، إما قتله أو قتل من حوله!

نظرنا إلى بعضنا البعض، قال آدم:

- لقد تذكرتُ أمرًا ما أخبرتني أمي عن لعنة غريبة همس بها الكثيرون في حي المصانع، إنها لعنة تصيب من يفعل أشياءً سيئةً

فُشِلَط عليه ذنوبه التي تجعله يعيش العذاب الذي تسبب فيه
للآخرين حتى يموت أو يقتل من حوله، ثم يفقد عقله بعدها.

- إنها المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذه اللعنة.

ساد الصمت بيننا ونحن نفكر في كل شيء. قلت له:

- إن كان كلامك صحيحًا، فإن هذه الأحداث التي رأيثها والتي
رأثها أمي ليست حقيقية، ولكن هذا يتنافى مع تلك الرسائل التي
يرسلها القاتل المجهول إلى ضحاياه مثل رئيس القضاة وقائد
الشرطة، أليس كذلك؟

- وهذا يعني أن هناك قاتلاً حقًا، وربما هو من يستخدم هذا المكان
لقتل ضحاياه أو إلقاء لعنة ما عليهم، وإن ما تريثه أنت ومن لعن
بهذه اللعنة هو حقيقي وليس جنونًا كما ظننت.

نظرت إلى التواييت مرة أخرى وعقلي يفكر في أمر ما جعلني
أتجمد مكاني؛ كنت على وشك أن أنطق ولكن راكان اقترب مني
ووضع يده على ثغري وقال بلامح حزينة لم أرها على وجهه من
قبل:

- لا.. لا تقوليها رجاءً، سنجد حلًا للتخلص من هذه اللعنة حتمًا،
لن يسقط التابوت الذي يحتوي على خصلة شعرك إلى الأسفل ولن
تموتي لن أفقدك يا مارية، فأنا عثرث عليك للتوا!

تساقطت الدموع مني وأنا أنظر إلى خوفه وقلقه، مسح دموعي
ثم ابتسم وأخبرني أنني سأكون على ما يرام، ولكنني قلت:

- وإن لم نستطع أن نُبطل هذه اللعنة؟

اتسعت عيناه وهو ينظر إلى شيء ما خلفي؛ فأمسك بي ودفعني إلى خلف ظهره ليقف أمام الشخص الذي اعتدت رؤيته في ممرات القلعة حيث كان يقف أمامنا وهو يرتدي الرداء الأحمر المرعب، ويضع قناعه المخيف على وجهه. صفق الشخص الغامض بكلتا يديه تعبيرًا عن إعجابه بما وصلنا إليه من استنتاجات، نزع الشخص قناعه المخيف لأتفاجأ بأنه امرأة من السكان الأصليين، ولكنني لم أرها من قبل.

قالت المرأة:

- مرحبًا بكما في عالمي الخاص؛ أنتما لا تعرفان كم اشتقت إلى هذه اللحظة.

سألها راكان بحدّة:

- من أنتِ؟

ابتسمت المرأة، ثم أجابته:

- كانوا ينادوني "مرح" في السابق، ولكنني الآن من الملائكة.

سألها راكان بعصبية:

- من أنتِ؟ وماذا تريدين منا؟

أجابته المرأة بهدوء:

- حسنًا سيد راكان، لنهدأ قليلًا، لِمَ لا تجلسان على تلك المقاعد المريحة؟ إن هذه الليلة ستطول قليلًا، ويجب أن ترتاح أنت وحببتك الجميلة.

ضغط راكان على كل كلمة ينطقها:

- ماذا تريد مني؟

لاحظت المرأة سلاح راكان الناري؛ ففعلت شيئاً بيديها جعل السلاح يتحوّل إلى حبيبات من الرمال تساقطت إلى الفضاء بأسفلنا، تراجع راكان وهو ينظر إلى سلاحه المتناثر في المكان ثم نظر إلى المرأة وهو يقف أمامي ليحميني منها. صاح فيها قائلاً:

- أي سحر هذا؟

- لماذا تصرون على أن هذا سحر يا سيد راكان؟ ألم تقرأ تاريخ الكينمارو من قبل؟ إن هذا هو العلم المحرم، علم يا سيد راكان، علم بإمكانه أن يفعل هذا مثلاً.

دفعني قوة غريبة إلى الخلف حتى التصق ظهري بالجدار من خلفي فلم أعد أتمكن من الحركة وكأن حركتي شلت تماماً، رأيت يديها وهي ترفعني إلى الأعلى بينما لم تتحرك مرح من مكانها قيد أنملة، فكانت يداها تفعلان كل شيء وهي تقف في مكانها تنظر لي في شماتة ونشوة غريبة.

صاحت:

- لقد تخيلت أنني أفعل هذا بك منذ الوهلة الأولى التي علمت فيها أن والدك الحقيير من ضمن قائمة الانتقام الخاصة بي، والتي علمت بها عندما زارني الملاك الأعلى وأخبرني بكل شيء ثم علمني هذه العلوم حتى ارتويث منها. أستطيع سماع دقات قلبك الذي لا يمكنه أن يستوعب ما يحدث لك الآن ولكن هيهات، فإن المرح الحقيقي لم

يبدأ بعداً!

ألقِ بي نحو الباب فسقطت على الأرض وأنا أتأوه من الألم
المُبرح؛ فأسرع راكان نحوي وسألني بقلقي:

- مارية، هل أنت بخير؟

لم أستطع أن أتحدّث من الألم، فتكلّمت مرح بالنيابة عني:

- ستكون بخير يا سيد راكان، ولكنني أرجوك أن تنهي التظاهر
الآن؛ فالمسرحية على وشك الانتهاء.

تعجبت لما قالته، عن أي تظاهر تتحدّث؟! سألتها بصوتٍ ضعيف:

- ماذا تقصدين؟

قالت وهي تبسم بشماتة:

- أقصد يا عزيزتي أن السيد راكان كان يتظاهر بمحبته واهتمامه
بك، ولكنه كان يكذب حتى يصل إلى البطاقة الأخيرة! لماذا لا
تخبرها يا سيد راكان، عن اتفاقك مع قادة غابة الأحرار؟

نظرت إلى راكان ولساني يعجز عن النطق، قال متوسلاً إليّ:

- أتوسل إليك ألا تصدقي ما تقوله، سأشرح لك كل شيء في
الوقت المناسب.

تجهّم وجهي وأنا أفكر فيما يقوله، سألت مرح وأنا أحاول أن
أنهض:

- أريد أن أسمع منك وليس هو.

قالت مرح وهي تسير نحوي بهدوء:

- حسنًا، لِمَ لا نبدأ من البداية؟ لنعود بالزمن إلى العام الماضي: في يوم من الأيام، عاشت فتاة سخيضة تُدعى مرح، ولكنها لم تنل حظًا من اسمها، فإن كانوا أطلقوا عليها اسم "شجن" لوصفتها الكلمة أدق وصف!

وقفت أمامي وهي تبتسم بطريقة مروعة، ثم رفعت يديها نحو راكان وألقت به بعيدًا؛ لأنه كان على وشك أن يغرس خنجره في صدرها ولكنها كانت أسرع منه. رأيث راكان مستلقيًا على الأرض ويبدو أنه فاقدٌ للوعي؛ فشعرث بغصة في قلبي على الرغم من أنه كذب عليّ ولكنني أحبه وقلبي يؤلمني للغاية في هذه اللحظة.

استطردت مرح:

- رغبت مرح في أن تحصل على الأموال السريعة فذهبت إلى قاع الجحيم، أو ما يطلقوا عليه اسم "سالتيور المظلمة" ولكنها هناك يا عزيزتي، رأت وحوشًا يرتدون أقنعة بشرية تخفي حقيقةتهم العفنة بأسفلها، الوحش الأول يُدعى بالكينمارو الأول، ولكنك تعرفينه باسم آخر.. إنه السيد ليرون.

قطبث جبيني وأنا أستمع إليها، سألتها بوهن:

- السيد ليرون هو الكينمارو الأول؟ أنا حقًا لا أفهم.

توجهت إلى المنضدة فأجبرتني قوتها أن أسير خلفها وكأنني حيوانها الأليف، جلسث على المقعد بينما ظلت هي واقفة أمام المنضدة المستديرة، فأردفت مرح:

- انظري إلى هذه الخريطة المقدسة يا عزيزتي، هل ترين هذه المدينة؟ إنها مدينة الكينمارو الأول، أو كما تعرفينه باسم السيد ليرون، أغنى أثرياء سالتيور، الرجل الذي يتحكم في كل شيء بداخل المدينة وربما خارجها أيضًا، ولأنه يخشى أن يراه من يذهب إلى سالتيور المظلمة، فاعتاد على ارتداء قناع من نوع خاص، ولكنه لم يكن بمفرده بل شاركه الأمر رئيس القضاة، وحاكم المدينة، ورئيس جهاز الشرطة. أتدريين يا مارية؟ إن العلوم المحرمة هي طوق النجاة ولسوف أثبت لكم جميعًا هذه الليلة أن كلامي صحيح، ولنبدأ معًا بذلك القناع من النوع الخاص الذي اعتاد السيد ليرون على ارتدائه وهو يقف بالأسفل ليعذب الأبرياء ويقتلهم بدم بارد.

رأيثها تخرج وجه شخص حقيقي؛ فاتسعت عيناها من الخوف والدهشة وأنا أنظر إلى ملامح بشرية حقيقية ولكنها قناع كما أخبرتني، كانت يدي ترتعش وأنا أنظر إلى مرح التي استطردت قائلة:

- نعم، فكما ترين، إن هذا القناع يشبه وجوه البشر، ولكنه ليس لشخص حقيقي، بل إنه مصنوع بعناية فائقة باستخدام العلوم المحرمة، وبهذا القناع استطاع السيد ليرون خلال أعوامه الكثيرة، بل الكثيرة للغاية والتي تزيد عن المائة عام بكثير، أن يتجول في سالتيور المظلمة كما يحلو له دون أن يدري أحد بأنه السيد ليرون الشهير المحب للخير، والذي بنى للأطفال ميثمًا خاصًا بجوار قلعته الحصينة! من كان يصدق هذا يا عزيزتي؟

تبادلنا النظرات، ولكن عقلي كان منشغلًا بالتفكير في أي شيء بإمكانه أن يخرجني من هنا، دارت عيناها في الغرفة ولكنني لم

أجد شيئًا سوى جسد راكان المستلقي على الأرض بلا حركة، ولكنه يتنفس فتتنفس الصعداء ونظرث إليها وهي تقول:

- لسنواتٍ عديدة عانت سالتيورا من بطش الكينمارو، ولكن سالتيورا المظلمة عانت من كل شيء؛ فهناك ترين السكان الأصليين يتم تعذيبهم بأبشع الطرق الجسدية والنفسية حتى الحيوانات هناك لم تسلم من وحشية الكينمارو، وأنتِ كما تعلمين لا فارق بين السكان الأصليين والحيوانات، أليس كذلك؟

- ماذا تريد مني الآن؟ وما الذي اتفق عليه راكان مع سكان غابة الأحرار؟

تنهدت، ثم قالت وهي تبتسم بمكر:

- ماذا أريد منك؟ حسنًا، لنؤجل الإجابة عن هذا السؤال الآن. لنرد على السؤال الثاني؛ أنتِ تعلمين أن والدَةَ راكان من السكان الأصليين، وبالتحديد من سكان غابة الأحرار، وكما أخبركِ هو أنها أتت من خلال تلك الأنفاق إلى سالتيورا المظلمة، ولكن السيد ليرون العطوف أخذها لتعيش في الميتم، فكبرت الطفلة وقابلت والد راكان ثم تزوجا، ولكنها لم تنس أصولها وجذورها التي ترتوي بحب الوطن وترابه، فعاشت المسكينة معذبةً بين غابة الأحرار والكينمارو في سالتيورا، وابنها يشبهها كثيرًا؛ فهو يرغب في تحقيق العدالة كما قال لك من قبل بل يرغب في عودة سكان غابة الأحرار إلى موطنهم، كما يرغب في أن يحكم السكان الأصليون مدينتهم المُحتلة والمنهوبة من الكينمارو، وهو يعلم جيدًا أن كل هذا لن يتحقق دون إراقة الدماء، إراقة دمائك ودماء الكينمارو يا عزيزتي.

نهضت من مكاني وأنا أستشيط غضبًا، قلت بعصبية:

- أنتِ كاذبة، لم يكن راكان ليفكر أبدًا في إيذائي أو إيذاء أي أحد آخر. لماذا يفكر في قتلنا ووالده واحد منا في المقام الأول؟

اقتربت مني للغاية، ثم قالت وهي تنظر في عيني بغباب:

- مارية، لقد راقبتك طوال الأيام الماضية ورأيت فيك ما لم أراه في الآخرين، إنكِ لست مثلهم، هل ترغبين في معرفة لماذا كنتِ ترين الأشياء الغريبة يا عزيزتي؟ حسنًا، هل ترين تلك التوابيت؟

أشارت إلى التوابيت التي تطفو فوقنا والتي قلّ عددها كثيرًا. أضافت مرح:

- تلك التوابيت هي لعنة التطهير التي أقيثها على مدينة سالتايورا، إن من توضع خصلة شعره فيها هو هالك لا محالة، وأنتِ واحدة منهم، لماذا برأيكِ؟ لأنكِ ابنة الحاكم، وكان ينبغي على هذه المدينة أن تُطهر من الظالمين وأعدائهم ونسلهم، ولكن اللعنة يا مارية، لم تجعل منك قاتلةً مثل البقية، لأنكِ ومع الأسف الشديد شخصٌ نقي، واللعنة تشترط أن تقتلي من حولكِ لأنكِ شخصٌ قذر روحه متعفنة، أو تقتلين بسبب أفعالك النجسة أو بسبب أفعال أسلافكِ يا حلوتي، ولهذا السبب ستحترق روحكِ في الجحيم بسبب ما اقترفه والدكِ وأسلافه من الكينمارو.

كنتُ أبكي، ليس على ما سوف يحدث لي، بل بكيتُ لأن والدي وأسلافي خلقوا وحشًا سوف يقضي علينا جميعًا، حتى وهم أموات، لم أسلم من بطشهم لي ولغيري!

أضافت مرح:

- يبدأ الأمر برؤى عجيبة لا يراها أحد سوى الشخص الملعون، ولكن هذا كان في البداية فقط، فكلما طالت مدة اللعنة، كلما ازدادت الأعداد التي تستطيع أن ترى الأشخاص الشاحبين وهم يحاولون قتلهم، والنهاية واحدة دائماً؛ إما يُقتلوا أو يُقتلوا، وبهذا تتحوّل المدينة إلى بحرٍ من الدماء لا أول له ولا نهاية.

سكتت قليلاً وهي تراقب وقع كلماتها على ملامحي التي تبدّلت تماثلاً، ثم أضافت:

- ولأجيب عن سؤالك الأول يا عزيزتي، فإنني أريد منك بطاقة زرقاء كانت مع والدك، وضعها الأحقق في مكانٍ لا يمكنني معرفته. إن تلك البطاقة تفتح باباً لم يسبق للملائكة فتحه من قبل، إنه مكانٌ يحوي كنوزاً يا عزيزتي، كنوزاً ثمينة بإمكانها منحي القوة اللازمة لتخليص هذه المدينة من بؤسها.

- ما هو ذلك الكنز الثمين؟

سألثها بخوف ولكنها لم ترد، فسألثها بتحدٍ:

- وإن لم أساعدك في العثور على تلك البطاقة؟

ابتسمت وأجابت:

- أنتِ لستِ شخصاً غيبياً، إن لم أستلم هذه البطاقة بعد ساعتين من الآن، فإنك وأهلك وذلك العزيز الملقى على الأرض ستموتون موتةً يحكي عنها الناس لأجيالٍ قادمة.

- أنتِ أيضًا يا مرح لستِ بشخص غبي، فكما تعلمين أنا ميتة في كل الأحوال، وإن هذه اللعنة ستدفعني أنا وأمي إلى قبرنا عاجلاً أو آجلاً. أما راكان، فأنا لا أسامحه على كذبه واستغلاله لي، فلا يهم حقاً إن قتلتنني أو قتلتي أُمي، أو حتى ذلك الخائن هناك.

اتسعت ابتسامتها، ثم قالت:

- معكِ حقٌّ، ولكنني أريدك أن تعرفي أن ليلي ذات الصفائر كانت الابنة غير الشرعية للسيد آدم والسيدة ديلارا مديرة الميتم، ولقد وضعت خصلة شعرها هي وميرال في أحد التوابيت، ولكن ليلي كانت على وشك أن تفضح أمري لك فإن ما رسمته كان يحكي ما سوف يحدث، فأين عنصر المفاجأة إن كنتِ تعرفين مسبقاً ما سوف أفعله؟ لذلك قتلتها بعدما قطعت لسانها الصغير.

اتسعت عيني وأنا أستمع إليها، ولكنها اقتربت من أذني وهمست دون الاكتراث لأي شيء آخر:

- أعلم أنك لا تكثرين لموتكِ أو موت أمكِ؛ فأنتما -كما قلتِ سابقاً- جمتان تسييران على الأرض، وإنها لمسألة وقت فقط وستدفعكما اللعنة إلى القبر، حتى راكان لا يهتمك أمره، ولكن.. ماذا عن ميرال؟ إنها في مكان آمن للغاية، هل سوف تضحين بحياتها؟

رأيت راكان يقف خلفها، فحاول أن يغرس نصل خنجره في ظهرها ولكنها دفعت به إلى الخلف دون أن تستدير وتنظر إليه فسقط الخنجر على الأرض. اقتربت منه وقالت بتجهم:

- سيد راكان، المرح الحقيقي سيبدأ بعدما تسلمني السيدة مارية

بطاقة والدها الأخيرة، وإن ما تفعله الآن بي ليس ممتعًا أبدًا.

أمسكت بالخنجر ثم غرسته بقوة في كتفها وتوجهت إلى راكان على الفور لنخرج معًا خارج الغرفة، بينما ظلت مرح في الغرفة وهي تصرخ من الألم والغضب. جريت مع راكان إلى الأنفاق حتى وصلنا إلى الباب، بمجرد ما إن خرجت من الباب إلى البهو في القلعة رأيث آدم ووالده يقفان أمامنا، قال السيد ليرون بتجهم:

- أين ميرال؟

أجبته بتردد:

- إنها في المنارة مع مرح.

أمسك آدم بي ليقيد حركتي فصرخت، وعندما حاول راكان أن يخلصني من قبضته اندفعت قوى السيد ليرون أو الكينمارو الأول نحوه فسقط إلى الخلف، اقترب السيد ليرون من راكان ثم قال:

- أيها الكلب الخائن! لقد وضعت عائلتي في أمانتك، ولكنك خنت الأمانة وإن مصيرك هو الموت.

صرخت بأعلى صوتٍ تمكّنت حنجرتي من إطلاقه وأنا أراه وهو يرفع يده ليقتل راكان، ولكن غزل أتت من خلفه وهي تمسك بإبريق زجاجي كسرتة فوق رأس خالها لتحمي راكان، بينما تركني آدم ليذهب إلى والده الذي كانت الدماء تسيل من رأسه على الأرض.

قالت غزل وهي تبتمس بجنون:

- كم رغبت في فعل هذا منذ تلك اللحظة التي قتلت فيها أُمي

وأختي أيها الوغد الحقيير.

استدارت وقالت لراكان:

- إن هذا الحقيير من طائفة الملائكة، وهم مجموعة من الخالدين يحكمون سالتيورا في الخفاء ويعبدون الملاك الأعلى مقابل ما ينعم به عليهم من علوم محرمة تجعلهم الأقوى على الإطلاق، وهم يغيرون من أشكالهم كل فترة من الزمن حتى لا يتساءل الناس عن أعمارهم، وآدم واحد منهم، ولكن السيد ليرون شخص أناني إلى تلك الدرجة التي جعلته يقبل بالخلود له ولا يقبل أن يكون ابنه من ممارسي العلوم المحرمة، والسيد ليرون وابنه السبب في قتل كل نساء العائلة؛ فممنوع على نساء عائلة الكينمارو الأول أن تعرف سرهم القدر وإن من تكتشف السر يكون مصيرها الموت، حتى لا يضعوا العلوم المحرمة في أياديها أو أيادي غيرنا، ولكنني اتفقت مع مرح أن تتركني وشأني مقابل أن أسلمها البطاقة الخاصة بالكينمارو الأول؛ فهي تبحث عن تلك البطاقات لسبب لا أعرفه، ولهذا السبب أقنعت مرح سيدها -الملاك الأعلى- ألا يقتلني؛ فوافق على مضي على الرغم من أنني كنت أعرف عن سالتيورا المظلمة كل شيء.

نهض آدم من مكانه وتقدم من غزل، ثم أمسك بعنقها ليخنقها ولكن راكان أسرع إليهما ولكم وجه آدم عدة مرات حتى نzf الدماء وارتقى على الأرض مغشيًا عليه.

- لنرحل الآن.

قالها راكان، فخرج ثلاثتنا من القلعة لتفاجأ بالحراس يقفون وهم ينظرون إلى قائدهم نظرات مستفسرة عما سمعوه من صرخات

بالداخل، أمرهم راكان بالابتعاد عن طريقه ولكنهم لم يتحركوا قيد أنملة. اقترب واحد من الحراس وقال لراكان بصوت أجش:

- أين السيد ليرون وابنه؟

تجمدنا نحن الثلاثة في مكاننا والحراس يقفون حولنا وهم على استعداد ليمزقونا إربًا، وقف راكان أمامهم ليحمي جسدي وجسد غزل ثم قال بصرامة:

- الأمر ليس كما يبدو عليه، يجب أن نرحل الآن لنحضر شيئًا ما بإمكانه أن يخلص المدينة من معركة دموية على وشك الحدوث.

أخرج جميع الحراس أسلحتهم في وجه راكان الذي لم تهتز له شعرة واحدة، فكان مثل الأسد يقف أمام الضباع لا يخشى شيئًا، أمرتهم غزل أن يبتعدوا عنه فقال لها واحد منها:

- نحن لا نستمع إلى أوامر النساء من العائلة وأنت تعلمين هذا.

أحاطنا الحراس من كل حدب وصوب فلم نعرف كيف نتخطاهم لنذهب لإحضار البطاقة الأخيرة؛ حتى ننقذ ميرال وننقذ المدينة مما ستفعله مرح فيها، وعلى حين غرة منا جميعًا سمعنا خطوات أقدام تأتي من خلفي، فأتسعت أعين الحراس دهشة وهم ينظرون لشيء خلفي دفع بهم إلى الورا فطاروا في الهواء وسقطوا على الأرض العشبية المبتلة فتفرقوا جميعًا.

كان الأيتام ومعهم السيدة ديلارا والعديد من الخدم يشاهدون ما يحدث من الشرفات والنوافذ بالميتم، فانطلقت الصرخات المدوية وهم يراقبون ما تفعله مرح التي وقفت أمامنا وعلى وجهها أشد

علامات الغضب قسوة. تفاجأت أن الخنجر لم يؤذيها كثيرًا، فكانت تسير وكأن الجرح في كتفها لا يعني لها شيئًا، اقتربت مني وقالت وهي تمسك بعنقي:

- إن لم تحضري لي البطاقة سأقتل ميرال وجميع الأيتام يا مارية..
القرار لك.

تركت عنقي ووقفت تنتظر ردًا مني، أومأت على الفور، فقالت:

- سأكون بانتظارك في المنارة بعد ساعتين من الآن.

رفعت مرح يديها إلى السماء تعبيرًا عن غضبها الشديد، فجعلت الرياح تشتد والمطر يهطل بغزارة فوق رؤوسنا، وراح البرق يضرب الأرض العشبية من أسفلنا وأصوات الرعد ترج المكان من قوتها فوقفنا جميعًا نراقب المشهد بهلع وخوف شديدين، في حين امتلأ المكان بصرخات العديد من الأطفال الذين اتخذوا الميتم ملاذًا آمنًا لهم.

اللحظات الأخيرة

أسرع راكان إلى العربة ومارية وغزل يحاولان اللحاق به، فصعد إلى العربة وأمسك بلجام الأحصنة لتتحرك نحوهما. برقت السماء ورعدت بأصواتٍ مرعبة فاشتدت العاصفة الرعدية كثيرًا فوق راكان وهو يقود العربة. صعدت مارية إلى العربة، ثم أسرع غزل وصعدت بعدها لتبدأ رحلتهم في الغابة المظلمة.

أحاطهم الظلام فالتفت برائته حولهم، ولكنهم التزموا الصمت فلم يكن هناك ما يُقال، فكّرت مارية فيما قالتها مرح عن راكان ولكنها كانت تكبح جماح عقلها ليكف عن التفكير؛ فالوقت والمكان لا يساعدانها على التحدث في هذا الأمر، بينما راكان ظل يفكر في غابة الأحرار وعن اتفاقه معهم، فهم بانتظاره ليخبرهم عن مكان الكنز الثمين أسفل سالتيور، والذي تحدّثت عنه مرح؛ فذلك الكنز به خلاص هذه المدينة كما أخبرته أمه دائمًا.

قطعت غزل الصمت عندما سمعت شيئًا ما، فقالت وهي ترتجف من البرد:

- هل سمعتم تلك الهمسات المرعبة؟

على الرغم من أن مارية لم تحتل النظر في وجه غزل إلا أنها حاولت أن تستمع إلى الأصوات التي تحدّثت عنها، ولكنها لم تسمع سوى أصوات المطر والرعد بالخارج، نظرت إلى الخارج فرأت قطرات المطر تهطل على النافذة الزجاجية بجانبها فقالت:

- لا أسمع سوى أصوات المطر والرعد.

عادت الأصوات المخيفة ترتفع مرة أخرى؛ فتسارعت نبضات قلب غزل وهي تلتفت حولها خوفاً من الأصوات التي كانت تشعر أنها قريبة منهم للغاية. نظرت مارية إليها وقطبت جبينها وهي ترى علامات الرعب ترسم على وجهها، فكادت أن تقول شيئاً ولكنها لاحظت أن هناك شيئاً بالخارج ينظر إليها من خلف النافذة التي بجانب غزل فاتسعت عيناها ولكنها لم تنطق بحرف.

نظرت غزل بجانبها فانطلقت منها صرخة مدوية عندما رأت وجه شخص شاحب في النافذة ينظر إليها، ثم كسر الزجاج وأدخل يديه بالداخل ليمسك بعنق غزل حتى يقتلها. لم تعلم مارية أن راكان يحارب مع الأحصنة التي لم ترغب في السير بسلاسة؛ لأنهم كانوا يرون الأشخاص الشاحبين حولهم، فصهلت بغضب فحاول راكان أن يتحكم فيهم ولكنه فشل فانقلبت العربة رأساً على عقب.

راحت مارية تصرخ وهي بداخل العربة فأسرع راكان إليها بعدما زحف على الأرض ليخرج من أسفل مقعد السائق الأمامي. كانت الأحصنة على الأرض يرفسون الطين بحدواتهم في محاولة بائسة لينتصبوا مرة أخرى، ولكنهم فشلوا.

انحنى راكان وكسر الباب ليساعد مارية على الخروج، ثم حاول إخراج غزل التي كانت رأسها تنزف الدماء ويبدو أنها فاقدة للوعي. ساعدته مارية على سحب جسد غزل إلى الخارج، ثم جلست على الأرض بجانبها لتحاول أن تعيد الوعي إليها ولكن غزل لم تستجب. وضعت الوسطى والسبابة على عنقها والذي من المفترض أن ينبض الدم فيه ولكن مارية شعرت بالهدوء الشديد؛ فنظرت إلى راكان بقلقي

ثم قالت:

- لا يوجد نبض.

ارتفع منسوب المياه كثيرًا من شدة الأمطار؛ لذا خشي راكان أن يضربهما البرق فأمسك بمارية وأبعدها عن العربة ثم تحسس نبض غزل فتأكد أنها فارقت الحياة. غمرت مياه الأمطار جسد غزل فنظرا راكان ومارية إلى جسدها فتأجج الحزن والخوف بداخلهما على حد سواء.

حاول راكان أن يساعد الحصان على النهوض والتحرر من بحيرة المياه، فأسرعت مارية نحوه لتساعده، فنجحا أخيرًا في مساعدة الحصان لكي ينهض من مكانه ثم امتطياه لينطلق نحو وجهته. تشبعت مارية بجزع راكان الذي أمسك اللجام وراح يحركها ليسيير الحصان في الدرب المظلم والمخيف.

شعرت مارية أنهما مراقبان لسبب تجهله، فكانت تتلفت حولها لترى بمساعدة ضوء القمر ما ينظر إليهما؛ فلاحظت أن هناك امرأة عجوزًا تقف على جانب الطريق وهي تبتسم بوجهها الشاحب، ولكنها لم تقل شيئًا لراكان. التزمت الصمت وهي ترى بين الحين والآخر أجساد أشخاص شاحبين أعينهم سوداء يتساقط منها سائل لونه أسود يبتسمون إليها بأسنان متفحمة، تشبعت مارية بشرة راكان كطفل خائف يلتمس الأمان من والده حتى وصلا الاثنان إلى الميناء.

كان الميناء الذي اشتهر بزحامه الدائم مهجورًا من البشر، وكان المدينة بأسرها هاجرت إلى الخارج ليتركوه هكذا. نظرت مارية إلى السفن التي كانت تترنح يمينًا ويسارًا بسبب الأمواج، فشعرت

بالخوف لتخيلها أنها ستكون على متن إحداها بعد قليل، ظل راكان يبحث عن مركب صغير وهو يقف على رصيف الميناء الخشبي حتى رأى واحدًا يختبئ خلف إحدى السفن الكبيرة، فصعد على متن السفينة وساعد مارية في الصعود إليها ثم قفز في البحر ومارية تراقبه بقلق.

سبح راكان إلى القارب، وطلب من مارية أن تقفز في البحر، فلم يكن هناك متسع لهذا القارب أمام رصيف الميناء الخشبي الذي كانت السفن تشغله، شعرت مارية بالدوار وارتجفت من البرد والهلع معًا وهي تنظر إلى الأمواج العائرة للأسفل ولكنها لا تملك خيارًا آخرًا سوى القفز.

عندما قفزت في البحر، شعرت بالبرودة أكثر فكانت المياه تكاد درجة حرارتها تقارب لدرجة حرارة الجليد، ولكن هذا لم يخف مارية بل الظلمة في البحر هي ما جعلتها تشعر بأنها ستموت هلعًا. حاولت أن تصعد إلى السطح ولكن يدين أمسكتا بها فأجبرتاها على الغوص أكثر فأكثر؛ فصرخت وخرجت الفقاعات من فمها بينما تنزل إلى القاع.

شعر راكان بأن هناك شيئًا خاطئًا يحدث بالأسفل عندما استغرقت مارية الكثير من الوقت لتصعد إلى السطح، فالتفت برأسه في جميع الاتجاهات وظل ينادي عليها ولكنه لم يتلقَ أية إجابات، فقفز في المياه ل يبحث عنها ولكن الرؤية صعبة للغاية؛ فصعد إلى السطح مرة أخرى ل يبحث عنها ولكنه لم يجدها. غاص في البحر ثانيةً مستعينًا بمصدر الضوء الوحيد الآتي من السطح من الميناء والذي لم يُمكنه

من رؤية أي شيء، ولكنه شعر بشيء بجانبه فأمسك به ليكتشف أنه جسد مارية ثم صعد معها إلى السطح.

راحت مارية تسعل بقوة، فساعدتها راكان على الصعود على متن القارب فارتمت بداخله وهي تلتقط أنفاسها. أمسك راكان بمجداف القارب لينطلق في البحر حتى وصل إلى جزيرة استقر فوقها الكوخ الذي كان والد مارية يقضي بداخله معظم أيامه. بدا على الجزيرة أنها مهجورة، فلم يكن هناك شيء سوى ذلك الكوخ الخشبي الذي اعتاد والد مارية أن يأتي إليه عندما يشاء. ترجل راكان وساعد مارية على النزول من القارب ثم توجه الاثنان نحو الكوخ ودلفا إليه.

بحثا الاثنان في كل ركن من أركان الكوخ عن البطاقة الأخيرة ولكنهما لم يجدا شيئاً، فركلت مارية إحدى المقاعد بقدمها وهي تصرخ صرخة غضبٍ ويأس، فاقترب منها راكان وقال:

- لماذا فكّرت أن البطاقة هنا في الكوخ ولم تفكرّي أنها من الممكن أن تكون في قصر الحاكم؟

- لأنني لم أر أبداً في قصر الحاكم تلك الأهوال التي رأيثها في قلعة السيد ليرون، وهذا يعني أن البطاقة لم تكن بحوزة والدي في القصر الذي يعجّ بالخدم والحراس، فلم يفكرّ عقلي في مكان آخر سوى هذا الكوخ.

جلس راكان على المقعد ليرتاح من عناء الليلة الكئيبة، بينما ظلت مارية تبحث بعينيها عن البطاقة؛ فلاحظت أن هناك فتحة صغيرة بداخل الجدار المقابل لها. عندما سارت نحو الجدار شعرت مارية أنها حطت على شيء ما أسفل قدميها، فرفعت السجادة لتتفاجأ

بوجود بابٍ سري كذلك الذي في الميتم؛ فتأكدت ظنونها ولا بد أن البطاقة هنا في مكانٍ ما. أسرع نحو الجدار ووضعت يدها في الفتحة، ثم أخرجت منها البطاقة الزرقاء المتوهجة. أمسكت بها مارية وهي تبتسم، ثم نظرت إلى راكان الذي كان يبتسم بدوره، ولكن مارية تذكرت ما قالت له مرح فهي تعرف أنه أيضًا ينتظر هذه البطاقة؛ فأحكمت قبضتها عليها ثم قالت له بجدية:

- افتح ذلك الباب وانزل الدرج، سأكون خلفك.

أدرك راكان أنها لا تعق به؛ فتفهم شعورها وأوماً بالإيجاب، ولكنه قال قبل أن يتجه إلى الباب:

- أريدك أن تفهمي شيئًا، الآن على حدود المدينة تحدث اشتباكات بين سكان غابة الأحرار وجيش الكينمارو، ولكن هذه ليست المعضلة، بل إن المشكلة الحقيقية هي أن سكان غابة الأحرار يريدون هذه البطاقة التي بحوزتك لاستخدامها في فتح البلورة، وبمجرد ما إن تنجح مرح في فتحها، سيخرج من تلك البلورة سلاح يُقال أنه الأقوى على الإطلاق، وإن حدث هذا فلسوف تقضي مرح علينا جميعًا.

- لماذا تخبرني بهذه الأشياء الآن؟

- لأن مرح ستضغط عليك حتى تسلمها هذه البطاقة، أتوسل إليك ألا تسلمها لها لأنها لا ترغب سوى في موت جميع سكان سالتيوراً ظالمين أو مظلومين!

شعرت مارية أنها لا ينبغي أن تصدقه؛ فربما يخبرها بهذه الأمور

حتى يسلم البطاقة لسكان غابة الأحرار، فسألته بوجه عابس:

- وكيف ننقذ ميرال بالضبط؟

- سنحاول أن ننقذها، ولكن فكري في الأمر، إن كانت حياة ميرال وحدها في كفة وجميع الأبرياء ممن يعيشون في سالتيور في الكفة الأخرى، فأى كفة ستختارين؟

تفاجأت مارية بما يقول، ولكنها التزمت الصمت، فقال راكان:

- حسنًا، يمكننا أن نفكر في حلّ لإنقاذ ميرال دون حصول مرح على البطاقة، ولكنني أريدك ألا تجعلى مرح تؤثر في قراراتك، حتى وإن كان المقابل هو موتى، فلا تترددى أبدًا في قتلى مقابل إنقاذ المدينة بأسرها.

لم ترد عليه مارية؛ فهي تشعر بالحيرة الشديدة، فإن عقلها يصرخ ليحثها على عدم تصديقه، بينما قلبها يهمس في ظلمات روحها ويخبرها أنه يقول الحقيقة. توجه راكان إلى الباب ونزل بالفعل فتبعته مارية ليذهبها إلى المنارة عن طريق شبكة الأنفاق.

عندما عادت مرح إلى البهو في قلعة تيلارين، رأت السيد ليرون وهو يحاول أن ينهض من على الأرض، ولكنها رفعت يديها نحوه ليتم تقييده بسلاسل ظهرت من العدم ثم أجبرته على الجلوس على إحدى المقاعد واقتربت منه وهي تبتسم بنشوة.

كان آدم مستلقيًا على الأرض فاقداً للوعي، فوقفت مرح وتقدّمت من السيد ليرون بعدما أغلقت كل الأبواب وأمرت الخدم جميعًا

بالرحيل. حاول أن ينظر الكينمارو الأول بعينينه الزائغتين إلى مرح وهو يجلس أمامها مندهشًا، بينما هي تتلذذ بلحظة الانتقام التي طرقت بابها أخيرًا.

قال بذهول:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

أمرته أن يتحدث في الهاتف مع السيد يوسف ليأتي الآن عبر الأنفاق إلى القلعة؛ فأحضرت الهاتف له ليفعل ما طلبته منه، وعندما أتى يوسف كانت تنتظره خلف الباب، ولأنه ليس من الملائكة، فكان الانقضاض عليه سهلًا للغاية بالنسبة إليها؛ قيدت يوسف بالطريقة نفسها كما فعلت مع ليرون، ثم تقدّمت منهما وهي تبتسم:

- يُقال أن مذاق الانتقام عذبٌ وكأنك لم تذق من قبله ولن تذق من بعده طعامًا يضاهي حلاوته!

أنعشت نظرات الهلع في عيني الرجلين قلبها الميت، فراحت تفكر "يا لجمال الانتقام!" انبثق خنجرٌ لامع من يدها؛ فطعنت جانب ليرون الأيمن مرتين فتساقطت قطرات الدم من فمه ومن ذلك الجرح الغائر الذي أحدثه خنجرها في بطنه، ثم غرست خنجرها في يوسف الذي راح يصرخ كالمجانين من شدة الألم ومرح تحفر اسمها في فخذه الأيمن.

شعرت بالغبطة والحماس فكاد قلبها يتوقّف من فرط السعادة العارمة، وهي ترى الرجلين يجلسان بلا حولٍ منهما ولا قوة ذليّين مرتعبين هكذا رهن إشارتها؛ فهي الآن جلادهما، وهي من ستقبض

روحهما. لاح شبح ابتسامة على ثغرها وهي تنظر إلى الكينمارو الأول قبل أن تقول:

- أتدري يا سيد ليرون، لقد فعلت معروفاً لي عندما أخبرتني أنني يمكنني الاستعانة بالملاك الأعلى؛ لأتعلم العلوم المحرمة ولأحظى بانتقامي أخيراً، وإنني أعتبر نفسي من المحظوظين الذين واثتهم الفرصة لينتقموا بينما هم على قيد الحياة؛ فهناك دائماً من يقول أن الإله سيقترض للمظلومين في الآخرة، أليس كذلك؟ ولكنني لم أتمكن من الانتظار؛ كان عليّ أن أنادي الملاك الأعلى ليحقق لي مرادي، وها أنا ذا، أقف أمامك ولكنني سأظهر لك الشفقة التي لم تظهرها لأحد من قبل.

غرست الخنجر في بطنه؛ فازدادت نبضات قلبها وعلت أصواتها فتكاد تكون مسموعةً لشخص يقف بعيداً عنه بأمّتار! خالجه شعورٌ غريب للغاية لم تشعر بمثله من قبل؛ وكأن نيران الضحك تأججت بداخلها؛ فراحت تقهقه بصوتٍ عالٍ حتى أدمعت عيناها وهي تنظر لعجز الكينمارو الأول المتزايد مع كل قطرة دمٍ تسقط على الأرض، وضعت يدها على فمها لتتوقّف عن الضحك الهستيري الذي سكن روحها وكأنه شيطانٌ أتى من الجحيم ويأبى الخروج.

قال السيد ليرون وهو يلهث من الألم:

- لقد أعطيتك فرصة ذهبية يا مرح، لماذا تحاولين تدمير كل شيء؟

- أخبرني أيها الكينمارو الأول، هل كنت تعلم أن سيدك سيساعدني في الانتقام منك؟

خرجت الكلمات منه متقطعةً ضعيفة وهو يقول:

- لقد أخبرني أنه يريدك أن تحكمي العالم معنا، ولكنني لم أرك طوال العام الماضي فظننت أنه فقد الأمل فيك ولكنني مخطئ على ما يبدو.

ضحكت مرح وقالت بحماس:

- إذن، لقد سخر منكم جميعًا واستخدمكم في إثارة غضبي لأصبح من الملائكة حتى أنتقم منكم في نهاية المطاف. يا للمتعة يا رجل! إن الملاك الأعلى يعشق الألاعيب حقًا.

- أتوسل إليك يا مرح، سأفعل أي شيء ترغبين فيه.

قالها السيد ليرون متوسلاً إليها وهو يبكي، ولكنها اكتفت بالنظر إلى ضعفه وهي تشعر بسعادة عارمة، بينما كان السيد يوسف يراقب المشهد بقلب يرتجف من الرعب، ولكن مرح أمسكت بالخنجر واقتربت من أذن السيد ليرون وقالت وهي تهمس:

- قل مرحبًا للموت أيها الكينمارو الأخير!

وعلى حين غرة منه، غرست الخنجر في قلبه لتتوقف أنفاس السيد ليرون على الفور فأيقنت مرح أنه فارق الحياة. وقفت تشاهد جسده الساكن ونيران النشوة تستعر بداخلها، تطلعت في السيد يوسف فخرج صوتها ممزوجًا بنبرة الضحك التي أبت أن تفارقها:

- أعتذر منك؛ فهذا لا يليق بي ولا بك كما تعلم، ولكن الشعور الذي تملكني الآن لا يوصف. صدقني، الأمر ليس متعلقًا بك بقدر ما هو

متعلق بتلك اللحظات التي استحوذ اليأس فيها على قلبي وعقلي، وأقنعتني شياطيني أن الظلم سيحتل حياتي إلى الأبد وها نحن ذا، انظر إلينا وانظر حولك ماذا ترى؟ أتوسل إليك أن تفكر بعقلي وترى بقلبي ما أراه الآن، فلك أن تتخيل شخصًا مثلي عانى من الظلم، والذل، والاستبداد، والقهر لسنة كاملة يقف الآن أمام من ظلمه وأظلم حياته إلى الأبد يتلذذ برؤيته بين برائن الموت والضعف وهو يلتقط أنفاسه الأخيرة بصعوبة، بل وينتظر مني تقرير مصيره. يا إلهي! هل أماتني الإله وأحياني في جنته أخيرًا كما تمنيت طوال حياتي؟ هل ما أعيشه الآن خلًا أم حقيقة؟ آه، لقد خطرت لي فكرة عبقرية؛ لحظة سأحاول أن أجرح نفسي الآن حتى أتأكد من أنني لم أمت.

تأملت الخنجر في يدها وهو ينزف كالرجل المقيد أمامها، والذي يتأوه من فرط الألم فتردد صوت المعاناة في المكان، رفعت أنظارها إليه لتحملق في وجهه وكأنها تراه لأول مرة لتراقب نظرات الترقب في عينيه، وعلى غرة منه أدخلت الخنجر في ساقه اليسرى وهي تغرس النصل بغلٍ وحقدٍ والدموع تسيل من عينيه سيولًا لا تتوقف، فتعانق دماءه السائلة على ساقه في مشهدٍ ملحمي وكأن الظلم والعدل يلتحمان معًا ليصبحا كيانًا واحدًا، كلما تعالت صرخاته ازداد الجرح في قلبها وازدادت دموعها المنهمرة من مقلتيها؛ فهي تشعر بالألم لما تحوّلت إليه؛ لقد تحوّلت إلى وحشٍ لا يرحم بسبب السيد ليرون والسيد يوسف، بل بسبب سالتيوراً نفسها.

غرس الخنجر في ساقه لعمقٍ أكبر وهو يبكي دما من الألم والهوان، كانت دموعها المتساقطة تدخل فمها فعندما تذوقت طعمها

المالح، قالت:

- يا للذة الدموع في فم مكلوم قُطع لسانه، ولم ينطق إلا بما أمر به، فلا وجود للعدل في عالم امتلأ عن آخره بالطغيان!

كان السيد يوسف يبكي متوسلاً إليها بدموعه أن ترحمه، ولكنها قالت:

- أعتذر منك سامحني؛ فأنا مرغمة على قتلك وتعذيبك هكذا، إنني أطهرك من خطاياك التي ستطاردك إلى الآخرة. أتوسل إليك ألا تحزن وتنظر لي هكذا وكأنني ظلمتك! لماذا لا تتني على ما أفعل؟

تغيرت نبرة صوتها، فأصبحت غاضبةً فارتفع صوتها وهي تصرخ في وجهه:

- لماذا تبكي يا هذا؟ أنا أخلصك من عبءٍ عظيم يعقل كاهلك ولا بد أن تشكرني على ما أفعله، فمن الآن فصاعدًا لن ترتكب جريمةً أخرى في حق نفسك! نعم، لن تظلم أحدًا بعد الآن ولن يبكي أحدٌ بسببك ولن تُدمي القلوب بخناجر بطشك بعد الآن، هل فهمت؟

صاحت بغضبٍ وهي تحدّثه، ولكن قلبها لان ثانيةً وهي تراه يتألم من الجروح التي أصابته من خنجرها، فهبطت الدموع ثانيةً وهي تربّت على كتفيه وتتحسس وجهه بحنانٍ ليس له مثيل، ثم اقتربت من أذنه وقالت له بوهن:

- سيمر كل شيءٍ لا تحزن، فلم يتبق سوى القليل من دمالك وبعدها ستعرف روحك إلى أبواب السماء؛ لتقابل الخالق بروح بريئة طاهرة وعندها ستنظر إلّى من فوق وتبتسم؛ لأنني غسّلت روحك من كل

الأوساخ والشوائب القذرة التي علقت بها طوال حياتها!

تأملت وجهه المتألم وأصغت بتركيزٍ إلى تأوهات القاتلة؛ فاستحوذت نوبات الضحك الهستيرية على كيائها ثانيةً، فكانت تضحك بأعلى صوتٍ استطاعت حنجرتها أن تخرجه وهي تنظر إلى سكرات موته الصعبة والبطيئة التي كانت تأبى أن تتم بسهولة، وكأنها تخشى المصير الذي ينتظرها عند خالقها.

اقترب خنجرها من رقبتة فأحدث جرحاً سطحياً فيها، ولكن الدماء خرجت منها فتعالت صرخاته من الألم بينما يبتسم العدل في مشهد ملحمي رآته مرح في أحلامها مراً، ولكنه صار الآن حقيقةً تستطيع أن تستنشق عبيرها بصدرٍ امتلأ عن آخره بأفة الظلم.

اقتربت من أذنه ثانيةً، ثم همست والدموع تنتصر للمرة الألف:

- هل تذكر ما حدث لي في الماضي؟ لقد كان النسيان عدوي الأبدي ولكنني لم ولن أستسلم له أبداً، أقسم لك أن كل من تسبب فيما حدث لي ومن سبقني لن يفلت من عقابي، هل فهمت؟ هل تسمعني؟ سألته السؤال الأخير بغضبٍ شديد وقد ارتفع صوتها كثيراً إلى تلك الدرجة التي جعلتها تخاف من نفسها! وقفت خلفه ثم همست في أذنه:

- لقد طهرتك الدماء من خطاياك يا سيد يوسف، عسى الإله أن يتقبلك في جنته الخالدة.

وقفت أمامه ثانيةً لتراقب نظرات الحيرة والحسرة في عينيه وهو يحملق بوجهها غير مصدقٍ لما يراه، فها هي الآن الفتاة البريئة

الساذجة تتحوّل إلى قاتل قاسي القلب لا يشفق على ضحاياه ولا يرحم، وتقف أمام الرجلين الأكثر نفوذًا وقوةً في سالتيوراً بأسرها ثمسك بيدها خنجرًا لامعًا حادًا للغاية. اندفعت نحو قلب يوسف وهي تضحك بقسوةٍ ففارق الرجل الحياة على الفور، فتحت مرح الباب الأسود وأغلقت خلفها ثم سارت نحو المنارة لشكمل ما بدأته وهي تبتسم، فإن ما ترغب به لم يكن قتل من آذوها فقط، بل هناك ما ترغب فيه يستقر في البلورة العملاقة، وبه سيتحقق الخلاص الأبدي من وجهة نظرها.

شاهد الملاك الأعلى كل ما يحدث وهو يجلس على عرشه والأمواج تضرب على يمينه ويساره ومن أمامه وخلفه، فكل شيء يحدث في مدينة سالتيوراً يراه الملاك الأعلى ويبتسم لأجله؛ فهو الآن يرى مارية وهي تمسك بالبطاقة الأخيرة، ويتقدّم منها راكان الذي فتح الباب المؤدي إلى البلورة العملاقة، ليرى مرح وهي تنتظر بجانبها وعلى وجهها ابتسامة الجنون التي باتت لا تفارق وجهها.

قالت مرح ليتردد صدى صوتها في المكان:

- وأخيرًا، الخلاص الأبدي.

قال راكان:

- على حدود المدينة يتجمع سكان غابة الأحرار محاولين الدخول إلى هنا، وبداخل سالتيوراً اشتباكات بسبب اللعنة التي ألقيتها علينا؛ فالمرض الذي ظنناه مرضًا أصاب جميع سكان المدينة بأسرها، ومن

بالداخل يرغب في الخروج منها بأي شكل من الأشكال؛ ولهذا السبب أتوسل إليك أن تتراجعي عما تفكرين فيه وتخبرينا بمكان ميرال، وألا تستخدمى هذه البطاقة في العثور على السلاح بداخل البلورة.

- وأين يذهب انتقامي يا سيد راكان؟

سألته مرح بغضبٍ ودموعها تنساب على وجنتيها، فأجابها راكان بعصبية:

- هل بعد كل ما فعلته تبحثين عن انتقامك؟ ألم تكتفي بعد؟

صاحت فيه بوجه مكفهر:

- لا، لم ولن أكتف! لقد قتلوا أمي وتركوها للغربان تنهش في لحمها لأيام دون رحمة! ولم يكتفوا بل كانوا السبب في موت شقيقتي من الحسرة والألم على فراق أمها، ولكنهم لم يكتفوا أيضًا، بل أخذوا لانا ابنة شقيقتي لتعمل في إحدى المنازل بسالتيورا المظلمة، هل تعرف ماذا عملت لانا هناك؟ اغتصبها رجال سالتيورا في كل ليلة ألف مرة بينما المسكينة تصرخ وتنادي على أمها الميتة وجدتها المقتولة، ولكنهم لم يكتفوا بل ظلوا يفعلوا هذا حتى أخبرني الكينمارو الأول أنها ماتت وأعظم ذنوبها أنها كانت فردًا من أفراد عائلتي!

قال راكان:

- إنهم يكذبون، لم تمت لانا يا مرح.

لم تصدقه مرح، فقالت لها مارية برفق:

- أشعربك يا مرح، إن ما حدث لك كان عظيمًا حقًا، وإن كنت

مكانك لربما تصرفث مثلك، ولكن بإمكانني مساعدتك في البحث عن لانا ونتأكد إن كانت على قيد الحياة فيمكننا جميعًا أن نُنقذها من ذلك المكان البغيض، ولكن أن تنهي حياة الأبرياء في سالتيوراهم لم يفعلوا شيئًا لك، فهذا ليس من العدل يا مرح، وأنت في هذه اللحظة ستكونين مثل من ظلموك بل أسوأ منهم، وإن ظننت أنك ستشعرين بالسلام النفسي فأنت مخطئة؛ لأن الانتقام لن يجلب لك سوى الظلام الحالك في قلبك، ومهما حاولت أن يعود النور إلى قلبك ثانية فلن يحدث؛ لأن الظلام سوف يستوطن قلبك حتى قيام الساعة.

صاحت مرح فيها بغضب:

- إياك أن تقارني نفسك بي، أنت ابنة الحاكم المدللة، عشت حياتك بأسرها وأنت تسبحين في النعيم بينما أنا والكثير من السكان الأصليين لطالما عانينا من الجوع، والفقر، والذل، والظلم، والقهر، هل كنت تعيشين في منازل قديمة أثاثها مهترئ مثلنا؟ هل تم طردك من منزلك الذي لم تعرفي موطنًا غيره من قبل؟ هل قتلوا أمك بوحشية كما فعلوا بأمي المسكينة؟ هل ذهبت قط إلى سالتيوراه المظلمة ورأيت الأهوال التي رأيثها هناك؟ من الغريب حقًا أن أنصت إلى شخص عاش طوال حياته غارقًا في ملذات الحياة ورفاهيتها.

تساقطت الدموع من مقلتي الفتاتين، فتقدّمت مرح من مارية وأكملت كلامها:

- كيف تجرؤين على مقارنة حياتك بحياتي وأنا من رأت القهر واحتضنته، بل أنا من اتخذت من الذل موطنًا لي ولم أعرف سواه؟

عندما راقبئك طوال الأيام الماضية شعرت أنني ربما أكون مخطئة في حقك، ولكنني تأكدت الآن أنني لست مخطئة أبدًا، فأنت تستحقين ما سيحدث لك. والآن، أين هي البطاقة الأخيرة؟

تطلعت مارية في وجهها ودموعها تتساقط بحرقّة على ما آلت إليه الأمور، ولكنها سلمتها البطاقة بينما صاح راكان:

- مارية، ماذا تفعلين بحق الإله؟

أمسكت مرح بالبطاقة الأخيرة وهي تبتسم بانتصارٍ، ثم نظرت إلى راكان ودفعته إلى الخلف وهي تقول:

- ليس لأن جزءًا منك من السكان الأصليين يا راكان فتظن أنني سأعفو عنك، إن خططي سثقق الآن ومن يقف في طريقي لا يلوم سوى نفسه يا صديقي.

شاهدها راكان وهي تتوجه إلى البلورة؛ فوضعت البطاقة عليها ليحدث شيئًا غريبًا بعدها؛ دارت البلورة حول محورها ثم سطعت بنورٍ عظيم جعلهم جميعًا يغلقون أعينهم، ثم سمعوا أصواتًا تشبه الأصوات الصادرة عن كسر الزجاج، فنظروا جميعًا إلى البلورة وشاهدوها وهي تنكسر ليخرج منها ثلاثة أجسامٍ حجرية تشبه الطيور فلها جناحان وذيل، ولكنها أكبر من الطيور بكثير، ولمعت أعينها بالضوء الأزرق، ولها فمٌ عندما فتحتة إحداها شاهدوا جميعًا الضوء الأبيض المائل إلى الزرقة وهو يتوهج من جوفها.

أسرعت مارية نحو راكان واختبأت خلفه، بينما وقفت مرح أمام إحدى الكائنات العجيبة وهي تقول أشياء غير مفهومة بالنسبة

لمارية وراكان، فسمحت لها إحدى الكائنات العجيبة بأن تمتطيها
مرح وكأنها حصانٌ ما! فرفعت مرح يديها في الهواء لشحضر لجام
غرسته في الكائن الغريب وأمرته بالانطلاق إلى الأعلى، فطار بالفعل
تبعه الكائنان الآخران. خرجت مرح من المنارة بعدما حطمت المرايا،
ثم طارت بالكائنات فوق مدينة سالتيور.

خارت قوى مارية فجلست على الأرض وهي تبكي؛ لأنها أدركت
أنها أخطأت فيما فعلته وأن هلاك هذه المدينة سيكون بسبب ما
فعلته منذ قليل، ولكن راكان قال لها:

- مارية، هذا ليس وقت الاستسلام، يجب أن نحذر الجميع في
المدينة، فإن تلك الكائنات ستدمر كل من يعيش فيها.

- لقد رحلت مرح ولم نخبرنا بمكان ميرال.

قالت مارية وهي تبكي بحرقة، فساعدتها راكان على النهوض
وقال:

- سنعثر عليها، ولكن كما أخبرتك من قبل، هناك العديد من الأبرياء
في المدينة سوف يلقون حتفهم بعد قليل، على الأقل ميرال تختبئ
في مكان آمن الآن بعيدًا عن مرح وبطشها، ولكن الأبرياء في المدينة
لا مكان لهم من انتقامها.

اقتنعت مارية بكلامه أخيرًا فعادت معه إلى القلعة ليتفاجأ الجميع
بالمشهد المرعب لجمّة رجلٍ لا تعرفه مارية ولكن راكان يعرفه جيدًا،
كان السيد يوسف يجلس على المقعد وهو مقيد ودماؤه تتساقط
على الأرض في مشهدٍ مرعب، بينما وقف آدم بجانب جمّة والده وهو

يبكي على فراقه.

اقتربت مارية من آدم وسأله متوسلةً إليّاه:

- آدم، أتوسل إليك أن تساعدنا، فإن تلك المخبولة الآن تطير فوق المدينة لتدمر كل من يعترض طريقها.

لم يرد عليها؛ فهو غارق في أحزانه، ففراق والده لم يكن هينًا عليه فعادت مارية تتوسل إليه مرةً أخرى قائلةً:

- إنها تحتجز ميرال يا آدم، إن كنتَ ترغب ألا تذهب دماء والدك شدى فأنا أتوسل إليك أن تخبرني كيف نوقف تلك المجنونة قبل فوات الأوان.

بكى آدم وهو ينظر إلى والده ورفيق دربه وبحيرة الدماء تحيط به، دارت القلعة به بسبب الدماء النازفة منه فارتدى على الأرض وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، جلست مارية بجانبه وأمسكت بيده وهي تترجاه ليتحدث، فقال بصوتٍ مبحوح واهن:

- اذهبي إلى سالتيور المظلمة.. عن طريق شبكة الأنفاق، وهناك ابحتي عن الطفلة لانا، احضري الطفلة إلى مرح، ربما تعود إلى صوابها.

أنهى كلامه وأغمض عينيه لتصعد روحه إلى السماء، فسقطت الدموع من مقلتي مارية، ولكنها استجمعت قوتها ونهضت لتقول لراكان:

- اذهب إلى حدود المدينة لتقنع قومك أن يحاربوا معنا ضد تلك المخبولة، أما أنا فسأذهب إلى ذلك المكان الذي تحدث عنه لأحضر

تطلع في وجهها بقلبي فبادلته النظرات نفسها، ثم تركها دون أن ينطق بكلمة متجهاً إلى العربات التي سيصعد على متنها متجهاً إلى حدود المدينة، بينما توجهت مارية إلى الباب المؤدي إلى الأنفاق والذي كان مفتوحاً على مصراعيه لتبحث عن لانا في سالتيور المظلمة.

طارت مرح على ظهر الكائن الحجري حتى حدود سالتيور المشتعلة، فجعلته ينفث الضوء نحو الجدار المرتفع والمحيط بالمدينة فدمره لتطير الأحجار في كل مكان، كانت الفتحة في الجدار الفاصل بين غابة الأحرار ومدينة سالتيور كافية لدخول السكان الأصليين إلى الداخل، وبمجرد ما إن لمست أقدامهم تراب الوطن مرة أخرى انطلقت الصرخات المدوية فرحين بما حدث؛ ظناً منهم أن راكان هو من فعل هذا فهتفوا باسمه وهم يتقدمون إلى الأمام، ولكن جيش الكينمارو تصدى لهم فراح الجنود يطلقون عليهم الرصاص غير عابئين إلى أين يطلقون فكانت طلقاتهم تصيب السكان الأصليين بعشوائية ووحشية لا مثيل لها.

وقفت مرح على جزء من الجدار المتبقي والذي لم يتم هدمه وظلت تراقب ما يحدث وهي تبتسم، ثم أمرت الكائنات الثلاث بإطلاق نيرانهم نحو الجميع ففعلوا على الفور. تعالت صرخات الكينمارو والسكان الأصليين فإن الكائنات لم تفرق بين أحد؛ فالكل سواء أمامها، إنها ترغب في حرقهم جميعاً وهذه هي مهمتها

المقدسة، فوقفت مرح تراقب النيران المشتعلة في الأجساد على الرغم من أن الكثير منها من قومها!

تستطيع مرح أن تنظر إلى البحر فتري الملاك الأعلى وهو يصفق بهدوء لما يحدث، بينما يجلس على عرشه مستمتعًا بما يراه؛ لقد اختار مرح من بين الكثيرين لهذه المهمة فالمفارقة تحدث عندما تبتلع غياهب الظلم شخصًا بريئًا مثلها وتحوِّله إلى وحش لا يمكن السيطرة على غضبه وانتقامه.

أقسم الملاك الأعلى على نفسه أن يكون سببًا في فتنة البشر وهلاكهم؛ فهو والملائكة الآخرون يهبطون بين الحين والآخر من كونهم البعيد إلى واحدٍ من الأكوان الأخرى لينشروا فيه الفساد والفاحشة خلف قناع العلم المحرم وتحقيق الأمنيات بعيدة المنال؛ فيلهث أتباعهم خلف القوة المطلقة والعراء الفاحش والنفوذ والسلطة، والمقابل دائمًا هو الشر المطلق مثلما حدث في سالتيورا المظلمة، وعندما يتسبب من يطلقون على أنفسهم اسم الملائكة في هلاك الكون المنكوب يغادرونه إلى كونٍ آخر وهكذا دواليك.

لا يعرف أحد حقيقة الملائكة أو من أين أتوا بالتحديد حتى مرح لا تعرف عنهم شيئًا. نظرت إلى عرش سيدها الذي آمنت به في سبيل الظفر بانتقامها الغاشم، ولم تكتثر لأي شيءٍ آخر في سبيل هذا، كانت خطوة مرح التالية هي الذهاب إلى الجبل الأعلى حتى توقظ البركان الخامد بداخله لتنهى مدينة سالتيورا وهي على أهبة الاستعداد لمعانقة الموت بوجهٍ مبتسم.

وقف راكان أسفل الجدار وهو يحمل سلاحه الناري مصوبًا إيَّاه

على مرح التي كانت تنظر إلى عرش سيدها بوجه مكفهر، انطلقت الطلقات نحوها فأصابت كتفها لتسقط من أعلى الجدار ولكن الكائن طار أسفلها حتى لا تصطدم بالأرض وتموت، هبط الكائن على الأرض فألقى بجسدها من فوقه وتقدم نحو راكان الذي تفاجأ بقدومه فهرب من المكان نحو العربة، ولكن الكائن سار خلفه وهو على استعداد ليفتح فمه وينفث نيرانه الحارقة. نهضت مرح والغضب يتأجج بداخلها، فسارت نحو راكان وأخفت السلاح الذي كان في يده ثم قالت وهي تقترب منه، بينما الدماء تنزف من كتفها:

- لماذا تصرّ على أن أقتلك يا راكان؟

أجابها:

- لأن هذه المدينة تستحق فرصة ثانية.

أغضبتها كلماته، فصاحت فيه والدموع تنهمر منها:

- فرصة ثانية؟ هذه المدينة لا تستحق سوى أن تكون أسفل جبال من الحمم البركانية، هذه المدينة لا تستحق أن تكون بالأعلى، فمكانها في القاع.. في الجحيم.

قال راكان بغضب:

- أنت مخطئة؛ هناك أبرياء لم يفعلوا شيئًا خاطئًا تجاه أي شخص بداخل أو خارج المدينة، وأولئك يستحقون الفرصة الثانية التي تبخلين بها عليهم. إن كنتِ ترغبين في تدمير كل شيء فلا فارق بينك وبين الكينمارو الأول والملاك الأعلى، والسيد يوسف الذي قتل والدتك، أنتِ مثلهم يا مرح، إن كانت أمكِ على قيد الحياة لشعرت

بالخزي منك.

أصابته كلماته بالغضب الشديد، فأمسكت بخنجرٍ ظهر في يدها وأسرعت نحوه بسرعةٍ شديدة حتى غرسته في بطنه، وهمست في أذنه وهي تحتضنه:

- لن أحترق وحدي يا راكان، سوف تحترقون معي.

سحبت الخنجر من بطنه فسقط راكان على الأرض وهو ينزف الدماء، بينما استدارت مرح وصعدت على ظهر الكائن الحجري وهي تأمره لينفث نيرانه حتى يحترق جيش الكينمارو، فكان الجنود يصرخون هلعًا وهم يحترقون على قيد الحياة. استغل السكان الأصليون الفرصة ليتوغلوا بداخل المدينة مبتعدين عن الحدود، فتوجه العديد منهم إلى منازل الكينمارو ليقتلوا كل من فيها بوحشية دون التفرقة بين رجلٍ أو امرأة، عجوزٍ أو طفل؛ فالكل سيان في نظرهم، يستحقون القتل، والقتل وحده فقط!

كانت الدماء تسيل في كل حدبٍ وصوبٍ بداخل المدينة؛ فالسكان الأصليون أمسكوا بأسلحتهم البدائية واشتبكوا مع جيش الكينمارو دون رحمة، ولكن الكينمارو كانوا أقوى وعلى استعدادٍ أكثر منهم، فكانت أعداد السكان الأصليين تتناقص كلما طالت المعركة، فكان المشهد مقبضًا مفرغًا وكأنه يوم البعث، وكان الملاك الأعلى يشاهد وهو يبتسم بوحشية فإن كان أحدٌ يستطيع أن ينظر إليه سيرى ملامح وجهه الحقيقية؛ فهو لم يكن وسيماً كما رآته مرح من قبل، بل ظهرت حقيقته البشعة، كان وجهه قبيحًا دميماً لا يحتمل أحد النظر فيه. لقد فعلت مرح ما تمناه الملاك الأعلى، فإن زمن هذه المدينة

قارب على الانتهاء، وهذا يعني أن مهمته تمت بنجاح يستحق عليه
العناء.

استغرق الأمر من مارية الكثير من الوقت حتى تمكنت أخيرًا
من الوصول إلى دار الشفاء، التي تخفي بداخلها خزانة تؤدي إلى
سالتيورا المظلمة، وعندما نزلت الدرج وركضت نحو القصر الأسود،
ثم صعدت إلى الغرفة رقم اثنا عشر، رأت نفسها تقف في قاعة كبيرة
تشبه المسرح، وهناك على المنصة الخشبية كانت العديد من جثث
السكان الأصليين والقليل من جثث الكينمارو.

كان هناك رجل يصارع سكرات الموت على إحدى المقاعد،
فأسرعت إليه مارية وسألته:

- أين لانا؟

لم يرد عليها الرجل؛ فهو يرى ذنوبه تتجسد أمامه لتنتقم منه
بسبب لعنة التطهير، ولكن مارية ضغطت عليه أكثر وهي تسأله عن
لانا فقال أخيرًا:

- لا يوجد أحد هنا يدعى لانا.

فكرت مارية في المكان الذي من الممكن أن تتواجد فيه الطفلة
الصغيرة، فتذكرت ما قاله راكان عن ذهاب أطفال سكان غابة الأحرار
والأطفال الأيتام من السكان الأصليين إلى الميتم؛ فأسرعت نحو
الباب الأسود الذي كان مفتوحًا على مصراعيه فدلقت إليه لتغرق في
ظلام الأنفاق الحالك. خرجت من الأنفاق بعد عناء لتجد نفسها تقف

في تلك الغرفة التي تحدّثت فيها مع راكان منذ ساعات؛ فبحثت عن السيدة ديلارا وعندما رأتها تبكي بحرقة على ابنتها المفقودة انهمرت الدموع من مقلتيها وهي تتذكّر الطفلة المسكينة وهي تنزف الدماء، ولكنها لن تخبرها بما تعرفه. أسرع نحوها وسألتها عن لانا، فأخبرتها السيدة ديلارا بمكانها، فتركها مارية بقلب يدمي من الحزن عليها وذهبت إلى ساحة القلعة فشاهدت جميع أطفال الميتم وهم يجلسون على الأرض بأمر من إحدى المعلمات. طلبت مارية من زميلتها أن تحضر لها الفتاة ففعلت، قالت لها وهي تحاول أن تبتسم:

- عزيزتي، هل أنت لانا ابنة أخت مرح؟

نظرت إليها الطفلة واتسعت عيناها عندما سمعت اسم خالتها؛ فأومأت فقالت مارية لها برفق:

- إنها تريد أن تراك الآن يا عزيزتي، ولكنها مصابة بالمرض المنتشر، وإن من سوف يعيد صوابها إليها هو أنت، هل من الممكن أن تأتي معي الآن؟

ترددت الطفلة للحظات، ثم أومأت وهي تضع إبهامها في فمها، فأمسكت بها مارية وأسهرت نحو العربات وصعدت إليها وهي تمسك باللجام حتى تذهب إلى حدود المدينة.

تألم راكان من الجرح الذي راح ينزف بغزارة فشعر أن نهايته تقترب كثيرًا، انقضت مرح على جيش الكينمارو بشراسة فأحرقت الجنود وهي تضحك بصوت راح صداه يتردد في حدود المدينة

عندما وصلت مارية إلى الحدود، كاد قلبها أن يتوقف عندما رأت الجنود والنيران تشتعل فيهم، ترجلت وفتحت باب العربة لتأخذ الطفلة التي اتسعت عيناها دهشةً من هول المشهد، فأمسكت مارية بيدها وراحت تبحث عن مرح وراكان، ولكنها تجمدت مكانها عندما رأت راكان على الأرض في ركنٍ بعيدٍ يختبئ خلف إحدى العربات وهو ينزف الدماء، فتركت يد الفتاة وأسهرت إليه، ثم جلست بجانبه وقلبها ينزف قهراً وحزناً.

بكت كما لم تبك من قبل وصرخت وهي ترى حبيبها يلفظ أنفاسه الأخيرة، فاحتضنته وقالت وهي تنتحب ودموعها تكاد تُغرق المدينة بأسرها:

- راكان، أنا آسفة لأنني لم أثق بك.

لمست يده الباردة وجنتها وعيناه تفيض بالدمع، حاول أن يبتسم وهو يقول:

- أحبك يا مارية ولم أحب أحداً سواك.

انتحبت مارية وهي تسمع كلماته؛ فعقلها لا يستوعب ما يحدث في هذه اللحظة، لم يعترف لها راكان بحبه الذي اشتعل في قلبه منذ أن رآها في ذلك الثُّل لأول مرة، فدفن حبه لها في ظلمة قلبه الذي لم يعرف للحب معنى من قبل، فهو الذي تربى على يد إحدى النساء اللاتي كرهن الكينمارو، على الرغم من حبها لزوجها وهو واحدٌ منهم، إلا أنها لم تشأ أن يرتكب ابنها الوحيد الخطأ نفسه فيضعف قلبه

ويختار امرأة من الكينمارو، فأجبرته على أن يكره أسلاف والده، وأن يقترب منهم حتى تصل هي وقومها إلى مبتغاهم ويستعيدوا الوطن المسلوب منهم، وها هو الآن يُحتضر في حضن الفتاة التي أحبها كثيرًا بل عشقها، ولكنه يلفظ أنفاسه الأخيرة بين أنفاسها المضطربة.

- هل تتذكرين ذلك اليوم الذي رأيثك فيه للمرة الأولى؟ لقد كذبت عليك لأنني وعدت أُمي ألا أعشق امرأة من الكينمارو كما فعلت هي وأحبت والدي، ولكنني عندما رأيثك في ذلك اليوم نبض قلبي بالعشق، ولهذا السبب كنت أعاملُك بفضاظة طوال الوقت؛ فالصراع بداخلي كان عظيمًا، ولكنني لا أكرث الآن فأنا أحتضري مارية، وأنا أيضًا أحبك كثيرًا.

بكت مارية وانتحبت وهي تمسح على شعره بيدها المرتجفة، فأردف راكان بصوت واهن:

- اذهبي إلى نُزل العنقاء؛ فأُمي تملك ذلك المكان، واطلبي منها أن تأتي إلى هنا لتأمر السكان الأصليين بالتراجع، أخبريها أن هذه هي رغبة الصقر، وسوف تصدق كلامي.

- أحبك يا راكان، ولن أتمكن من العيش بدونك.

قالتها وهي تبكي وقلبها الجريح ينزف وجعًا وألمًا؛ فوضع يده على وجنتها ثم قال وهو يغتصب ابتسامة واهنة لا حياة فيها:

- يجب أن تصمدي؛ فخلاص المدينة الآن يقع على عاتقك، لا بد أن تتحلي بالقوة والشجاعة لتوقفي مرح.

توقف عن الكلام هنيئة فهو متعب للغاية، ثم قال والدموع

محتشدة في مُقلتيه:

- لقد حاولت أن أفعل الصواب ليسود العدل في مستنقع الظلم هذا، ولكنني فشلت، لقد اندلعت الحرب ولا أظنها ستنتهي أبدًا، ولكن الأمل بات الآن فيما ستفعلينه، أتوسل إليك أن تكوني الجسر الذي يعبر السلام منه.

قُبِلت جبينه والدموع تتساقط عليه، فارتجف راكان ثم قال بوهي:
- أشعر بالبرد يا مارية.

كانت هذه كلماته الأخيرة، أغمض راكان عينيه إلى الأبد؛ فصرخت مارية صرخاتٍ تؤلم روحها كثيرًا ثم بكت وروحها تصارع الألم بشراسة، فهذه المدينة ظالمة، لا يعيش فيها القوي ولا الضعيف، لا يعيش فيها المحب ولا الكاره، لا يعيش فيها الظالم ولا المظلوم، فالكل سيان في عين الملاك الأعلى، وهذا بالضبط ما ابتغاه؛ فهو يرى دموع مارية ويسمع صرخاتها المتألمة في الأفق ولكنه يبتسم بل يضحك فما أرادته يتحقق كما رسمه في عقله المريض.

كانت مرح تأمر الكائنات بحرق الكينمارو بلا رحمة، ولكنها تجمدت مكانها عندما سمعت صوت لانا المرتجف وهي تبكي من الخوف:
- مرح.

لم تصدق ما سمعته لتوها، ولكنها استدارت لتتفاجأ بابنة شقيقتها تقف أمامها وهي ترتجف من الخوف. قالت الفتاة وهي تنتحب:

- مرح.. أنا خائفة.. لماذا تفعلين هذا بالمدينة؟

نظرت إليها مرح ولسانها معقود لا يستطيع أن ينطق؛ فالكينمارو الأول كذب عليها عندما أخبرها أنها ماتت ولكنها تقف أمامها الآن حيةً ثرؤق، فظنت مرح لوهلة أنها ليست حقيقية، فربما هي شبخ أو ربما تؤثر اللعنة عليها فتجعلها ترى الأشخاص الذين ظلمتهم حتى هذه اللحظة، ولكنها لا تعرف أبدًا حقيقة الأمر، فها هي الآن تقف في منتصف معركة دامية بسبب هذه الطفلة التي ترتجف أمامها، وإن الكثير من الأبرياء يلقون حتفهم الآن بسبب اعتقاد مرح أن هذه الطفلة ميتة ولكنها تقف أمامها في هذه اللحظة وهي ترتجف من الهلع. استعرت نيران الدهشة والذهول في عقل مرح الذي حاول جاهدًا أن يفكر ولكن هيهات، لقد فات الأوان على كل شيء.

أنساها حينئذ لابنة شقيقتها كل شيء فأسرعت إلى الفتاة لتضمها بقوة، ولكن الفتاة تراجعت إلى الخلف قليلًا خوفًا منها فتوقفت مرح على الفور دون أن تقترب منها أكثر من هذا.

قالت مرح وهي تنظر بذهول للطفلة:

- لقد أخبروني أنك ميتة.

قطبت الفتاة جبينها، ثم قالت مترددة:

- لم أمت، لقد كنت أعيش مع الأطفال في الميتم في قلعة السيد ليرون بعدما ماتت أمي وجدتي. لماذا تقف تلك الكائنات المخيفة خلفك يا مرح؟ أنا خائفة للغاية.

اقتربت منها مرح واحتضنتها أخيرًا حتى كادت عظام الطفلة تنكسر من قوتها! مسحت على رأسها وقبّلت جبينها ووجنتيها وهي

تبكي بحرقه على كل ما اقترفته من جرائم؛ بسبب كذبة سخيصة
صدقها. تراجعت لانا إلى الخلف وهي تنظر بخوف شديد إلى مرح
التي وقفت تراقب علامات الفرع وهي ترتسم على وجه الطفلة
البريئة، فاجتاحت قلبها غصة مؤلمة راحت تحرقه عندما اتضحت
لها الأمور. نظرت مرح حولها؛ فشاهدت الصورة بوضوح للمرة
الأولى، فالمدينة تحترق والأبرياء يتساقطون واحدًا تلو الآخر،
والمتسبب في كل هذا هو انتقامها الذي لا حدود له. إن شياطينها
تتراقص حولها الآن فيترنمون على أنغام آلامها، بينما هي تقف
وتغطي كلتا أذنيها بيديها الآثمتين حتى لا تستمع إلى صرخات من
يُحرقون وهم على قيد الحياة. صرخت مرح صرخة تردد صداها في
المكان وكأنها ريح عاتية تأتي من بحرٍ ثائر، ثم سكنت عندما قالت
لانا وهي تنتفض من الفرع:

- أنا خائفة للغاية.

لم تعلم مرح أن مارية تقف خلفها وهي تمسك بالخنجر نفسه الذي
قُتل راكان به، وعندما استدارت لتأمر الكائنات بالتراجع لأن لانا
تخاف منهم كثيرًا تفاجأت بمارية التي غرست النصل في قلبها وهي
تنظر بتجاهم إلى عينيها الباكيتين؛ فتعانق الظلم والعدل أخيرًا في
مشهد لن تنساه لانا أبدًا. نظرت الطفلة إلى مرح بعينين متسعيتين
عن آخرهما، فصرخت وهي تشاهد الدماء تتساقط منها بغزارة ثم
سقطت مرح على الأرض ليتوقف انتقامها إلى الأبد.

توقفت الكائنات عن حرق كل ما يعترض طريقها؛ فمن كانت تأمرها
بتدمير كل شيء لم تعد على قيد الحياة. ألقت مارية بالخنجر بعيدًا

ثم غادرت المكان دون أن تفتح فمها لتذهب إلى والددة راكان؛ فإن السكان الأصليين لن يتراجعوا عما يفعلونه إلا عندما تأتي والدته وتأمريهم بالتراجع. وبالفعل، نجحت مارية في إقناع والددة راكان التي عادت إلى الحدود لتحتضن ابنها ولتضع قُبلة الوداع فوق جبينه وهي تبكي وتنوح.

بحثت مارية عن البطاقة الأخيرة فعمرت عليها بجانب جثة مرح الغارقة في دمائها، وعندما أمسكت بها أدارت الكائنات رؤوسها إليها ثم اقتربت منها وانحنت لها تعبيرًا عن احترامها وتقبلها لسيدتها الجديدة، فسمحت لها إحدى الكائنات الحجرية بأن تمتطيها. أمرت مارية تلك الكائنات باعتراض طريق السكان الأصليين والكينمارو؛ حتى يتوقفوا عن القتال. استغرق منها الأمر كثيرًا حتى هدأت نيران الحرب بين الطرفين بمساعدة والددة راكان وتلك الكائنات، بينما شاهدتهم الملاك الأعلى وهو يشتعل غضبًا.

اجتمع الكينمارو والسكان الأصليون في الميدان الكبير بعد مرور عدة أيام على المعركة الدامية، وذلك بعدما استولى السكان الأصليون على المدينة وعادت إلى أحضانهم تحت قيادة والددة راكان، فخمدت النيران وتم القبض على جميع الكينمارو والسكان الأصليين الخائنين والذين كانوا السبب في هلاك العديد من الفتيات والأطفال في سالتورا المظلمة.

وقفت والددة راكان على المنصة العالية وخلفها العديد من رجال الكينمارو والسكان الأصليين والذين التفت حبال المشنقة حول

رقابهم.

قالت بتجهم:

- اليوم تشهد سالتيوراً فجراً جديداً، فجراً يولد من رحم النور ليودع الظلام إلى الأبد؛ فقدنا العديد من الأبرياء في الأيام الماضية ولكننا الآن ننظر إلى شمس جديدة تبدد عتمتنا وتمحيها إلى الأبد.

أمسكت والدّة راكان بيد مارية، ثم أمسكت بيدها الأخرى يد زوجها وأكملت كلامها:

- السكان الأصليون والكينمارو هي أسماء أطلقناها لنفرك بين فريقين هم في النهاية بشرٌ يتشاركون الإنسانية، ومن الآن فصاعداً نحن سكان سالتيوراً فقط، فلا تميز ولا عنصرية بعد اليوم، ولا وجود لسالتيوراً المظلمة بعد هذه اللحظة؛ فالكل آمن تحت هذه السماء وفوق هذه الأرض، فلا وجود للخوف ولا نهاية لشمس العدالة بعد الآن.

استقبلت الحشود من السكان الأصليين والكينمارو ما قالته والدّة راكان بصدرٍ رحب وهم يقفون في الميدان الكبير جنباً إلى جنب. ومنذ تلك اللحظة، تغيرت سالتيوراً إلى الأفضل؛ فسقطت اللعنة بموت مرح وعادت والدّة مارية والعديد من المرضى أو الملعونين إلى طبيعتهم، عانقت مارية أمها وبكت في حضنها الدافئ، فالجرح الغائر الذي تركه راكان في قلبها لم يندمل أبداً.

كانت تذهب إلى حدود المدينة كل يوم؛ لتجلس في البقعة نفسها التي اعترف فيها راكان بحبه لها فأحيا روحها ثم أماتها عندما لفظ

أنفاسه الأخيرة. كانت تضع الزهور على الأرض وهي تبكي في كل مرة تزور فيها المكان حتى كادت دموعها تجف، ولكنها تعلم جيدًا أن الألم لن ينتهي أبدًا حتى وإن توقّف قلبها عن النبض سيطاردها الوجد أينما ذهبت.

عندما عثرت مارية على ميرال في المنارة المهجورة، عادت معها إلى الميتم لتعيش مع لانا والسيدة ديلارا التي علمت بوفاة ابنتها فتألم قلبها وعانت روحها كثيرًا؛ ولهذا السبب لم تفارقهن مارية وكأنهن جميعًا رغبن في مواجهة الألم معًا.

تكدست السحب السوداء في السماء، وارتفعت أمواج البحر الهائجة، تعصف بها الرياح العاتية، بينما هطلت زخات المطر بشراسة على المدينة الضبابية. برقت السماء بنيرانها المتوهجة، وراحت أصوات الرعد المدوية تعلن عن اقتراب النهاية. ارتجف سكان سالتورا من الرعب والدهشة، دون أن يعرفوا أن ما يحدث هو غضب الملاك الأعلى، الذي كان يزمجر ويصرخ من فوق عرشه في منتصف البحر؛ فالبركان لا يزال خامدًا، ولم تُمخ المدينة كما كان يطمح، بل ساد العدل فيها وأزيح الظلم والفساد. أدرك الآن أن مهمته قد فشلت بنجاح ساحق.

جلس على عرشه فوق المياه المضطربة، غاضبًا مما يجري من حوله. كانت الأمواج تتلاطم، وصخب الرعد يزداد، فراح يفكر الملاك الأعلى في طرق أخرى لتدمير هذه المدينة، ثم خطرت له فكرة، قد تكون جنونية وتحمل مخاطر جسيمة، لكنها فرصة لا يمكنه تركها

لتفلت من يده. ابتسم الملاك الأعلى ابتسامته الماكرة مجددًا، وهو
يستعد لتنفيذ خطته الجديدة.

تمت بحمد الله